عبد الوهاب مطاوع

الأرض المحترقة



الدار المصرية اللبنانية

الأرض المحترقة

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت تليفون: 23910250
فاكس: 23909618 – ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

رقم الايداع : 15488 / 2000
الترقيم الدولى : 2 - 634 - 270 - 977

الطبعة الثالثة : ربيع ثانى 1425هـ - مايو 2004م
الطبعة الرابعة : جمادى الأولى 1429هـ - يونيو 2008م

عبد الوهاب مطاوع

الأرض المحترقة

الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

صدق الله العظيم

مقدمة

« الأرض المحترقة » هو عنوان إحدى قصص هذا الكتاب الواقعية . .

وعلى الرغم من أننى واضع هذا العنوان للقصة حين أعددتُها للنشر فى «بريد الجمعة» بالأهرام ذات يوم . . إلا أنه استوقفنى وأنا أختار قصص هذا الكتاب وكأننى أقرأه للمرة الأولى . . فتأملتُهُ طويلاً، واسترجعتُ ما كان يُقال قديماً فى تفسيره من أنه إشارة إلى ما تفعله الجيوش المهزومة بالأرض عند انسحابها منها ، فتضطر إلى حرقها كيلا يستفيد منها المنتصر حين يدخلها .

وتفكّرتُ طويلاً فى مغزى هذا العنوان . . ووجدتُنى أتساءل : ألا يفعل البعض منا بحياته وبالآخرين الذين يرتبطون به ـ فى بعض الأحيان ـ ما تفعله الجيوش المهزومة قبل انسحابها بالأرض ؟! . . ألا يدمر بعضنا حياته بسوء التصرف وضيق الأفق والبَطَر والتعجل وقلة الصبر على المكاره؟! . . ألا يدفعنا الحمق فى كثير من الأحيان إلى الإضرار بأنفسنا وبالغير فى حَمْأَةِ الغضب والرغبة فى الانتقام ؟!

إن بعض قصص هذا الكتاب تروى أمثلة لذلك . . وبعضها الآخر يحكى عن معاناة الإنسان مع نفسه وأقداره، ومع الآخرين .

ولقد حاولتُ جاهدًا أن أشير على مَن استشارونى فى أمرهم بما رأيتُ فيه خيرهم وصلاح حالهم . . وأرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ فى ذلك بعض التوفيق ، كما أرجو أيضًا أن يجد قارىء الكتاب فى تجارب هؤلاء ما يستفيد به فى إثراء خبرته بالحياة، ويزيد من قدرته على تجنب أشواكها !

عبد الوهاب مطاوع

الاختيَار القَهرى

أرجو أن أجد لديكَ ما أحتاج إليه من مشورة تعيننى على الخروج من بحر الحيرة . . فأنا سيدة فى الثامنة والعشرين من عمرى، وقد نشأتُ بين أبويْن متحابيْن ، عشتُ معهما حياة هادئة وادعة، وتمتعتُ دائمًا بحب أبى وأمى وأخى الأصغر وأهلى . . وتعودتُ منذ صغرى أن أسمع كلمات الإعجاب بجمالى داخل أسرتى نفسها ومن الآخرين . . وحرصت والدتى منذ صغرى على تعليمى فروض دينى، فنشأتُ على الصلاة والصيام والاحتشام فى مظهرى. وبدافع تلقائى فى أعماقى وجدتُ نفسى أقرر ارتداء الحجاب وأنا فى سن السادسة عشرة من عمرى، وفاتحتُ أمى برغبتى فى ذلك، فسَعِدَتْ بها كثيرًا وطلبتْ منى أن أستشير أبى أيضًا فى ذلك، فلما تحدثتُ إليه عن رغبتى شاع الرضا فى وجهه، ثم سألنى : هل هذه الرغبة نابعة من نفسى أم حثنى عليها أحد؟ . . فأجبتُهُ بأنها رغبة صادرة عنى، وأن كل صديقاتى المقربات بالمدرسة قد تحجَّبْنَ من تلقاء أنفسهن ويواظبن على الصلاة والصوم مثلى . . وأرغب فى أن أنال رضا الله مثلهن . . فقبّلنى فى جبهتى ودعا لى بالخير والسعادة .

وازداد حبًّا لى واقترابا منى، وأصبح منذ ذلك اليوم يقول لى وللجميع إننى درة ثمينة لن يفرط فيها إلا لمن يعرف قيمتها. والغريب أن ارتدائى الحجاب قد زادنى جمالاً، وأكسبنى مزيدًا من الحب والاحترام.

ولم تمض بضعة شهور حتى فوجئتُ بأمى تبلغنى بأن عمتى ترغب فى خطبتى لابنها الذى يدرس بالسنة النهائية بكلية الهندسة، وأن أبى قد اعتذر لها لصغر سنى. وبعد أسابيع أخرى أبلغتنى برغبة ابنة عمها فى خطبتى لابنها، ورفض أبى للسبب نفسه. ثم تكررتْ هذه القصة أكثر من مرة خلال السنة الأخيرة من دراستى الثانوية، وكان رأى أبى دائمًا هو أننى مازلتُ صغيرة، وأنه لا يريد التسرع فى هذا الأمر لكيلا يسىء الاختيار.

ووافقتُ أبى على ما رآه.. والتحقتُ بكليتى الجامعية، ومضت حياتى هانئة وسعيدة..

وفى عامى الثالث شعرتُ بالتجاوب العاطفى مع شقيق إحدى صديقاتى، وهو محاسب متدين ووسيم وعلى خلق كريم.. وصارحتُ أمى بذلك.. فوعدتْنى بمساندتى عند أبى حين يتقدم إلىّ، وبدأ هذا الشاب يستعد لخطبتى، وطلب منى الصبر عليه عامًا آخر لكى يكون قادرًا على توفير متطلبات الزواج.. ووعدتُهُ بذلك، لكن شيئًا جديدًا ظهر فى حياتى وهدد أمانها وهدوءها، فلقد كان هناك شاب مستهتر يلاحقنى منذ فترة بإلحاح شديد ويطاردنى بسيارته خلال ذهابى للكلية

وعودتى منها، ويحاول فرض نفسه علىّ بكل الطرق، وأنا أتجاهله وأتفادى شره لعلمى بسوء سلوكه وسمعته. . وكان هذا الشاب قد حصل على شهادته الجامعية بعد رسوب عدة سنوات، وشارك أباه فى عمله التجارى، وقد أعجب بى وراح يلاحقنى. . وكلما تمسكتُ بتجاهله ازداد إصرارًا على ملاحقتى ، كأنما قد عز عليه أن ترفضه فتاة وهو المرغوب من غيرها.

وبعد محاولات مستميتة بدأ يرسل لى رسائل شفوية عن طريق صديقاتى ، ينبئنى فيها بأنه لن يتنازل عنى مهما فعلتُ، وأنه سيتقدم لخطبتى، فإذا رفضتُهُ فإنه سوف يشن علىّ حربًا شعواء ويشوّه سمعتى ويشيع عنى أشياء غير حقيقية ليثبت بها استهتارى وسوء أخلاقى !. . فلما سمعت هذه التهديدات من بعض صديقاتى تملكنى الغضب والحنق، وازددْتُ إصرارًا على رفضه .

ولكنه تقدم بالفعل لخطبتى، وسألنى أبى عن رأيى فصارحتُهُ برفضى له لسوء أخلاقه وتعدد علاقاته مع الفتيات ولعدم تجاوبى معه. واعتذر أبى للشاب ووالده، فكان ذلك بداية للحرب القذرة من جانبه ضدى. . فقد راح يطاردنى فى كل مكان ويحاول محادثتى، ويتوعدنى بأنه سيحول حياتى إلى جحيم. . ونفذ تهديده بالفعل فراح يرسل الخطابات القذرة لأبى وأخى وأهلى وأسر صديقاتى يتهمنى فيها فى شرفى، ويحذر آباء صديقاتى من السماح لبناتهن بمصادقتى . . فوجدتُ نفسى أسمع كل يوم قصة جديدة من هذا النوع وأبكى من شدة القهر

والإحساس بالظلم . . وتكدر صفو حياتنا جميعًا، وغضب أبى غضبًا شديدًا، وتوجه لوالد الشاب وأطلعه على الرسائل التى تلقاها، وشكا إليه مما يفعله ابنه، فغضب الرجل غضبًا عاصفًا واستدعى ابنه وكاد يبطش به، وهدده بأنه سوف يشهد ضده فى قسم الشرطة إذا شكاه أبى إليه، فإذا به يقول لأبيه مشيرًا إلى والدى: ولماذا لا يوفر على نفسه وعلى ابنته هذه المتاعب ويزوجنى منها؟ . . فكاد أبى ـ المعروف دائمًا بهدوئه ـ يُجن لوقاحته . . وانصرف غاضبًا وثائرًا، لكنه لم يتقدم بشكوى ضده إلى الشرطة حرصًا على سمعتى، وتعاطفًا مع والد الشاب الذى حار معه .

وفى هذه الفترة تقدم فتاى لأبى ورحبت به، وبدأنا نستعد لإعلان الخطبة . . فجُنّ جنون هذا الشاب المستهتر ولاحق خطيبى فى الشارع أكثر من مرة مفتعلاً الأسباب للاصطدام به، وكاد يصدمه فى إحدى المرات بسيارته فى الشارع .

ولم يكتف بذلك، وإنما راح يرسل الرسائل القذرة إليه وإلى والدته وإخوته المتزوجين وشقيقاته، يخوض فيها فى عرضى ويتهمنى ـ سامحه الله ـ بأننى لست عذراء، وأن حجابى ليس سوى مظهر خداع للتستر على حقيقتى «المدنسة» !

وبلغنى ذلك فانهرتُ . . ولزمتُ الفراش بضعة أيام . . وخيم الحزن والاكتئاب على حياتنا . . وشعرت أمى بالخوف الشديد، ليس فقط علىّ، وإنما على شقيقى الأصغر الذى أقسم أن ينتقم من هذا الشاب

المستهتر ولو أدى الأمر إلى دخوله السجن ثمنًا لذلك. . وبات أبى فى هم شديد. . وحصل على إجازة من عمله ليلازم أخى ويمنعه من الإقدام على عمل يضيع مستقبله. . واضطر لمراقبته ليل نهار، كما منعه من الخروج إلى كليته بضعة أيام، وأخذ عليه العهود المغلظة بألا يفعل ما يزيد به من متاعبنا. . وفعلتُ أنا أيضًا نفس الشىء معه. . وقبّلتُ رأسه وتوسلتُ إليه ألا يضاعف من عذابنا بالخوف عليه. . لكنى شعرتُ بأنه يسايرنا لطمأنتنا. . وأنه سوف يقدم على ما يفكر فيه بمجرد اطمئنانه إلى عدم مراقبتنا له، خاصة وأنه قوى الجسم ورياضى وله أصدقاء رياضيون مثله.

وفكرتُ أنا طويلاً فيما أفعله لأحمى أخى وأسرتى من هذا العناء. .

وبعد يومين من التفكير المتصل ، خرجتُ على أبى وأمى بقرار غريب: هو قبولى لخطبة هذا الشاب المستهتر. والاعتذار للآخر الذى أحببتُهُ عن عدم الارتباط به !. . وأعلنتُ قرارى لأسرتى ، فجُنَّ أبى وغضبتْ أمى وشقيقى وحاولوا إثنائى عنه بكل السبل. . لكنى صارحتُ أمى وحدها بأن هذا الشاب لن يدعنى فى حالى مهما فعلتُ، وقد حوّل حياتى إلى جحيم وأنا بين أبى وأمى وفى حمايتهما. . وسيواصل ذلك أيضًا وأنا زوجة. . ومادام الأمر كذلك فليكن زواجى منه تضحية منى لحماية أسرتى ،ومن يدرى فلعله لم يفعل ما فعله إلا لأنه يحبنى بصدق. . وإذا كنتُ أنا لا أحبه الآن فربما أحبه فى المستقبل. واستمر الجدال بينى وبين أسرتى حول هذا الأمر شهرًا كاملاً. وأسهم فى تليين

موقف أبى أن والد هذا الشاب قد زاره بضع مرات معتذرًا ، وراجيًا قبول ابنه الذى لم يعد له من هدف فى الحياة سوى الفوز بى ، آملاً أن يكون ذلك سببًا فى صلاح أحواله .

واعتذرتُ لفتاى الآخر وتحملتُ عتابه ولومه ودموعه . . وتحدد موعد قراءة الفاتحة مع الشاب المستهتر ، فبكيتُ بكاءً مُرًّا ، وشعرتُ بأننى أساق إلى مصير لا أستطيع الفكاك منه .

وتمت الخطبة فى جو كئيب ، وكدتُ بعدها أتراجع عن استكمال المشوار ، لكن أشباح الجحيم الذى عشتُ فيه طوال العام السابق تراءتْ لى فى مخيلتى وحطمت مقاومتى .

وقدم الشاب ووالده لأبى كل الإغراءات المادية لعقد القران وإتمام الزواج فى أقرب وقت ، ولم تمض شهور حتى تم إعداد شقة الزوجية الفاخرة والزفاف .

وفى ليلة الزفاف شعرتُ بكراهية الدنيا كلها لهذا الشاب الذى أصبح زوجى . . لكنى كتمتُ مشاعرى فى داخلى .

وشاءت رحمة ربى أن يعجز هو عن الوفاء بواجباته الزوجية ، مما جعلنى أشعر نحوه بالاحتقار والانتصار . . وأردتُ أن أسأله : أين تذهب من عقاب السماء على ما افتريتَهُ علىّ ظلمًا وبهتانًا ؟

ومضت حياتنا معًا بعد ذلك فى جفاء صامت من ناحيتى ومحاولات مستمرة من جانبه للتودد إلَىَّ والاعتذار لى عن كل ما فعله ضدى،

بدعـــوى أنـه يحبنى بصـدق وأراد ألا يفـوز بـى أحـد غيره . .

وبعد عام وضعتُ طفلتى الوحيدة الجميلة ، فلم يغير مجيئها شيئًا من برود العلاقة بينى وبينه . . بل ازدادت صمتًا وجفاءً ونفورًا . .

وبعد ميلاد الطفلة صارحتُهُ برغبتى فى الانفراد بغرفة نومى دونه لكى أرعى المولودة وأتفرغ لها ، فلم يعترض على ذلك كما لم يعترض على شىء أردتهُ طوال زواجنا .

ثم مات والده . . فشعر بالحزن الشديد عليه . . وداوم على الصلاة لبعض الوقت بعد وفاته ثم انقطع عنها . . وشاركتُهُ الحزن على هذا الرجل الطيب الذى لم أَرَ منه سوى كل عطف واحترام منذ أن عرفته .

ومضى على زواجنا ثلاث سنوات دون أن يتغير الحال بينى وبينه . . فأنا أشاركه الزيارات العائلية والواجبات الأسرية، وأقوم بواجباتى الزوجية تجاهه . . لكنى لا أشاركه المشاعر العاطفية، ولا أحب الخروج معه وحدنا، وقد سعى هو بإخلاص خلال هذه السنوات إلى تحسين علاقته بأبى وأمى وشقيقى ، فاعتذر لهم مرارًا وتكرارًا، وقبّل رأس أبى وأخى عدة مرات وتحمل جفاءهم ورفضهم حتى شعروا بالخجل من ذلك، فبدأوا يتعاملون معه بروح جديدة . . كما لم يكف طوال هذه السنين عن محاولة استجداء مشاعرى وتقديم القرابين لى لكى أغفر له ما فعل فى حقى، فقدّم لى الكثير من الهدايا الثمينة، الأمر الذى جعلنى أشعر فى بعض الأحيان بشىء من العطف عليه، وأشعر فى أحيان أخرى

بثورة داخلية شديدة ضده حين أتذكر الحرب الشعواء التى شنها ضدى واتهاماته القذرة لى فى شرفى، وإرغامى على الزواج منه والتخلى عن خطيبى الأول .

واكتسبتْ علاقتى به بعد أربع سنوات من الزواج طابعًا من الاستقرار الذى لا حياة فيه ولا عاطفة، فنحن لا نتشاجر ولا نتصادم، ولكنى أعيش فى داخلى أكثر مما أعيش معه. . وأشاركه الأشياء فى صمت وفتور بلا رغبة حقيقية.

ومنذ بضعة شهور رأيتُ خطيبى السابق بالمصادفة فى «مول» تجارى مع شقيقته، فتبادلنا التحية والأحاديث، وشعرت فى نظرة خطيبى السابق لى بالعتاب الصامت، وعرفتُ من أخته أنه قد خطب فتاة لمدة عام ثم فسخ خطبته لها. . وأنه خاطب الآن فتاة أخرى منذ بضعة شهور. . فرجعتُ إلى بيتى وأنا مضطربة المشاعر. وانفجر بركان الغضب الصامت فى أعماقى ضد زوجى، فاشتبكتُ معه فى مشاجرة مفتعلة، وثرتُ عليه ثورة هائلة، وتركت طفلتى وبيتى ورجعتُ إلى بيت أبى بدعوى أننى سأستريح هناك بعض الوقت .

وفى اليوم التالى اتصل بى زوجى فى التليفون ورجانى باكيًا العودة للبيت من أجل طفلتى التى تفتقدنى. . وأبدى استعداده لأن يغادر هو البيت إذا لم أكن أرغب فى رؤيته .

ووجدت الغضب الهائل الذى تملكنى فجأة يذوب أيضًا فجأة،

ورجعتُ إلى البيت، وواصلتُ حياتى معه. . ولاحظتُ بعد عودتى أشياء جديدة فى شخصية زوجى. .

فلقد لاحظتُ أنه قد انتظم فى الصلاة لأول مرة فى حياته، وأنه شاركنى لأول مرة أيضًا صيام الأيام الستة البيضاء عقب العيد، وشاركنى كذلك صوم يوم الوقفة، وبدأ يصوم تطوعًا من حين لآخر. كما لمستُ فيه أيضًا تغيرات أخرى. . إذ نهضتُ من نومى ذات ليلة لدخول الحمام فوجدتُهُ يصلى فى الليل وحيدًا وهو دامع العينين وفى حالة خشوع صادقة. . ورأيته بعد ذلك أكثر من مرة يصلى قبل نومه فى حجرته ويقرأ القرآن ويستغفر الله كثيرًا .

وعرفتُ من أحد العاملين معه حين جاء إلىّ ببعض مطالب البيت، أنه يحرص على الصلاة فى مواعيدها خلال العمل، وأن «أخلاقه» ـ على حد تعبيره ـ قد تغيرت كثيرًا خلال السنة الماضية وأصبح إنسانًا آخر .

ولاحظتُ أيضًا لأول مرة أن ابنتى الطفلة لا تتجاوب أبدًا معه حين يلاطفها أو يحنو عليها وتسرع بالابتعاد عنه والالتصاق بى، وأنه يشعر بنفورها منه ويتألم لذلك كثيرًا . وعجبتُ لنفسى : كيف لم ألحظ ذلك من قبل؟!. . وتساءلتُ عن السبب وأنا لا أذكره أمامها بسوء ! فبدأتُ أشعر بشىء من الأسى له وأسأل نفسى : هل يحاسبنى الله على جفاء مشاعر ابنته له؟!. . وهل يحاسبنى على هجرى له، وصمتى وفتورى الدائمينْ معه ؟!

ومنذ فترة قصيرة فوجئتُ به يقول لى فى هدوء : إنه لا يريد أن يكرهنى على الحياة معه أكثر من ذلك، وإنه يترك لى الخيار بين الاستمرار معه كزوجة كاملة، أو الانفصال عنه . . ويؤكد لى أنه لن يعترض على أى اختيار لى بل سيعيننى عليه، فإذا رغبتُ فى الانفصال عنه فسوف يعطينى كل حقوقى بلا منازعة ، وسوف يترك لى ابنتى لأربيها فى أحضانى . . وإذا تزوجت فى المستقبل فلن يحول بينى وبين رؤيتها ، وستكون دائمًا ابنتى وأنا أمها . وحدد لى مهلة لمدة شهر أفكر خلالها فى أمرى وأبلغه بعدها بقرارى النهائى .

ودار رأسى بما سمعتُ . . واستغرقنى التفكير فى أمرى طوال الوقت . . فاستشرتُ إحدى صديقاتى فقالت لى: إنها فرصة ثمينة لكى أتخلص منه وأرتبط بالشاب الوحيد الذى كنتُ قد أحببتُهُ من قبل. واستشرتُ أمى فنصحتنى بالاستمرار معه لأنه تغير كثيرًا وأصبح إنسانًا طيبًا يحبنى ويحترمنى ويصبر على الأذى منى، وأيضًا من أجل طفلتى التى لن تسعد بافتراقها عن أبيها أو عنى . وذكّرتنى أمى بأن زواجى منه كان قرارى الشخصى واختيارى الذى لم يرغمنى عليه أحد .

وبالرغم من تأثرى بكلامها إلا أننى ثرتُ فى داخلى على عبارة أنه « لم يرغمنى أحد على الزواج منه »، وقلت لها : بل إنه هو الذى أكرهنى على الزواج منه بالحرب القذرة والضغط المستمر، وتحويل حياتى إلى جحيم . لكن ذلك لم يخرجنى من حيرتى . . وما زلتُ أتردد بين الميل للقبول بزوجى والاستمرار معه على أسس جديدة من أجل طفلتى ،

ومن أجل ما طرأ عليه من تغيرات إيجابية وما بدأتُ أشعر به من تقدير لحبه الكبير لى وصبره على جفائى له كل هذه السنوات ، وبين الرغبة فى إنهاء هذه الحياة الفاترة الصامتة والتحرر منها، واختيار حياة جديدة لى بكامل إرادتى هذه المرة، وليس تحت ضغط الظروف التى حكيتها لك . . فبماذا تشير علىّ يا سيدى . . وبماذا تنصحنى أن أفعل ؟

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

الفرق بين الاختيار الحر للإنسان والاختيار القهرى الذى تمليه عليه الظروف الملحة، هو أن الاختيار الحر يكون بين بدائل شبه متقاربة يعتمد التفاضل بينها على الترجيح بين «الحسن» و «الأحسن» من وجهة نظر صاحب القرار، ووفقًا لاقتناعه العقلى وميوله العاطفية والنفسية. أما الاختيار القهرى فهو الذى تضيق فيه دائرة الاختيار بين بدائل لا وجه للمقارنة من الأصل بينها، كأن يجد الإنسان نفسه فى الطريق وسيارة مسرعة تقترب منه لتدهمه، فيكون الاختيار الوحيد المتاح أمامه هو التجمد فى موقعه لتصدمه السيارة، أو القفز إلى الرصيف لينجو من الهلاك. وبالرغم من أن الإنسان سوف يختار غريزيًّا النجاة من الخطر، إلا أن اختياره هذا يعدّ اختيارًا قهريًّا لا بديل لعاقل سواه .

وأحسب أن اختياركِ لزوجكِ كان من قبيل هذا الاختيار القهرى، الذى لا تتوافر فيه حرية الإرادة الكاملة، حتى ولو لم يرغمك عليه أحد من أهلك، إذ كان بالنسبة إليك اختيارًا بين الاستمرار فى مكابدة

الجحيم والحرب القذرة وتعريض شرفك وسمعتك وأسرتك وشقيقك للأذى، وبين إيثار السلامة وطلب النجاة من هذا البلاء ! فإذا كنتُ قد لُمتُكِ على هذا الاختيار، لأنه كان هروبًا من المعركة ونكوصًا عن التمسك بحقك المشروع فى الاختيار الحر لحياتك وتحمل تبعات ذلك إلى النهاية، فإنى على الناحية الأخرى ألتمس لك بعض العذر فيه بالنظر للظروف المحيطة والضغوط القاسية التى أحاطت بكِ عند الاختيار .

غير أننى أتصور أن هناك عاملاً آخر قد رجح لديكِ هذا الاختيار القهرى لا يقل أهمية عن الاعتبارات السابقة . .

فلقد كنتِ تخوضين معركة غير متكافئة للدفاع عن شرفكِ وسمعتكِ ضد من يفترى عليكِ السوء ويتهمكِ بأبشع الاتهامات، وضاقت نفسكِ بهذه الحرب القذرة، ورغبتِ فى تطهير نفسكِ وسمعتكِ من كل ما علق بها من هذه السهام الطائشة، فرأى عقلكِ الباطن - وربما الواعى أيضًا - أن أنجح وسيلة لدحض هذه الاتهامات الظالمة لك هو أن تنزوجى ممن أطلقها ضدك، فكأنما تحصلين بذلك منه على شهادة البراءة أمام الجميع من كل ما افتراه عليكِ واتهمكِ به من قبل .

لكنّ السؤال المهم هو : هل كان نفى هذه الاتهامات الكاذبة والرغبة فى إنهاء هذه الحرب القذرة وحماية أسرتكِ من متاعبها، يستحق منكِ هذا الثمن ؟

إنه سؤال ترجع إجابته إليكِ . وأيًّا كانت الإجابة فسوف يكون لها

جانب لا بأس به من المنطقية والحجية، لأنه لا يعرف لسع نيران الجحيم إلا من يكتوى بها .

لكنى إذا عجبتُ لشىء فى قصتكِ هذه فلن يكون عجبى الأكبر لاستسلامكِ أمام خصمكِ فى هذه الحرب غير الشريفة طلبًا للسلامة، وقد كانت هناك بالفعل وسائل أخرى لإنهائها، منها اللجوء إلى القانون. . وإنما سيكون عجبى الأكبر لاستسهال البعض بمثل هذا الطيش لاقتراف جريمة القذف فى أعراض المؤمنات بغير خشية لعقاب السماء ولا عقاب المجتمع، مع أنه جريمة يعاقب عليها الله سبحانه وتعالى فى الدنيا والآخرة، ويعاقب عليها أيضًا المجتمع فى قوانينه الوضعية !

فلقد جعل الله جريمة القذف من كبائر الإثم والفواحش التى يُحدُّ عليها مرتكبها إن لم يُقِمْ البينة على صحة ما رمى به الغير، وعقوبة القذف فى الشريعة السمحة مادية وأدبية، فالعقوبة المادية هى الجلد، والأدبية هى رد شهادة القاذف وعدم قبولها أبدًا، والحكم بفسقه حيث يصبح بذلك غير عدل عند الله والناس .

بل إن العلماء قد اختلفوا فى توبة القاذف : هل ترد له اعتباره فتقبل منه شهادته أم لا ؟ فذهب بعضهم إلى قبول شهادته إذا صحت توبته، وذهب البعض الآخر إلى عدم قبولها .

كما أن الإسلام لم يكتف بتحريم القذف بالتصريح المباشر فقط،

وإنما حرمه كذلك بالتعريض ـ أى بالتلميح ـ دون التصريح به، وفى عهد العظيم «عمر بن الخطاب» تَسَابَّ رجلان، فقال أحدهما للآخر : ما أمى بزانية ولا أبى بِزَانٍ. وسأل عمر أهل الشورى فى حكم هذه العبارة : هل تعتبر قذفًا أم لا ؟. . فقال أحدهم : مَدَحَ أباه وأمه. . ولا شىء فى ذلك ! وقال آخرون : كان له فى مدحهما سبيل آخر، إنما هو قذف بالتعريض يستحق عليه الحد. . فأخذ عمر بهذا الرأى وجَلَدَ الرجل .

فما أعجب أن يرتكب البعض هذه الجريمة النكراء دون أدنى إحساس بالإثم، وكأنما قد صارت سلوكًا عاديًّا لا يستحق الوقوف أمامه!

فأما تساؤلاتكِ الحائرة فلسوف أجيب عنها بترتيبها . .

فإذا كنتِ تسألين : هل يحاسبك الله سبحانه وتعالى على جفائكِ لزوجك وهجركِ له ؟. . فجوابى عليه : نعم . لأنكِ بالرغم من كل ما جرى قد ارتضيتِ به زوجًا لك وقد كان فى مقدوركِ رفضه، ولو تحملت فى سبيل ذلك العناء .

وإذا كنتِ تسألين : هل يحاسبكِ الله سبحانه وتعالى على نفور طفلته منه بالرغم من أنكِ لا تشيرين إليه بسوء أمامها ؟. . فجوابى عليه هو أيضًا : نعم . لأنكِ إذا كنتِ لا تذكرين أباها بسوء أمامها فأنتِ على الناحية الأخرى لا تذكرينه بخير لها ولا تحثينها على حبه والاقتراب منه،

ولا تعرفينها بفضله عليها كأب لها . . وتكتفين بالتصاقها بكِ دون أن تؤدى واجبكِ كأم تجاه هذه الطفلة فى توجيهها إلى حب أبيها والاقتراب منه .

فالأطفال الصغار إذا كانوا يرضعون حب الأم مع لبنها ، فإنهم لا يتشربون حب الأب فى مثل هذه السن المبكرة إلا من خلال الأم الواعية لواجباتها الدينية والتربوية، وذلك قبل أن يكبر الصغار ويتأثروا بمؤثرات الأب المباشرة .

وأما سؤالكِ الجوهرى عن القرار النهائى الذى ينتظره منك زوجك، فالحق أننى أشعر من خلال كلماتكِ بأنك لا تخلين من رضًا عميق فى داخلك عن حبه الكبير لك، وأحسب أن هذا الرضا كان أيضًا واحدًا من الأسباب التى رجحتْ لديكِ الارتباط به إلى جانب الاعتبارات السابقة، غير أنكِ تشعرين على الناحية الأخرى بأنكِ مازلت «ضحيته» ولستِ زوجته التى اختارته بملء إرادتها، فيقف هذا الإحساس المؤلم حائلاً بينكِ وبين التجاوب المتصل معه .

كما أننى لا أشعر بأن لديكِ رغبة حقيقية فى تغيير حياتكِ وبدء حياة جديدة مع خطيبكِ السابق، أو مع غيره. . وإنما أشعر فقط بأنكِ مازلت تريدين مواصلة «عقاب» زوجكِ على ما اقترفه فى حقكِ من جرائم قبل ٤ أو ٥ سنوات، لأنكِ لا ترين الفترة الماضية كافية له للتكفير عما فعل ولا للصفح عنه ، ولا ترين كذلك أن ما قدمه لكِ من

قرابين حسن المعاملة والاعتذار والتودد والصبر على الجفاء والهجر كاف لذلك .

وبذلك لا يصبح الاختيار الذى تواجهينه الآن فى الحقيقة بين الحياة معه كزوجة كاملة ، أو الانفصال عنه وبدء حياة جديدة بعيدة عنه . . وإنما يصبح الاختيار الحقيقى الذى تترددين أمامه هو إطالة مدة العقوبة لفترة أخرى . . أو الصفح الآن والإفراج عنه لحسن السير والسلوك خلال فترة العقاب !

وأرجو أن تواجهى نفسكِ بشأن هذا الاختيار مواجهة صريحة ، لأنكِ - فيما أتصور - لا تخططين لبدء حياة جديدة مع غيره، ولا ترغبين لطفلتكِ فى التمزق بينكِ وبينه . فإذا كان الأمر كذلك، فلعلّى أقول لكِ : إن زوجكِ قد قدّم لكِ ولأسرتكِ من القرابين، وأهمها فى نظرى حسن معاشرته لكِ وتسامحه معكِ وصبره عليكِ، ما يكفى - إلى جانب التوبة والندم والاستغفار - لأن يشفع له عند ربه فيما اقترف من جرم القذف السابق فى عرضك . فكيف لا يشفع له كل ذلك لديكِ ؟

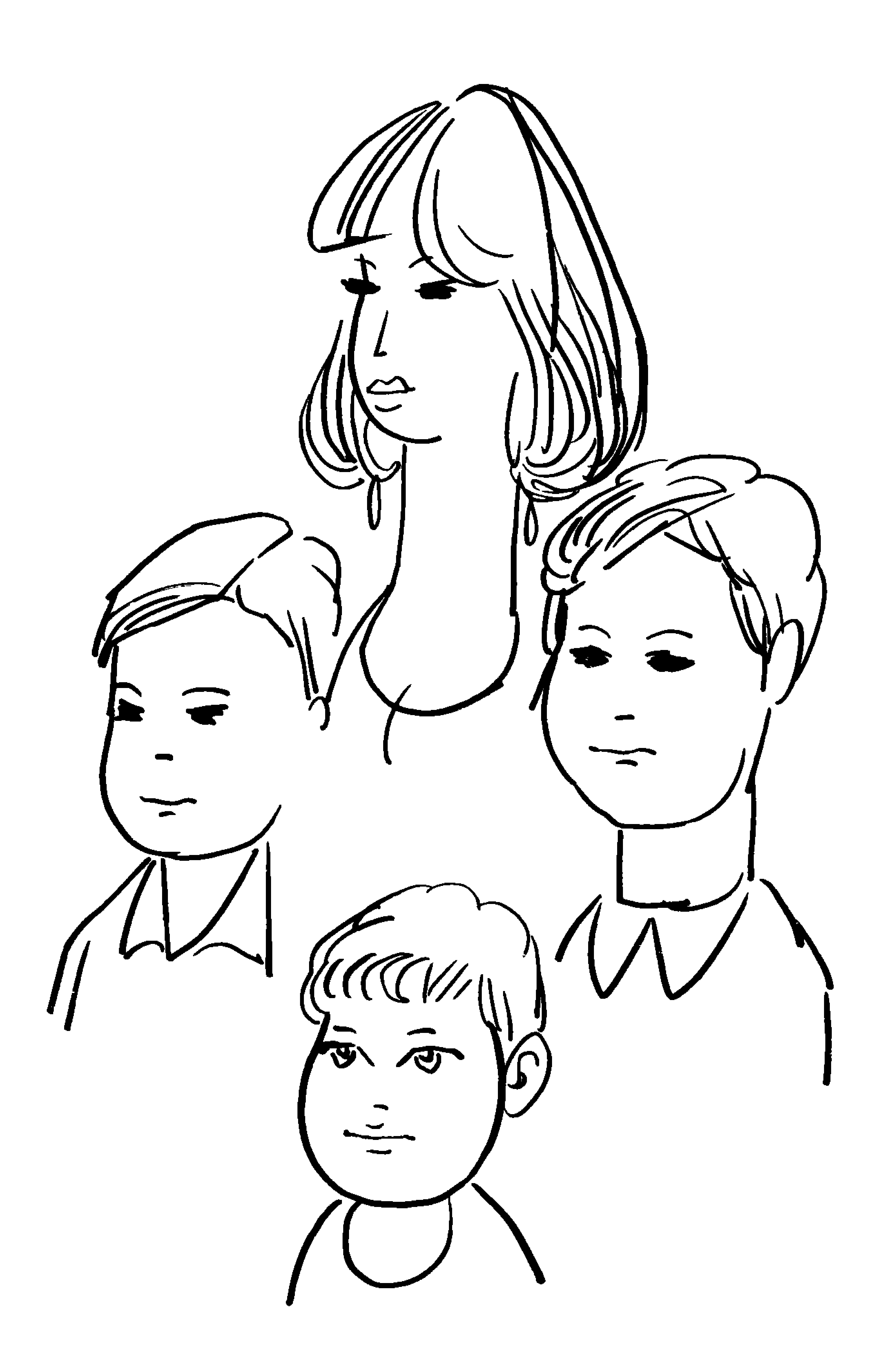
إن التغيرات الإيجابية فى شخصيته والتزامه الدينى والخلقى وكثرة استغفاره وصلاته وصيامه . . كل ذلك يرشحه لأن يستحق صفحكِ وحسن معاشرتكِ له .

ولقد اعتبرتِ نفسكِ قبل ذلك قد أُرْغِمْتِ على الزواج منه بالاختيار القهرى الذى لا خيار سواه إلا الجحيم وسوء السمعة . . وكان هذا الإحساس كفيلاً وحده بعدم تفتح مسامكِ له . . فلماذا لا يكون قراركِ

النهائى الآن هو «الزواج» من زوجكِ هذه المرة بالاختيار الحر له والرغبة الصادقة فيه ؟

إننى أعتقد أن حرية الاختيار لزوجكِ هذه المرة سوف تكون عاملاً جوهريًّا فى اختلاف علاقتك به وحياتكِ معه إلى الأفضل بإذن الله . .

* * *



سَـوطُ الحـقِيقَـة

كتبتُ إليكَ من قبل رسائل عديدة فى فترات سابقة ولم أرسلها لك، أما الآن فإنى فى حاجة إلى مشورة إنسان لا يجاملنى ولا يترفق بى . . وإنما يمسك بسوط الحقيقة ويجلدنى به بلا شفقة .

فأنا سيدة فى الثانية والثلاثين من عمرى، تزوجتُ بعد حصولى على الشهادة الإعدادية مباشرة امتثالاً لرغبة أبى . . ولم أكن أرغب فى زوجى ولا أحبه بالرغم من أنه شاب هادىء وطيب، وقد استمر زواجنا ١٢ عامًا، حملتُ خلالها ٤ مرات . . وفى كل مرة يموت الجنين أو المولود بمجرد ولادته، فيئس منى زوجى وبدأ يفكر فى الزواج مرة ثانية، فتجرعتُ المرارة طوال عامين وأنا أراه مشغولاً بالتفكير فى الزواج إلى أن فاض بى الكيل، فطلبتُ الطلاق، ورجعتُ إلى بيت أسرتى جريحة الكرامة والأنوثة، ومضت شهور قليلة تقدم إلىّ خلالها كثيرون، لأنى - كما يقولون - شابة جميلة، وكان معظم المتقدمين لى من المتزوجين، وفكرت جديًّا فى الزواج من رجل لديه أبناء لكيلا أقاسى ما قاسيتُهُ مع زوجى

السابق بسبب عدم الإنجاب، ورجوتُ أبى ألا يتدخل هذه المرة فى اختيارى لمن يشاركنى حياتى بعد ما حدث فى المرة الأولى .

وتقدم لى شاب عمره ٣٠ عامًا ومتزوج وله طفلتان، وزوجته حامل! . .

وبالرغم من ذلك فقد طلبتُ أن أتحدث معه لأعرف شخصيته ، فجاء إلينا، وقال إنه غير متفاهم مع زوجته. . لكنه لم يطلقها من أجل أطفاله، و إنما سيتزوج بمن يتفاهم معها، وزوجته موافقة على ذلك .

تعجبتُ لما سمعت . . وطلبت منه أن يدعو زوجته للحضور معه إلى بيتنا فى الزيارة المقبلة لأتأكد من قبولها بزواجه من غيرها. . وجاءت معه بالفعل. . ووجدتُهُا أصغر منى سنًّا وجميلة جدًّا، وسألتها عما قاله لى زوجها، فهزت رأسها وقالت إنه سيتزوج فى كل الأحوال، سواء منى أم من غيرى. . ولهذا فهى لا تعترض تسليماً بالأمر الواقع. . وبالرغم من أن كل الظروف كانت تدعونى للابتعاد عن هذا الشاب، فقد قبلتُ به وتمتْ خطبتنا. . وبعد الخطبة ترامت إلىّ أقاويل عن سلوكه وسوء سمعته من الناحية النسائية، وعلمتُ أن عمله يتطلب منه أن يقضى فى كل محافظة بضعة أشهر، فيبتعد عن زوجته ويتورط فى علاقة نسائية أخرى، بل إن والده نفسه قد جاءنى بعد الخطبة ونصحنى بألا أتزوج ابنه لأننى لا أستحق ما سوف ينالنى منه، فلما واجهتُه بما قيل لى عنه ، إذا به يعترف لى بكل بساطة بأن كل ما سمعتُه عنه صحيح، وفَسَّرَهُ لى

بأنه كان يبحث عن الحب الذى لم يجده فى حياته الزوجية ، وأنه ما دام قد وجده فسوف يتغير ويبدأ معى صفحة جديدة فى حياته ، ويلتزم بالصلاة وفروض دينه . . إلخ .

وثار أهلى جميعًا ورأوا عدم إتمام هذا الزواج الذى لن يعدنى إلا بالمشاكل، لكننى صممت على أن أتزوجه ـ وسط دهشة الجميع واعتراضهم ـ لسبب بسيط : هو أننى كنتُ مشدودة إليه بقوة ، وتأكدتُ من أننى أحبه ، وتخيلت أن الحب الحقيقى يطهر الإنسان من أدرانه ويجعله أقرب إلى الملائكة ، وما دام قد أحبنى فلسوف يتغير إلى الأفضل .

وتزوجتُهُ بالفعل بالرغم من مقاطعة أهلى ورفض معظمهم لهذا الزواج ، وطلبتُ منه أن يكون عادلاً بينى وبين زوجته الأولى . . وبدأتُ حياتى بالاقتراب منها وزيارتها والخروج معها ، ونجحتُ إلى حد كبير فى امتصاص غضبها ، خاصة بعد أن وقفتُ إلى جوارها حين وضعتْ حملها وأنجبتْ طفلاً جميلاً .

وبعد فترة قصيرة شعرتُ بالجنين يتحركـ فى أحشائى ، وسعدتُ بذلك كثيرًا ، وأملتُ أن تتحقق أمنيتى الغالية هذه المرة . ووضعتُ طفلة . . لكنها ـ للأسف ـ ماتت هى الأخرى بعد ولادتها بساعة . . واكتأبتُ لذلك كثيرًا ، ثم حاولتُ التآلف مع ظروفى .

وبعد فترة أخرى وقع خلاف شديد بين زوجى وزوجته الأولى طلبتْ

على إثره الطلاق منه وحصلتْ عليه، وتنازلتْ له عن حضانة الطفلتين والولد الذى كان عمره حينذاك ستة أشهر. . وفكر زوجى فى أن يضم أطفاله الثلاثة إلى والدته لكى ترعاهم، لكنى رفضتُ ذلك بإصرار وصممتُ على أن يقيموا معى لأننى أحبهم، حيث إنهم بضعة من زوجى الذى أحبه .

وجاء الأطفال للإقامة معنا . . فحملتُ الطفل الصغير بين يَدَىَّ وأنا فى غاية الابتهاج، إذ كانت المرة الأولى فى حياتى التى يصبح لى فيها طفل وليد، وسعدتُ للغاية بالطفلتيْن وبكلمة «ماما» الجميلة التى حُرِمْتُ منها طوال عمرى . وتعلقتُ بالطفل الوليد كثيرًا وأصبحتُ أخاف عليه حتى من ملامسة يدى لجسمه الرقيق، واعتبرتُهُ تعويض السماء لى عن حرمانى الطويل، حتى صار الجميع ينادوننى باسمه .

ومضت سنتان وأنا فى سعادة غامرة. . وبالرغم من أن زوجى لم يتغير ولم يكف عن المغامرات النسائية، ولم ينكرها أيضًا حين واجهتُهُ بها، فلقد احتملتُ حياتى وتفانيتُ فى محاولة إسعاده وإسعاد «أولادى»، وحرصتُ على أن أكون زوجة مثالية وأُمًّا رائعة ولست زوجة أب. وخلال ذلك كانت مطلقة زوجى قد تزوجتْ من رجل آخر وعاشتْ معه ولم تعد تسأل عن الأطفال .

وفجأة عرفتُ أنها قد حصلتْ على الطلاق من زوجها، «واكتشفتُ» ـ لدهشتى وذهولى ـ أن زوجى ظل طوال العاميْن الماضييْن يطاردها وهى

زوجة لرجل آخر حتى طلقها منه لترجع إليه . . وأنه الآن فى انتظار انتهاء فترة العدة لكى يتزوجها !! . . فصعقتُ حين علمتُ بذلك . . وواجهتُهُ فلم ينكر . .

ومشكلتى الآن هى أننى لم أعد أتخيل أن ترجع حياتى إلى الخواء الذى كانت عليه بعد عامين طويليْن اعتدتُ خلالهما على وجود «أولادى» معى، حتى امتلأتْ بهم حياتى وروحى ونفسى . . فكيف أتركهم لها الآن خاصة «ابنى» الصغير هذا ؟

من المستحيل طبعًا أن تسمح هى بأن يظل الصغير معى ، لكنه لو خُيِّرَ بيننا لاختارنى، حيث إنه لا يعرفها . . ولقد حاولتُ الهروب من المشكلة فطلبتُ الطلاق من زوجى لأعود لأسرتى وأغلق حياتى على نفسى وهمومى، لكنه رفض واتهمنى بالأنانية لأننى أريد أن أحرم زوجته السابقة من أطفالها، ونسى أنها هى التى اختارتْ وتركتْ أولادها وتنازلتْ عنهم، ونسى أنها تركتهم عامين لم تفكر خلالهما سوى فى حياتها ونفسها . . فى حين سلمتُ أنا روحى ونفسى لهم وتعودتُ على وجودهم فى حياتى . .

إننى أعرف أنه ليس ذنبها . . لكنه أيضًا ليس ذنبى، حيث أعتقد أننى لم أخطىء فى شىء وإنما احتملتُ مرارة حياتى من البداية للنهاية، وتحملتُ فضائح زوجى النسائية من أجل بيتى و «أولادى» وحياتى، كما أننى أعرف أن الطلاق لن يحل مشكلتى بل سوف يعقدها، لأننى أحب

زوجى بالرغم من كل شىء، ولأن زواجى به هو الزواج الثانى فى حياتى ولن أحتمل الفشل مرة أخرى.. فهل أنا ظالمة أم مظلومة.. وبماذا تنصحنى؟

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

إذا كنتِ تحتاجين حقًّا لمن يجلدك بسوط الحقيقة ولا يجاملك على حسابها، فلابد لى من أن أقول لك إن رغبتنا الشديدة فى الأشياء لا تسوغ لنا أبدًا اغتصابها من أصحابها أو الاستئثار بها دونهم، حتى ولو أهملوها بعض الوقت أو بدوا لنا غير مبالين بها، فالحقيقة التى تبقى غير قابلة للجدال هى أن حقهم فيها يظل قائمًا وثابتًا بغير الحاجة إلى دليل. كما أن رعايتنا نحن لهذه الودائع الثمينة فى فترة انصراف أصحابها عنها قد توجب لنا الشكر عليها، لكنها لا ترتب لنا أبدًا حق الاستيلاء عليها دونهم بحجة أننا قد أخلصنا فى رعايتها وأحببناها وسعدنا بها وملأت علينا حياتنا.

وهكذا فلابد لكِ لكيلا تتجاوزى حد الإنصاف أن تسلمى بهذه الحقيقة المؤلمة لكِ، وهى أن هؤلاء الأطفال الثلاثة ليسوا أبناءك، وإنما هم أبناء هذه الأم التى تخلت عن حضانتهم بعض الوقت وتزوجت من غير أبيهم، وتستعد الآن لإعادة جمع شمل أطفالها مع أبيهم تحت سقف واحد.

ولأن الحقيقة كثيرًا ما تكون صادمة لأهوائنا ورغباتنا، فإن شجاعة التسليم بها تتطلب منا أن نرتفع فوق هذه الرغبات والأهواء، وألا نتأثر

بمشاعرنا الشخصية فى حكمنا على الأمور لنكون من المنصفين، فالحق ينبغى له أن يكون أحب إلينا مما تهفو إليه نفوسنا وقلوبنا . ولقد كان الفقيه الحنبلى «ابن قيم الجوزية» فى شرحه لكتاب الشيخ الهروى « منازل السائرين» يقول حين يتهيأ لمعارضته فى بعض آرائه : شيخ الإسلام حبيب إلينا عزيز علينا ، لكن الحق أحب إلينا منه وأعز علينا منه. ثم يعرض بلا حرج ما يختلف فيه معه .

فلعلكِ تفهمين من ذلك إذن أن تقديرى لظروفكِ الإنسانية وتطلعكِ المحروم للأطفال لا يجيز لى أن أخالف الحق المر بالنسبة لكِ، وهو أن هؤلاء الأطفال الثلاثة مهما بلغ من حبكِ لهم وعطفكِ عليهم واحتياجكِ النفسى لوجودهم فى حياتك، ليسوا «متاعًا» يفقد صاحبه الحق فيه إذا أهمله أو ابتعد عنه مرغمًا أو راضيًا بعض الوقت. وإنما هى «أمانة» استودعتِ إياها فى ظروف معقدة ، ثم تغيرتْ هذه الظروف الآن ، وآن لك أن ترديها إلى أهلها كما يأمرنا بذلك الحق سبحانه وتعالى ـ مع الفارق فى التشبيه ـ فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾[1]، وفى قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾[2] خاصة إذا تذكرتِ فى هذا الشأن قوله ﷺ فيما معناه : (من فرّق بين والدة وولدها فرّق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة)، وإذا تذكرتِ كذلك أن «عمر بن الخطاب» ـ

(١) سورة النساء ، من الآية ٥٨ .

(٢) سورة البقرة ، من الآية ٢٨٣ .

رضى الله عنه ـ قد طلق زوجته الأنصارية بعد أن أنجب منها ولده «عاصمًا» . . ثم رآه فى الطريق وأراد ضمه إليه، فقال له «أبو بكر الصديق» ـ رضى الله عنه: رِيحُهَا ومَسُّهَا ومَسْحُهَا ورِيقها خير له من الشَّهْدِ عندك يا عمر . .

فإذا كان هذا هو الحال مع الأب، فكيف يكون معكِ أنتِ يا سيدتى مهما بلغ من حبكِ لهؤلاء الأطفال وحنوّكِ عليهم واحتياجكِ النفسى إليهم ؟! فلا تحاولى إقناع نفسكِ بأنكِ أحق بهؤلاء الأطفال الصغار من أمهم التى حملتهم وَهْنًا على وَهْنٍ لأنها قد انفصلتْ عن زوجها وتزوجتْ غيره، وابتعدتْ عنهم مُرْغَمَة أو راضية عامين من الزمان، ذلك أننا لا نعرف الكثير عن ظروف انفصالها عن زوجها، وإن كان زواجه بكِ وهى حامل فى طفلها الثالث بدعوى عدم تفاهمه معها، يكفى وحده للإشارة إلى ما عانتْهُ وتكبدتْهُ من أجل الحفاظ على هؤلاء الأطفال أنفسهم حتى لَتُضْطَرّ مرغمة للتسليم بزواجه من غيرها وتصحبه أيضًا إلى بيتكِ لتبلغكِ بعدم معارضتها له، والله وحده أعلم بعمق الجرح فى قلبها وصدرها وهى تفعل ذلك . . فإذا كانت قد ضاقت بها الحيل بعد حين وطُلِّقَتْ منه وتزوجتْ غيره وكان الثمن الباهظ لذلك هو التنازل عن حضانة هؤلاء الصغار، فإن وقوفكِ فى وجه إصلاح هذا الخطأ الفادح وإعادة جمع شمل الأطفال بين أبيهم وأمهم لا يمكن تفسيره بالفعل إلا بالأنانية ومحاولة إيثار النفس بما ليس من حقها، حتى ولو كانت فى أشد الاحتياج إليه، لأن الاحتياج وحده لا يصنع حقًّا لأحد . . تمامًا كما أن

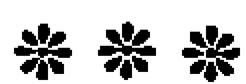
الاستغناء لا يسقط حقًّا لبشر . . ولقد اخترت حياتكِ هذه بملء إرادتك، فارتبطتِ برجل متزوج وزوجته حامل فى طفله الثالث، ومضيتِ فى مشروع زواجكِ منه بالرغم مما اطلعتِ عليه من أمره، ولم تستجيبى فى ذلك لنصح الناصحين حتى والده الذى كره لكِ أن تتعرضى معه لما لا تستحقين من المتاعب والمشاكل، فأنتِ إذن واختياركِ . . ولكِ أن تبرريه لنفسكِ بما تشاءين من المبررات العاطفية حتى ولو أنكرها العقل والحكمة . . لكنه لا يحق لكِ ـ مهما كانت معاناتكِ مع الحرمان المؤلم من الإنجاب، أو الارتباط العاطفى بهؤلاء الصغار ـ أن تدعى لنفسك فيهم حقًّا ليس لكِ ، وإذا كنتِ قد أحسنتِ رعايتهم والحدب عليهم، فإن :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيـه

لا يذهب العرف بين الله والناس

وهكذا . . فإن رعايتكِ لهؤلاء الأطفال الثلاثة لن تذهب سُدًى، وإنما سوف تنالين عنها أجركِ الموفور بإذن الله من السماء، كما أن علاقتك الإنسانية بهم لن تنقطع بمجرد عودتهم إلى أحضان أمهم، وإنما من الممكن أن تتواصل وتستمر فتعوضكِ بشكل أو بآخر عن بعض حرمانكِ منهم، ومن الممكن بكل تأكيد أن تكونى أُمًّا ثانية لهم إلى جوار أمهم الحقيقية، لكنه ليس من العدل أو الرحمة أن تتطلعى لأن تكونى أمهم الأولى دونها. أما شكواكِ من عدم تغير زوجكِ ومغامراته النسائية

وصبركِ عليها حرصًا على مصلحة «أولادكِ» واقتناعكِ بأن الطلاق منه لن يحل مشكلتك وإنما سوف يزيدها تعقيدًا، فلا تعقيب لى عليها سوى أن مَنْ يعرف قواعد اللعبة قبل المشاركة فيها لا يحق له الاعتراض عليها خلال اللعب. وأنتِ قد قبلتِ الزواج من رجل متزوج وله أطفال ويتمتع بسمعة غير طيبة بسبب ضعفه حيال النساء ومغامراته المتعددة.. فأمرُكِ إذن بيدكِ إذا رغبتِ فى أن تواصلى «الشرب على القذى» كما يقول الشاعر، أو ترفضى الاستمرار فى تجرع الماء العكر وتختارى لنفسكِ حياة أخرى.. أما تبريركِ لرغبتكِ فى الاستمرار فى زواجكِ - بالرغم من كل شىء - بالحب، فإنه تكرار لما وصفه الكاتب الفرنسى «مارسيل بروست»: «الصراع بين الذكاء الواعى للإنسان وإرادته الوضيعة»، أى الضعيفة تجاه ما يحب ويعلم فى نفس الوقت أنه يدفعه دفعًا إلى الوقوع فى البئر لغير سبب سوى أنه «يريد» مَن يحب ولا يقوى على مقاومة ضعفه تجاهه، بالرغم من اقتناع عقله الواعى بكل مثالبه وعيوبه.. وهو صراع قد يطول أو يقصر. لكنه لابد له فى النهاية من لحظة حسم واختيار يتمالك الإنسان فيها إرادته فيفعل ما يمليه عليه العقل.. مما يتغافل هو عنه أو يتجاهله استسلامًا لهذه الإرادة الضعيفة.



مَحطَّةُ القِطار

أكتب لكَ للمرة الثالثة وأرجو أن تجد رسالتى لديكَ هذه المرة اهتمامًا كافيًا، لأننى فى أشد الحاجة إلى مساعدتك . .

فأنا شاب عمرى ٣٦ سنة. . حاصل على شهادة عليا ومن أسرة متوسطة ومحترمة. . وقد مضت حياتنا هادئة وطبيعية فى ظل أبوينا، فتعلمنا وعمل إخوتى وحققوا نجاحهم، وعملتُ أنا بعمل مرموق بإحدى الهيئات، وأصبحتْ حياتى موزعة بين العمل والبيت والنادى، وبعد التحاقى بالعمل خطبت فتاة. . فكان مصير خطبتى الفشل بعد حين لخلافات عائلية. . وبعد فترة أخرى خطبت فتاة أخرى، وكان الفشل أيضًا هو مصير هذه الخطبة الثانية ولنفس السبب .

ثم رحل والدى عن الحياة ـ يرحمه الله ـ وشعرتُ بالحزن الشديد عليه لأنه ضحى بالكثير من أجلنا، وكان وافر العطاء لنا، رحمه الله، وأثابه عنا. . وعقب رحيله عن الحياة ببعض الوقت أبلغتنى والدتى أن إحد صديقاتها ـ وهى سيدة مصرية مهاجرة لأمريكا، وترجع من حين لآخر

فتلتقى بأمى وتتبادل معها الزيارات ـ تبحث عن فرصة ملائمة للعمل لإحدى قريباتها الشابات، وطلبتْ منى أن أحاول مساعدتها على العمل معى بنفس الهيئة. . ووعدتُها خيرًا. . ونسيت الأمر لبعض الوقت. . لكنّ إلحاح أمى علىّ دفعنى لأن أحدِّث رئيسى فى شأنها، فطلب مقابلتها لإبداء الرأى فيها، وحددتُ معه موعدًا للمقابلة، واتصلتُ بالسيدة صديقة أمى وطلبت منها إرسال قريبتها إلى مكتبى فى هذا الموعد، فلما جاءت وجدتها فتاة جميلة ومشرقة وممتلئة بالحيوية. . وتحدثتُ إليها حديثًا طويلاً وجدتُنى فى نهايته أتمناها لنفسى وأتعجب لهذه الرغبة العجيبة، وتم اللقاء بينها وبين مديرى، فانتظرتُ خروجها لأعرف ماذا جرى فى اللقاء. . لكنها كانت قد خرجت من باب آخر، وبعد ساعات اتصلتْ بى لتشكرنى. . وعرفتُ أن المدير قد اقتنع بها وقرر أن يعطيها فرصة للعمل تحت الاختبار.

وجاءت الفتاة إلىّ لكى أعرفها بظروف العمل وكيفية التعامل مع العاملين فيه، وجرى حديث طويل بيننا شعرتُ خلاله بانجذاب شديد إليها. ثم تكرر اللقاء والحديث بيننا . . وفى كل مرة أجدنى أكثر انجذابًا إليها. . حتى سلمتُ بعد بضعة أسابيع بأننى أحبها وأرغب فى الارتباط بها، وهنا بدأت المشكلة التى اعتصرتْنى بعد ذلك وغيرتْ مجرى حياتى، فلقد أدركتُ من الوهلة الأولى أن والدتى لن توافق على الإطلاق على ارتباطى بها على الرغم من أنها هى التى أوصتنى بتوظيفها فى جهة عملى، لأنها من وسط اجتماعى أقل من وسطنا، وإن لم يكن أقل من

الناحية المادية . . حيث إن والدها يمارس عملاً شريفًا مربحًا لكنه ليس عملاً مهنيًّا مرموقًا كعمل والدى . . وحاولتُ تجنب المشاكل مع والدتى التى أعرف عنها الصلابة وقوة الشخصية ، فقررتُ الابتعاد عن هذه الفتاة ، وحاولتُ ذلك بالفعل . . لكنى وجدتُنى عاجزاً عن الاستمرار فى البعد ومكتئبًا وحزينًا على الدوام، فتشجعتُ وفاتحتُ أمى برغبتى فى خطبة هذه الفتاة، فكانت الطامة الكبرى . . وانفجرتْ فى وجهى بالرفض والصراخ والبكاء وأثارت علىّ إخوتى، وفشلتْ كل المحاولات معها لإثنائها عن هذا الموقف المتشدد حتى انقطع حبل الكلام بينى وبينها .

وفى غمرة ضيقى بتأزم العلاقة بينى وبين أمى توجهتُ إلى الأزهر الشريف ودار الإفتاء ، وحصلت منهما على فتوى مكتوبة بأن من حقى شرعًا أن أختار من أريد وأتزوجها على سنة الله ورسوله لأننى رشيد . . ورجعتُ إلى أمى بهذه الفتوى ، فرفضتها لأنها ـ للأسف ـ كانت مختصرة وغير مسببة ، وتتحدث فقط عن جواز أن أفعل ذلك من الناحية الشرعية .

وهجرتُ البيت خلال فترة اشتداد الخلاف بينى وبين أمى بصفة مؤقتة تجنبًا لتصعيد الموقف ، وطلبت منى والدتى العودة ووعدتنى بالتفاهم . . فرجعتُ مستبشرًا . . ولكننى وجدتُها على نفس موقفها بل أشد، وبدأت فى الشجار معى من جديد كل يوم حول هذا الموضوع

وتدخل الآخرون بيننا، فأدى التدخل إلى زيادة العناد وارتفاع الصوت حتى ساءت حالتى المعنوية كثيرًا، وقل تركيزى فى العمل بعد أن كنتُ مرشحًا للنجاح الباهر فيه، فتم نقلى إلى مكان آخر داخله .

وأصبح مزاجى حادًّا وعصبيتى شديدة، ووالدتى تلاحقنى كل يوم بالتهديد والمطالبة بترك هذه الفتاة.. وفى فترة يأس شديدة قررتُ الحصول على إجازة بدون مرتب من عملى والسفر إلى أمريكا لألحق بصديق مهاجر إلى هناك منذ فترة، وقَدَّرْتُ أننى إذا لم أوفق فى الحصول على عمل خلال فترة محددة، فإنى أستطيع العودة لعملى فى مصر بعد أن أكون قد ابتعدتُ بعض الوقت عن الجحيم الذى أعيش فيه بسبب الخلاف مع والدتى، وعلى أمل أن يسهم البعد فى تهدئة الغضب والأعصاب. وكتبتُ إليكَ فى هذه الفترة رسالتيْن أستشيرك فيهما فى ذلك.. لكنهما ضاعتا للأسف فى زحام الرسائل لديك ولم أقرأ ردًّا عليهما.

وسافرتُ بالفعل بغير معارضة من جانب والدتى، بل لعلها سعدت بسفرى لكى أبتعد عن هذه الفتاة وأتخلى عن الرغبة فى الزواج منها، واستقبلنى صديقى أحسن استقبال وأشركنى معه فى مسكنه، وقدمنى لصاحب العمل الذى يعمل معه حيث كان يستعد لتركه لعمل آخر. وعملت فى مكان صديقى، وبدأت حياتى فى الغربة.

وبعد أسابيع كانت فتاتى قد نجحت هى الأخرى فى الحصول على تأشيرة الدخول عن طريق قريبتها المهاجرة، وجاءت إلى نفس المدينة

التى أقيم فيها وأقامت لدى أقاربها وعملت، وأصبحنا نلتقى كل مساء فى محطة القطار عقب انتهاء العمل وكل منا فى طريقه إلى بيته، فتشرق أسارير كل منا حين يرى الآخر ويقبل عليه بلهفة، ونمضى معًا فى المحطة فترة سعيدة من الزمن يروى فيها كل منا للآخر ماذا فعل فى يومه، وماذا صادفه من أحداث وتجارب. . ثم يركب كل منا قطاره إلى سكنه على وعد باللقاء فى اليوم التالى .

ومضت حياتى فى الغربة فى طريقها المعهود. . ومن حين لآخر أحاول أن أتلمس من خلال الاتصال التليفونى بأمى أى تغير فى موقفها من مسألة زواجى من هذه الفتاة، فأجدها على رفضها وتمسكها الشديد بموقفها، مما يضطرنى إلى الالتزام بالصمت، خاصة أنها لا تعرف أن فتاتى قد جاءت إلى نفس البلد الذى أعيش فيه. .

ومضت شهور على غربتنا حدثت خلالها مشاكل كثيرة. . وانتقلت أنا إلى أكثر من عمل، وواجهتْ فتاتى بعض المشاكل فى عملها، فطلبتُ منها تركه واستجابت. ونصحنى بعض الأصدقاء فى الغربة بأن أتزوجها ولو عرفيًّا حماية لها من مؤثرات الغربة وأقاويل زملاء العمل المهاجرين. . ورحتُ أفكر فى ذلك طويلاً وفى وقعه على والدتى، فقررت أن أصارحها فى التليفون لأول مرة بأن فتاتى مقيمة فى نفس البلد الذى أعيش به. . وفعلتُ ذلك مترددًا، فإذا بها تجرى تحريات عنى وعن الفتاة عن طريق بعض الأصدقاء فى الغربة، فاتصلتْ بأحد الأشخاص العائدين لمصر فى إجازة لتسأله عن رقم تليفون صديق لى فى الغربة،

فتطوع ـ سامحه الله ـ وهو الذى كان على خلاف مع فتاتى، وبسببه طلبتُ منها أن تترك العمل لأنه كان يتقوّل عليها بكل سوء ـ بأن يقول لأمى إننا قد تزوجنا . . فثارت ثورة عارمة ومرضتْ، واتصلت بى تليفونيًّا لتطلب منى طلاقها بإصرار شديد . . وكلما حاولتُ الشرح أو الاعتذار لم أسمع منها سوى كلمة : طَلِّقْهَا !!

ورجعتُ إلى البيت فى ذهول لمعرفتها بأمر زواجنا، وواجهتُ فتاتى بما حدث وسألتُها عما أفعل، فتوسلتْ إلىّ ألا أطلقها لأنها سوف تتحطم نهائيًّا إذا فعلتُ ذلك ، فهى تحتاج إلىّ وتحبنى ولا ترى لنفسها حياة بعيدًا عنى . . وشعرتُ بضعفها وانكسارها، فأحسستُ بخنجر حاد ينغرس فى قلبى، وازددتُ ألمًا وحزنًا . .

وأنا الآن فى حيرة من أمرى، فأمى تطلب منى طلاقها بإصرار ولا تقبل أى تفاهم حول هذا الأمر . . وأنا أحبها ولا أرضى بغيرها بديلاً، ولا أريد فى نفس الوقت أن أفقد أمى التى أحبها وأعترف بفضلها علىّ، وأبكى ألمًا لمرضها حين تمرض ولغضبها حين تغضب . . إننى أرجوك أن تساعدنى على الخروج من هذه المحنة بغير أن أفقد أمى أو فتاتى، وأن تكتب لوالدتى كلمة تستعطفها فيها ألا تحرمنى من رضاها عنى ومشورتها التى أفتقدها الآن .

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

الهروب من مواجهة المشكلة ليس حلاً لها ، وأنتَ قد واجهتَ

مشكلتكَ مع رفض والدتكَ لمن اختارها قلبك بالهروب النفسى والمكانى من مواجهة المشكلة وليس بالصبر عليها ومحاولة التوصل إلى حل وسط لها . . ولأن الهروب من مواجهة المشاكل لا يثمر سوى تأجيل انفجارها لفترة من الزمن ، فلقد انفجرتْ المشكلة الآن بينك وبين والدتك بشكل أعنف مما كان عليه الحال قبل أن تلجأ إلى هذا الحل الهروبى . ولا غرابة فى ذلك لأن تأجيل بعض المشاكل يؤدى إلى تفاقمها وتعقدها بدلاً من أن يساعد على حلها . . وأنتَ قد هربتَ من المواجهة (مكانيًّا) بالهجرة إلى أمريكا . . و(نفسيًّا) بتكتم خبر وجود فتاتك معكَ بالغربة عن والدتك . . وبادّعاء أن سفر فتاتكَ إلى المهجر ولقاءكَ بها هناك كانا مجرد مصادفة قَدَرِيَّة أتاحتْ لكما إعادة جمع شملكما واستكمال مشوار الحب والارتباط من جديد ، وكذلك بالتعمية على حقيقة زواجكَ منها فى الغربة حتى فى رسالتكَ لى ، وإلى حد أننى لم أتبيّن زواجكَ منها إلا من خلال مطلب والدتكَ القاطع منكَ أن تطلقها! . . فلماذا لاتعترف لنفسكَ ولوالدتكَ وللجميع بحقائق الأشياء بلا هروب ولا تنصل منها ؟! . . ولماذا لاتعترف لنفسكَ بأنكَ قد دبرْتَ مع فتاتكَ - حين يئستَ من قبول والدتكَ لها كزوجة لكَ - أن تهاجرا إلى أمريكا الواحد بعد الآخر لتلتقيا هناك وتتزوجا بغير معارضة من أحد ؟!

إنك لو كنتَ قد فعلتَ ذلك قبل سفركَ وهجرتكَ وامتلكتَ شجاعة المواجهة لوالدتكَ وصارحتَها بنيتكَ فى الهجرة خصيصًا لكى ترتبط بفتاتكَ هناك، وأنه لا بديل أمامك سوى ذلك ما دامت هى مُصِرَّة على

موقفها المتصلب منها ، لربما أعانَتْها هذه المواجهة الصريحة على إدراك الحقيقة التى غاب عنها إدراكها فى غمار معارضتها لهذا الزواج وهى أن رغبتكَ فى الزواج من فتاتكَ هذه قد خرجت عن نطاق السيطرة ، وأن استمرارها فى معارضتها لكَ إلى ما لا نهاية لا عائد له عمليًّا إلا دفعكَ إلى الخروج عن طاعتها والزواج من فتاتكَ رغمًا عنها فى السر أو العلن . . ومادام الأمر قد بلغ بكَ هذا الحد الذى لاتجدى معه النصيحة أو المجادلة . . فإن الأكرم لها ألا تستمر فى معارضتكَ إلى ما لا نهاية حتى ولو كانت غير راضية عن اختياركَ، ولربما كانت قد أدركتْ حينذاك أن من واجبها كأم تحرص على ألا يخرج ابنها على طاعتها ، أن ترخى الخيط الرفيع الذى يربط بينه وبينها قبل أن ينقطع بالعصيان والإقدام على تنفيذ ما لم تقبل به رغمًا عنها ولو فى السر . لكنكَ لم تفعك ذلك وآثرتَ الحل الهروبى ، وكانت النتيجة هى انفجار المشكلة ، ومواجهتكَ لهذا الاختيار القاسى بين الأم ونداء القلب .

ولأن ما جرى قد جرى فسوف أتوجه بحديثى إلى السيدة الفاضلة والدتك . . وأقول لها : إننى أقدّر دوافعها كأم لمعارضة زواج ابنها ممن تراها ـ من وجهة نظرها ـ غير ملائمة له ، وأعرف جيدًا أنها ما عارضت هذا الزواج إلا طلبًا لما تراه الأفضل والأنفع لابنها . . لكن من حقائق الحياة كذلك ما يفرض علينا يا سيدتى أن نسلم به وألا نقف فى طريقه ، وإلا اكتسحَتْنَا أمواجه فى طريقها ، ومن هذه الحقائق أن لأبنائنا الحق فى أن يختاروا لحياتهم ما يرون ـ من وجهة نظرهم ـ أنه سوف يحقق لهم

سعادتهم وأمانهم فى الحياة ، وليس لنا عليهم سوى واجب النصيحة والإرشاد . . فإن تبينوا ما فى وجهة نظرنا من أوجه الحكمة والخير لهم وعملوا بنصحنا؛ سَعِدْنا باستماعهم لنداء العقل ورجوْنا لهم الخير فى الدنيا والآخرة . . وإن عَمِيَتْ أبصارهم عما فى رأينا من حرص عليهم وخير لهم واختاروا أن يخوضوا تجربتهم فى الحياة وفقًا لرؤيتهم ورغباتهم ، لم يكن لنا أن ننكر عليهم حقهم فى التجربة والاختيار حتى ولو كنا نرى فى الأفق نذر التعاسة والفشل تقترب من سمائهم . . ذلك لأنهم راشدون ومسئولون عن أنفسهم شرعًا وقانونًا ، وغاية أمرنا معهم هو أن نوجه أنظارهم إلى ما قد يغيب عنهم فى غمرة اندفاعهم لنيْل ما يريدون، ونرجو الله أن يكذب الظنون ويحقق لهم ما يرجونه لأنفسهم من سعادة ونجاح ولو أثبت ذلك خطأ توقعاتنا !

ولقد كان هذا هو مضمون الفتوى التى حملها إليك ابنكِ من لجنة الإفتاء بالأزهر ودار الإفتاء حتى ولو لم تتعرض للتفاصيل ، ولهذا فليس من الرشد أن نفرض نحن حكمتنا على أبنائنا الراشدين ولو كنا على يقين أنها الأنفع لهم ، ولا أن نلزمهم برؤيتنا للأشياء ولو كنا على ثقة من خطأ تقديراتهم ، وإلا دفعناهم بذلك دفعًا إلى شق عصا الطاعة علينا وإهدار مشورتنا فى كل أمور الحياة. ولقد قال الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[1].

---

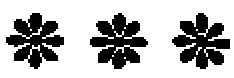
(١) سورة القصص ، من الآية ٥٦ .

والمعنى هو أن الحب وحده قد لايكفى أحيانًا لإقناع مَن نحب بما نريده له من خير ورشاد ، وأن لقدرة البشر حدودًا فى ذلك ولو كانوا من الرسل المكرمين . . فما بالك بنا نحن !

إن الحب الحقيقى المبرَّأ من الأنانية وشهوة التسلط على الأبناء هو الحب الذى لايضعهم أمام الاختيار القاسى بيننا وبين مَن يختارون وما يختارون من اختيارات الحياة ، لأننا بذلك لا نعينهم على البر بنا ، وإنما على شق عصا الطاعة علينا ، وليس من حقنا حين ندفعهم دفعًا إلى ذلك أن نأسى لأنفسنا ونتهمهم بالعقوق ، لأننا فى واقع الأمر قد حرّضناهم تحريضًا عليه بالتصلب الشديد معهم والتمسك المطلق بإخضاعهم لمشيئتنا، دون النظر إلى رغباتهم واختياراتهم واعتباراتهم الشخصية والإنسانية .

ويكفيكِ دليلاً على حب ابنكِ لكِ وحرصه على ألا يفقدكِ : تخفّيه بأمر زواجه عنكِ وهو يعيش على بُعد آلاف الأميال عن أنظارك ، ويكفيك دليلاً على ذلك أيضًا أنه لا يحتاج إليكِ ماديًّا لكى يتوسل بطاعته الشكلية لكِ لنيل ما يطمح إليه منكِ ، وإنما كل ما يرجوه منكِ هو رضاكِ عنه . . وتسليمكِ بحقه فى الاختيار لحياته حتى ولو لم يكن هذا الاختيار مقنعًا لكِ . . فتنازلى يا سيدتى عن موقفكِ المتصلب معه ورفضكِ لاختيار ابنكِ لحياته ، حتى ولو كانت كل مبرراتكِ للرفض صحيحة وصائبة واختياره لنفسه خاطئًا . . ولا تحرميه من رضاكِ عنه وتواصلكِ الإنسانى معه ، وحقه فى خوض تجربة الخطأ والصواب على

مسئوليته الكاملة . . وتذكرى أنه يعيش الآن فى مجتمع يعتبر مجرد تدخل الأب أو الأم بإبداء الرأى فى اختيار الأبناء «عدوانًا» صارخًا على حريتهم الشخصية وحقهم فى الاختيار . وعلى الرغم من ذلك فهو لم يتأثر ـ والحمد لله ـ بمؤثرات هذا المجتمع ولم يفقد الرغبة فى استرضائكِ والأمل فى نيل قبولكِ لما اختار لحياته . . كما أرجوك أيضًا فى النهاية أن تتذكرى أن ابنكِ الشاب هذا ليس فتىً غرًّا مراهقًا تتحملين أمانة المسئولية عنه أمام الله والناس، وإنما هو رجل مكتمل الأهلية فى السادسة والثلاثين من عمره ، ومن حقه أن يختار لحياته حتى ولو لم نرض نحن عن هذا الاختيار . .





المياه الراكدة

أعرف جيدًا أن مصير رسالتى هذه سيكون سلة المهملات لأنك لا تحب هذا النوع من الرسائل . . ومع ذلك فإنى أكتبها لك عسى أن يستفيد بها بعض الزوجات والأزواج .

فأنا سيدة فى الأربعين من العمر ، تزوجتُ منذ ١٢ عامًا ، وقد تأخرت فى الزواج لأنى شُغِلْتُ بعملى المرموق وصَمَمْتُ أذنى عن عبارات الحب والإعجاب والهيام بجمالى ، إلى أن اشتد إلحاح أبى وأمى علىّ للحاق بقطار الزواج قبل أن يفوتنى ، فقبلتُ شابًّا يعمل عملاً مهنيًّا محترمًا وتزوجتُهُ ، فوجدتُهُ بعد الزواج إنسانًا طيبًا وحنونا ، وعرفت أننى المرأة الأولى فى حياته . . ومضت بنا السنوات وأنجبتُ طفلين . . وشيئًا فشيئًا حل الفتور بيننا وأصبحتْ حياتنا كالمياه الراكدة . . لا يحركها تيار ولا يغير من مللها شىء . . وازداد اهتمامه بعمله . . ورجعتُ أنا للعمل الذى كنتُ قد انقطعتُ عنه عند الإنجاب ، ومنذ ثلاث سنوات ذهبتُ إلى عيادة طبيب أسنان شاب لعلاج أسنانى ، فأبدى إعجابه واهتمامه

الفائقين بى ، وبعد عدة جلسات حاول أن يعبر عن حبه لى ، لكننى أفهمتُهُ أننى سيدة متزوجة ، وأن زوجى هو الرجل الأول والأخير فى حياتى ، فالتزم حدوده معى ، وواصلتُ بعد ذلك زيارته كلما احتجتُ للعلاج .

وفى إحدى هذه الزيارات صارحنى بأنه يحبنى للغاية ويتمنى لو كنتُ غير متزوجة كى يفوز بى دون الآخرين . . فإذا سألتَنى الآن : لماذا واصلتُ التردد على عيادته بعد أن صارحنى بذلك ، ولماذا لم أذهب لعيادة طبيب آخر ؟ . . سيكون جوابى هو أننى قد اعتدتُ أن أسمع كلمات الإعجاب من الآخرين دون أن تؤثر على التزامى . . كما أن الطبيب قد التزم بالحد الذى أوقفته عنده ، لكنه لم يتوقف ـ بالرغم من ذلك ـ عن إدارة أسطوانة الغزل وكلمات المديح والإعجاب الشديد بجمالى وأخلاقى وأدبى واحترامى لنفسى ورشاقتى . . إلخ .

وشيئًا فشيئًا وجدتُنى أحب سماع هذا الكلام منه ، بل ووجدتُنى أيضًا أتعمد الذهاب لعيادته وأنا فى كامل أناقتى وجمالى . . وأسعد باهتمامه بى حين يستقبلنى على باب غرفة الكشف بابتسامة عريضة . . ولأننى كنتُ محرومة من سماع كلمات الغزل من زوجى ، فقد وجدتُنى أستعذب سماع هذه الكلمات من هذا الطبيب ، ومنذ عام اكتشفتُ أن زوجى يعبث فى أوراقى كأنما يحاول أن يكتشف فيها شيئًا لا يعرفه عنى . . وضقتُ بشَكِّهِ فِىَّ ، خاصة حين عرفتُ أنه كان يفعل ذلك طوال السنوات الماضية . . وانفجرتُ فيه لأول مرة منذ تزوجنا . . وحاول هو

أن يهدىء من روعى وطلب منى أن أخفض صوتى العالى دون جدوى ، فإذا به يرفع يده إلى أقصى مدى ثم يهوى بها على وجهى ليسكتنى ، فنزلتْ صفعته على وجهى كالصاعقة . . وكَفَفْتُ عن الصراخ . . وأحسستُ أن جدارًا سميكًا قد قام فجأة بينى وبينه .

وغادرت بيت الزوجية عائدة إلى بيت أبى . . وبعد فترة قصيرة ذهبتُ إلى عيادة هذا الطبيب للعلاج ، ووجدتُنى أتحدث معه عن مشكلتى مع زوجى ، فكان ينبوعًا للحنان . . وحاول أن يخفف عنى ولم يحاول أن يستغل الظروف لاستثارتى ضد زوجى ، بل قال لى : إن من حقه أن يعرف عن زوجته كل شىء لأنه ليست هناك خصوصية بين الأزواج . . فزادنى هذا الموقف اقترابًا منه ، واستمررتُ فى الإقامة فى بيت أبى ورفضتُ محاولات زوجى للصلح ، حتى ضاق بى أبى وأنذرنى أننى إذا حصلتُ على الطلاق فلا مكان لى فى بيته لأن بناته لايعرفن الطلاق ، فانتقلتُ للإقامة فى شقة أخى المسافر للخارج . وبعد فترة من الوحدة والملل وجدتنىُ أرجع إلى بيت الزوجية وحدى دون ضغط من أحد . . ومضت فترة طويلة دون أن ترجع علاقتى بزوجى إلى طبيعتها السابقة ، لأن صورته وهو يهوى بيده على وجهى كانت تقف حائلاً بينى وبينه . . ثم اشتعلت الخلافات بيننا من جديد لأن زوجى لم يتفهم حالتى النفسية ولم يتحملنى ، وطالت فترات الخصام بيننا . . وفى هذه الفترة رجعتُ للتردد من جديد على عيادة طبيب الأسنان الشاب بعد انقطاع ٩ شهور . وكنتُ هذه المرة فى حالة نفسية سيئة وعلى استعداد لقبول غَزَله

وإعجابه . . وذات يوم وقعتْ مشاجرة عنيفة بينى وبين زوجى هجرتُ بيت الزوجية على إثرها، ورجعتُ للإقامة فى شقة أخى . . فذهبتُ الى عيادة هذا الطبيب وجلست على كرسى الأسنان استعدادًا للعلاج، وجلس هو إلى جوارى وسألنى عما بى ، فلم أجب . . لكنى تنهدتُ تنهيدة عميقة . . فأمسك بيدى وضغط عليها بحنان . . ولم أعترض . . فرفعها إلى فمه وقبلها ولم يتحرك لى ساكن . . وخلال لحظات انتهى كل شىء . . ورجعتُ إلى بيتى وأنا ذاهلة . . وفى غرفتى وجدتُنى أبكى بمرارة وأنظر إلى نفسى فى المرآة باحتقار ثم أبصق عليها . وبعد أيام جاءنى صوته يحاول أن يقنعنى بأن ما حدث بيننا لم يكن لأحدنا يد فيه . . إلخ . . ودارت رأسى بكلامه المعسول وغَزَله الرقيق مرة أخرى . . وعرفتُ منه لأول مرة أنه متزوج وعنده أطفال . . وبالرغم من ذلك فقد تكرر الخطأ بيننا مرة ثانية فى المكان نفسه . . ومرة ثالثة أيضًا ، وبعد هذه المرة الثالثة لم يتصل بى كما كان يفعل من قبل ، وطال تجاهله لى لفترة ، وحين اتصلتُ به ولُمْتُهُ على ذلك تعلل بمشغولياته العديدة ، فأصبحت أنا التى ألاحقه وهو الذى يتعلل بالانشغال والمسئوليات وضيق الوقت دائمًا . . إلخ .

وبدأتُ أفيق مما أوقعتُ نفسى فيه ، وذهبتُ إليه فى العيادة وأنا عاتبة عليه لتجاهله لى ، ففوجئتُ به يكشر لى عن أنيابه ويُسْقِطُ عن وجهه قناع الرقة والحنان ويحتد علىّ فى النقاش إلى حد أن دفعنى بيده فى كتفى وهو فى قمة الانفعال . . وخرجتُ من عنده وأنا لا أصدق ما فعلتُ

بنفسى وكرامتى وشرفى ، فلم يغمض لى جفن طوال الليل . . وعشتُ الأيام التالية وأنا فى أسوأ حال ، أسأل نفسى كيف انحدرتُ فجأة من قمة الوقار والاحترام إلى مستنقع السقوط والخطيئة ، وأين ذهب عقلى وأنا أتخلى عن التزاماتى ومسئولياتى كزوجة وأم؟ . . وضاعف من عذابى وحيرتى أن زوجى قد ظهر بعد هذه المحنة نادمًا على ما حدث بيننا من خلافات ومشاجرات طوال العام الأخير ، وراغبًا فى استمرار الحياة بيننا بأية شروط أضعها لأنه متمسك بى ويقدر فىّ طيبتى وتسامحى معه . . ووجدتُنى أرفض العودة إليه بإصرار . . ليس كرهًا فيه ولكن خجلاً من نفسى . . وكان جوابى على توسله لى للعودة إلىّ هو أن هذا الحل لم يعد صالحًا الآن للتنفيذ ، دون إفصاح عن السبب .

وفى لحظات الصدق مع نفسى اقتنعتُ بأن كل مشكلاتى مع زوجى فى العام الأخير كانت من أثر تحول مشاعرى عنه بسبب هذا الشيطان اللعين الذى غدر بى . أما زوجى فهو كما هو منذ تزوجتُهُ ، ولم تكن العيوب والأخطاء التى أخذْتُها عليه سوى تبرير أقنع به نفسى لتحول مشاعرى عنه . . وللأسف فإننى لا أستطيع مصارحته بالحقيقة ولا بسبب رفضى الحقيقى للعودة إليه الآن بعد ما حدث . . فماذا أفعل مع نفسى لكى أنسى ما حدث وأمحو عن ثوبى الأبيض هذه البقعة القذرة؟ . . وماذا أفعل مع زوجى الذى يُلِحُّ علىّ هو وكل الأهل فى العودة إليه؟

إننى أكتب إليكَ لكى تقول لكل زوجة : إن الرجل الذى يغازل سيدة

متزوجة لا يكون شريف القصد ، ولا يكون له سوى هدف واحد يسعى للوصول إليه وبمجرد بلوغه هدفه تصبح هذه السيدة أرخص عنده من فردة الحذاء . . وأقول لكل الأزواج : إن قليلاً من الاهتمام بالزوجات وشيئًا من الرقة والحنان والذوق الذى يتعامل به مع الأخريات سيكون له مفعول السحر فى نفس زوجته . . أما أنا فإنى نادمة نادمة حتى النخاع . . والسلام .

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

هناك مثل فرنسى قديم يقول :

لا يُعجب بفستان امرأة . . مَن يدفع ثمنه !

وإنما يعجب به دائمًا ويبرع فى التعبير عن هذا الإعجاب من لا يكلفه إعجابه به سوى الكلمات السهلة التى لا تترتب عليها أى التزامات .

وقد يكون من مفارقات الحياة التى تستحق التأمل أن من يعجب بفستان امرأة «أى جمالها» قد يغفل فى الوقت نفسه عن إظهار إعجابه بفستان زوجته أو جمالها ! . .

ومن هنا تأتى المفارقة التى تخدع أبصار البعض أحيانًا حين تقارن الزوجة بين ندرة كلمات الغزل والإعجاب بجمالها التى تسمعها من زوجها، وسخاء وشاعرية كلمات الطرف الخارجى فى التعبير عن إعجابه بجمالها ورقتها وأناقتها إلى آخر هذه المعزوفة الشيطانية التى تدير بعض الرؤوس .

ومع أن الأفضل والأمثل دائمًا هو أن يتبادل الزوجان التعبير عن الحب والإعجاب بالكلمات والأفعال ، وليس بالأفعال وحدها كما يفعل البعض . . إلا أن اكتفاء بعض الأزواج بالتعبير العملى الصامت عن الحب والإعجاب لا يبرر للزوجة الاستنامة لكلمات الغزل ممن يحاولون غزو حصونها ولا يجدون ثغرة ينفذون منها إليها إلا بمثل هذا الغزل الحقير. ولا يبرر كذلك بخل بعض الزوجات بكلمات الحب على أزواجهن لهؤلاء أن يطربوا لكلمات الإعجاب الشاردة التى قد يسمعونها من الأخريات ، ويبنون عليها حساباتهم وعلاقاتهم مع الأطراف الخارجية. كما لايبرر عقم حديث بعض الأزواج مع زوجاتهم واقتصاره على شئون الحياة اليومية والشئون الأسرية لأحد أن ينخدع بمثل هذه المقارنة الظالمة بين «رقة الآخرين» و«تحفظ الشركاء» . . أو خلوّ أحاديثهم من الكلمات الشاعرية ، لأنهم إنما يتعاملون مع الصورة الخارجية لهؤلاء الآخرين ولا يتعاملون مع أعماقهم وسرائرهم وشخصياتهم الحقيقية ، ذلك أن العشق أسهل ألف مرة من الزواج ـ كما كان يقول الأديب الفرنسى «بلزاك» ـ لأنه يتطلب منك أن تكون لطيفًا بعض الوقت . . أما الزواج فإنه يتطلب منك أن تكون لطيفًا كل الوقت وفى كل الأحوال والظروف ، وهو مالا يقدر عليه أحد!

فإذا اضطررنا للتعامل مع هؤلاء الآخرين ـ كل هؤلاء الآخرين ـ كل الوقت وعلى مستوى العمق وليس على مستوى السطح . . فلا أحد يضمن ألا يكون هذا اللطف قناعًا مؤقتًا يسقط عن وجوههم عند أول

اختبار ، كما سقط قناع الرقة والحنان واللطف عن وجه طبيبكِ الشاب ، فأسفر عن قسوة وأنانية وخسة فى التعامل لا تقارن بها كل أخطاء زوجك ـ إذا كانت له أخطاء تستحق التوقف عندها .

وجوهر الخطأ فى قصتك هذه هو أنك قد استمريت فى التردد على عيادة هذا الطبيب بعد أن غازلك غزلاً صريحًا مُرَدِّدًا على مسامعك أنشودة أنه كان يتمنى لو كنتِ غير متزوجة لكى يفوز بكِ دون العالمين!

أما تبريركِ لاستمراركِ فى التردد عليه بعد أن غازلكِ بأنكِ قد ألفتِ سماع كلمات الإعجاب بجمالكِ دون أن تدير رأسك وتنسيك التزاماتكِ كزوجة وأم ، فهو تبرير خادع وليس صادقًا . . لأن المرأة المتزوجة التى ترغب حقّا فى أن تنأى بنفسها عن الإغراء والخطأ هى التى تقطع صلتها بحسم بمن غازلها غزلاً مكشوفًا أو مستترًا ، إذ إن استمرار هذه الصلة بينها وبينه بعد إعلان الإعجاب والهيام لا يعنى لمن غازلها سوى أن مقاومتها قد بدأتْ تتأثر بالفعل بأنشودة الغزل التى أنشدها لها ، وأن المسألة ليست فى النهاية سوى مسألة زمن يطول أو يقصر ثم تنهار حصونها . . وقد تساعد ظروف طارئة فى حياتها على الإسراع بهذا الانهيار كما حدث معكِ حين اشتدتْ خلافاتكِ مع زوجكِ ، ووجدتِ نفسكِ تطربين لسماع هذه الكلمات التى رفضتِها فى البداية رفضًا لينًا يشجع على استمرارها وليس توقفها ، ثم بدأتِ تستمرئين سماعها وتذهبين إلى عيادة هذا الطبيب وأنتِ فى كامل جمالكِ وأناقتكِ لكى تطلبى المزيد منها !

ولا عجب فى ذلك لأنكِ قد خطوتِ الخطوة الأولى على الطريق المنحدر حين رجعت لعيادة هذا الطبيب مرة ثانية بعد أن سمعت منه كلمات الغزل والهيام ، ولأن للمديح والإطراء أثر السحر فى نفوس البشر مهما تصوروا فى أنفسهم القدرة على عدم التأثر بهما .

ولقد قال حكيم عن أحد الأشخاص الذين يتظاهرون بالفضل : أستطيع أن أحول هذا المغرور إلى مجنون خلال شهر واحد ! . فقيل له : كيف ؟ . . فأجاب : بالمديح والتملق ! . . كما كان الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه يبكى إذا حدّثه البعض عن افتتان الناس به ، ويقول : هذا استدراج . . أى هذا استدراج من القائل له لكى يعجب بنفسه فيفقد بعض تواضعه ورشده .

أما أنتِ يا سيدتى فلقد استسلمتِ لهذا «الاستدراج» حتى ضعفتْ مقاومتكِ تدريجيًا وانهارت حصونكِ ، وتكشفتْ لكِ الحقيقة المؤلمة . . فإذا كنتِ ترغبين حقًّا فى محو هذه البقعة السوداء من ثوبك فلا سبيل لذلك سوى بلوْم النفس على ما أوردتك إليه من موارد التهلكة والندم الصادق على ما فعلتِ والكف عنه ، وعقد النية على ألا ترجعى إليه أبدًا . . ومع كثرة الاستغفار ، والالتزام بالطريق القويم والتكفير الصادق عما حدث ، يتطهر الثوب تدريجيًّا مما علق به . . ويصح لك عندها التفكير فى مستقبل علاقتك بزوجك .

***



جَـنْـى الثِـمَار

أنا سيدة متزوجة منذ عشرين عامًا . . نشأت فى أسرة «فاشلة» بسبب سوء العلاقة بين الأبويْن ، فأورثنى ذلك الإصرار على النجاح فى حياتى ، وفضلتُ منذ صباى الاعتماد على عقلى أكثر من عاطفتى . وحين بلغتُ سن الشباب اخترتُ ممن تقدموا لى شابًا يتميز بالرجولة والشهامة والحنان ، ويعرف دينه ، وله أخلاقياته الكريمة ، ويتمتع بحب مَن حوله . . وتزوجنا . . فكان عند حسن ظنى به ، وأصبح لى الزوج والحبيب والصديق والأب .

ومشكلتى الوحيدة معه كانت تتمثل فى أننى لا أحسن التعبير عن الحب بالكلمات ، فعوضتُ ذلك بالتعبير عنه بالأفعال، وباهتمامى الشديد بزوجى وبكل شئونه . .كما صبرتُ على صعوبات البداية وعثراتها حتى توصلتُ معه إلى علاقة دافئة اعتبرتُها - من جانبى- ناجحة تمامًا ، وأعجب بها أهله قبل أهلى وراحوا يشيدون بحميمية العلاقة بيننا وبالإيثار المتبادل بينى وبينه .

ولقد وجدتُ فيما أسمعه وما أقرأه فى «بريد الجمعة» أن معظم الأزواج يشكون من أنهم يرجعون إلى بيوتهم مرهقين من عناء العمل والحياة فيجدون زوجاتهم فى انتظارهم بالمزيد من العناء ، ويلقين على أكتافهم مشاكل البيت والأبناء . . فحاولتُ ألا أفعل ذلك ، وأن أبذل كل جهدى لحل مشاكل البيت والأبناء قبل عودة زوجى إلى بيته. لكيلا أضجره بها . . كما رأيتُ ولمستُ كذلك أن بعض الأزواج والزوجات لا يسرعون بتصفية المشاكل الصغيرة التى قد تنشأ بينهم ، فيؤدى ذلك إلى تراكمها وإلى ابتعاد المسافات بينهم بدلاً من اقترابها . . فحرصتُ على أن تكون لنا من حين لآخر جلسة للمراجعة ، نقوم فيها - أنا وزوجى - بتصفية الخلافات الصغيرة بيننا ، ويخُرج كل منا من صدره ما يضايقه من الآخر ، فيتم التصافى وتقترب المسافات .

كل ذلك إلى جانب وضعى لزوجى على قمة أولوياتى واهتماماتى ، فشعرتُ بأن الدنيا قد عوضتنى بزوجى حقّا عن كل ما افتقدتُه فى حياتى السابقة من حنان ، ولم أشعر من ناحيته إلا بكل إخلاص وتفان فى إسعادى ، حتى فكرتُ ذات يوم فى أن أكتب لك عن تجربتى الناجحة فى الحياة الزوجية لتستفيد بها غيرى من الزوجات والمقبلات على الزواج . . لكننى شعرتُ منذ فترة - بإحساس الزوجة- أن هناك شيئًا قد تغير فى زوجى ، فلقد أصبح يثور كثيرًا - وهو المعروف بهدوء الطبع - ويتذرع بالحجج الكثيرة للخروج من البيت . . كما أن لغة الحوار قد توقفتْ بيننا وابتعدت المسافات . . ولأننى أعرف كل خلجة مِن خلجاته ، فلقد تيقنتُ من أن هناك شيئًا ما قد طرأ عليه ولابد لى من اكتشافه .

وواجهتُ زوجى بأفكارى . . فإذا به يعترف لى- بلا مراوغة - بأن هناك امرأة أخرى ! كيف . . ولماذا . . وماذا حدث ؟ . . سألته عن كل ذلك وأنا ذاهلة ، فإذا به يقول لى : إنه «النصيب»، وإنه وجد نفسه متعلقًا بأخرى !

ولأننى - كما قلتُ لك فى البداية - أوثر الاعتماد على العقل أكثر من العاطفة ، فلقد استغربتُ أن يفعل الإنسان شيئًا لا يستطيع تبريره أو الدفاع عنه ، وحاولتُ أن أعرف من زوجى أسباب ما فعل ، فإذا به يتحدث عن أخطاء لى، ويعتبرها مبررًا لهذا التحول الطارىء عليه . . ويكفى أن أقول لك عن هذه «الأخطاء» : إن آخرها حدث منذ خمس سنوات ، ولا يعدو الأشياء البسيطة التى تحدث بين أى زوجين. . وإن من هذه الأخطاء أيضًا ما كنتُ أظنه أنا فى سجل مميزاتى، فلقد اعتَبر محاولتى الدائمة لعدم الضغط عليه بمشاكل الأبناء والبيت خطأ من هذه الأخطاء، وشكا من أنه قد بدأ يشعر بعدم أهميته فى البيت، وبأن الأبناء قد أصبحوا يعتمدون علىّ فى حياتهم فقط دونه !

وقررتُ أن أسلك الطريق الصعب وأستمر فى محاورة عقله على الرغم مما يعتصرنى من الألم، وقلت له : إذا كان قد كرهنى فمن الأفضل لى وله أن يدعنى لحالى ويسرحنى بإحسان. . فإذا به يرفض ذلك رفضًا قاطعًا ويقول لى : إنه لا يستطيع الاستغناء عنى ولا أن يتنفس هواء لا أتنفسه أنا، وإنه سوف يحتفظ بى للنهاية ولو كان ذلك ضد إرادتى ! وكان المنطقى بعد أن أسمع منه هذا الجواب أن أطالبه فى الحال بترك الأخرى ما

دام لا يستطيع الاستغناء عنى . لكنه صدمنى من جديد بأنه لا يستطيع ذلك أيضًا لأنه يريدها هى الأخرى فى الوقت نفسه !

وبعد حوارات طويلة ومريرة معه، عرفتُ أنه يريدنى أن أوافق على زواجه منها وعلى استمرار علاقتى به دون أى تغيير ، ويتمسك فى ذلك بالحق «الشرعى» له فى الزواج مرة أخرى حتى ولو لم يكن يشكو من زوجته وأم أبنائه ، وبأنه قادر على الإنفاق على الأسرتين وقادر أيضًا على العدل بينهما !

لقد حار عقلى فى فهم ما يريد الرجل . . وما يرضيه ! . .

إنه يشكو من زوجته إذا أثقلتهُ بمشاكل البيت والأبناء . . ويشكو منها ـ كما فعل زوجى ـ إذا هى حملتْها عنه وأراحتْهُ منها . . وأريد أن أسألك بضعة أسئلة تنغص علىّ حياتى : هل من العدل يا سيدى أن أتحمل أنا قسوة البدايات ، وأن أعيش فى العسر سنوات وأتسلم أرضًا جرداء لا زرع فيها ولا ماء ، فأرويها بشبابى وسنوات عمرى عشرين عامًا أو أكثر إلى أن تؤتى الأرض ثمارها ويحين وقت الحصاد ، فأجد من تمد يدها معى لتجنى نصف الثمار التى لم تروها بقطرة ماء واحدة ولم تَشْقَ فى رعاية بذورها وأشجارها ؟!

وهل تستوى الزوجة الصالحة التى ترعى ربها فى زوجها وبيتها وأبنائها، وليست مريضة بمرض يمنعها من أداء واجباتها الزوجية ، ولا هى سيئة الطبع أو العشرة . . هل تستوى مع أخرى لم تَرْعَ زوجًا ولا بيتًا

ولا مالاً ، ولم تحسن معاشرة زوجها ، ولم تُجْدِ معها محاولات الإصلاح ، فبحث زوجها عن أخرى وتزوجها حلاً لمشكلته مع الأولى ؟!

وإذا لم يكن هناك فارق بين الزوجتين - فى مثل هذه الحالة - فلماذا إذن تسعى المرأة لكى تكون زوجة صالحة إذا كانت النتيجة واحدة فى النهاية -وهى تَعلُّل الرجل بالحق الشرعى فى الزواج من غيرها ؟!

ثم أريد فى النهاية أن أسأل تلك الغافلة : ألا تعلم هى حقًّا أن مَن عاشر زوجته عشرين عامًا لم يَشْتَكِ منها خلالها ، وكان دائم الإشادة بها فى كل مناسبة حتى ظهرت هى فى حياته . . أسأل هذه الغافلة : هل تتوقع حقًّا أن يستمر زواجها بمثل هذا الرجل ؟ . . وهل تتصور أنه لن يجىء الوقت الذى يشعر فيه بالحنين لزوجته وأسرته ؟ . . وهل تظن حقًّا أن ما يشعر به تجاهها ليس سوى رغبة رجل يحس بأنه يريد امرأة إضافية لنفسه متعللاً فى هذه الرغبة بالرخصة الشرعية فى الزواج الثانى ؟!

وبماذا أنصح ابنتى يا سيدى عند الزواج ؟ . . هل أنصحها بأن تكرر ما فعلتُهُ أنا وتختار شابًّا يحبها وله أخلاقياته وتدينه ومبادئه ومستقبله الذى يبشر بالخير كوالدها ، فتكافح معه بضع سنوات وتتحمل عناء البداية والسنوات العجاف إلى أن تبدأ فى جنى ثمار الكفاح ؟ . . أم ترى أنصحها بألا تتعب نفسها فى الكفاح والصبر ، وبأن تنتظر رجلاً حان وقت قطف ثماره، فتشارك زوجةً أخرى مُكافِحةً فى جنى هذه الثمار ، أو تستأثر به دونها كما تفعل الآن هذه الأخرى التى كَدّرَتْ سماء حياتى ؟ . .

إننى حائرة ومتخبطة . . فماذا تقول لى ؟

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

أقسى من الألم أن تضطرنا الظروف القاسية - فى بعض الأحيان - إلى التجاوز عن آلامنا لكى نتناقش بصبر وموضوعية مع مَن صنعوا لنا هذا الألم ، ونحاول إقناعهم بالعدول عما يفعلون بنا ، ونتحمل مجادلاتهم وادّعاءاتهم لتبرير ما فعلوا بنا .

ولأن الحياة ليست فى كل الأحوال نزهة شاعرية فى نهر هادىء الأمواج، فمن واجبنا أن ندرب أنفسنا على تجاوز «الألم» فى بعض الأحيان إلى مناقشة صانعيه فى أسباب إيلامهم لنا ، وكيفية عدولهم عما يؤلموننا به ، وكأنما نتحدث فى ذلك عن مشكلة صديق نهتم بأمره وليس عن آلامنا الشخصية وتعاستنا الخاصة .

ولقد لَفَتَ انتباهى فى رسالتكِ وأنتِ تناقشين مع زوجكِ أسباب رغبته فى الارتباط بأخرى - على الرغم من خلو علاقتكما الزوجية من أسباب واضحة للشكوى أو التعاسة - أنه قد بدأ المناقشة بتعليل ذلك فى البداية بـ « النصيب » جريًا على عادتنا نحن البشر فى نسبة نزواتنا وأخطائنا وضعفنا البشرى إلى قوى غيبية غامضة نبدو معها ، وكأننا مسيرون فيما نفعل رغماً عنا ولسنا مخيرين فيما نختاره لأنفسنا من اختيارات . . وحين لم يَكْفِ هذا التبرير القدرى لإقناعكِ ـ وهو غير مقنع بالفعل ـ فلقد راح يسترجع مايعتبره من أخطائكِ ويبرر به تحوله ووقوعه فى هوى تلك الأخرى .

والتماس الأخطاء للآخرين حيلة نفسية معروفة لتبرير إساءة المرء لهم ،

وكأنما يريد بذلك أن يعفى نفسه من الإحساس بالذنب تجاههم بادعاء أن الآخرين يستحقون ما ارتكبه ضدهم من إساءات . . وبالتالى فلا لوم عليه فيما فعل ولا تثريب ، وكلتا المحاولتين خاطئتان وظالمتان بكل تأكيد، فتعليق أخطائنا ونزواتنا وبَدَوات أنفسنا على «النصيب» محاولة فاشلة للزعم بانعدام الإرادة فيما نفعل ونختار ، وهو ما يتنافى حقّا وصدقًا مع الواقع والحقيقة فى معظم الأحيان.

ومحاولة التماس الأخطاء لكِ ، دوافعها النفسية واضحة ومفهومة . . وهى ميل الإنسان الغريزى للرثاء لنفسه . . وتفضليه فى كثير من الأحيان لأن يعتبر نفسه ضحية للغير وليس جانيًا عليهم . وخطورة الغدر ممن لا يتوقع منهم الإنسان إلا الوفاء هو أنه يهز القيم والمُثُل فى نفس المغدور به ، وأنه يشككه فى جدوى التزامه بالمبادىء والقيم التى يرى نفسه ملتزمًا بها . . ولهذا فمن العدل أن نتعامل مع الخطأ باعتباره تصرفًا فرديّا أو نزوة عابرة ترجع فى أسبابها إلى ضعف مرتكبها وليس إلى عيب فى هذه المبادىء، فلا يغيّر ذلك ثوابتنا الأخلاقية ، ولا يفقدنا الإيمان بخيرية المبادىء القويمة والقيم المثلى . . ولهذا فلسوف تجدين نفسكِ يا سيدتى - بالضرورة وليس بالاختيار - تنصحين ابنتكِ بأن تكرر قصتكِ أنتِ مع الزواج وليست قصة الأخرى قاطفة الثمار ، لأنها المثل السوى الذى ينبغى تكراره مهما اعترض الحياة من عَثَرَات وهفوات . . ولسوف تجدين نفسكِ مطالبة بإعلاء نفس مُثُلِكِ وأفكاركِ عن الحياة الزوجية السوية لديها . . من الارتباط بشاب مناسب لها فى السن والكفاح معه ، وتحمّل

صعوبات البداية حتى يؤتى زرعها حصاده وتستمتع بثمراته ، ولن يغير من ذلك شيئًا أن والدها قد فاجأكِ بعد ٢٠ عامًا من العشرة الطيبة بوقوعه فى هوى أخرى ورغبته فى الجمع بين الحُسْنَيَيْنِ فى حياته : زوجته الأولى وحياته المستقرة معها ومع أبنائه، و «هواه» الجديد وارتشاف الرحيق الموهوم فيه بالطريق المشروع . . ولا عجب فى ذلك لأن نهجكِ فى الزواج هو القاعدة ، ولأن رغبة زوجكِ فى التمتع بأخرى – بلا أى مبررات جادة أو نقص يشكوه فى حياته معكِ – هو الاستثناء ، وسيظل كذلك إلى أبد الآبدين .

ولقد قلتُ مرارًا : إن «الحلم المستحيل» الذى يراود كل زوج يقع فى هوى امرأة أخرى – أو يتوهم ذلك – هو أن يحتفظ بزوجته الأولى وحياته معها واستقرار أبنائه فى كنفها ، ثم يمرح هو كيفما يشاء مع زوجته الجديدة ، زاعمًا لنفسه أنه يحقق العدل بينها وبين زوجته الأولى ورفيقة كفاحه ، ومطمئنًا إلى أن أسرته الأولى لم تنهدم بالانفصال، وأن استقرار الأبناء وسعادتهم لم يتأثرا بزواجه «العاطفى» الآخر . . ولهذا فهو يكافح حتى الرمق الأخير لكى لا يكون ثمن استجابته لنداء العاطفة أو المغامرة هو تهدم أسرته الأولى وتمزق أبنائه بينه وبين زوجته ، ولا يتخلى عن الأمل فى أن ينجح بكل الحِيَل فى إقناع زوجته الأولى بالاستمرار ، زاعمًا لها أنه لا يستطيع الاستغناء عنها ، أو أنه لا يقدر على ألا يتنفس الهواء الذى تتنفسه – كما يقول لكِ زوجكِ .

ولا شك فيما يحمله هذا الزعم من تناقض غريب لا يتفق مع المنطق

ولا مع الطبيعة البشرية، لأن من لا يقوى على مفارقة زوجته لأسباب عاطفية وليس لحاجته إليها لرعاية أبنائه والحفاظ على كيان الأسرة، ينبغى له ألا يقدر كذلك - إذا كان صادقًا فى زعمه - على إيلام زوجته وإشراك امرأة أخرى لها فى مشاعره واهتماماته وحياته ، ولهذا فإن نصيحتى لكل من تواجه هذا الموقف العصيب هى ألا تسلم نفسيًا بقبول هذا الوضع الذى يرغب زوجها فى فرضه عليها لكى يقلل من فاتورة الخسائر العائلية بسبب زواجه الآخر ، وأن تتمسك بالرفض النفسى لذلك حتى ولو آثرتْ تغليب اعتبارات الأبناء على اعتباراتها الشخصية ، وفضلتْ الاستمرار مع زوجها حمايةً لأبنائها ، واحتفاظًا بحقها المشروع فى ألا تنسحب من الأرض التى رَوَتْها بعرقها ودموعها وتُخليها طائعة لمن لم تظهر فى الأفق إلا فى موسم الحصاد !

وكثيرات هن مَن يرجحن مصلحة الأبناء على الكرامة الشخصية والاعتبارات العاطفية ، لكنهن يتمسكن فى الوقت نفسه بالرفض النفسى لما يرغب شريك الحياة فى فرضه عليهن بشتى الحيل والمزاعم ، إلى أن يكتشف الزوج زيف المغريات ويرجع نادمًا إلى من أساء إليهن. . فإذا كان لى أن أضيف إلى ما قلتُ شيئًا ، فلعلى أقول فقط : إننى قد توقفتُ خلال سردكِ لقصتكِ أمام ما قلتِ عن نفسكِ من أنكِ كنتِ تواجهين مع زوجكِ مشكلة أنكِ لا تجيدين التعبير عن الحب بالأقوال ، وتؤثرين التعبير عنه بالأفعال وحدها وباهتمامكِ بزوجكِ ، ووضعه دائمًا على رأس أولوياتكِ واهتماماتكِ ، ويتسق ذلك مع ماقلتِ فى موضع

آخر من أن ظروفكِ العائلية قد أورثتكِ إيثار الاعتماد على العقل أكثر من العاطفة . .

ولا شك فى أن الاعتماد على العقل فى تصرفات الإنسان واختياراته أمر مطلوب دائمًا، ولكن دون إهمال فى نفس الوقت لدور العاطفة فى حياته، وإلا خَلَتِ الحياة من بعض مباهجها ومن كثير مما يجعل الإنسان إنسانًا . . وكذلك فإن التعبير عن الحب بالأفعال والتصرفات أمر إيجابى ومرغوب بالفعل ، لكن ذلك لا يبرر أبدًا إغفال التعبير عنه كذلك بالكلمة الرقيقة واللفتة الحانية ، وإلا ظن الشريك فى شريكه جمود العاطفة وجفاف القلب .

ونفس الشيء يمكن أن يقال عن شكوى زوجكِ من أن الأبناء قد أصبحوا يعتمدون فى حياتهم عليكِ دونه ، وأنه لا يشعر بأهميته لدى أبنائه وفى بيته ، فالحق أن دوافعكِ لعدم إرهاق زوجك بمشاكل الأبناء والبيت كانت دوافع مخلصة تهدف إلى التخفيف عن كاهله بدلاً من إثقاله بالمتاعب الأسرية . . لكن المثل الإنجليزى القديم يقول لنا أيضًا : «إن الطريق إلى الجحيم قد يكون مفروشًا فى بعض الأحيان بالنيات الحسنة»! . . وبالتالى فلقد كان من حسن الإدراك والفهم أيضًا ألا تتجاوز رغبتكِ فى التخفيف عن زوجكِ الحدود الآمنة لها ، فتبدو فى نظره وكأنها «إبعاد» له عن شئون أبنائه وبيته وليس إشفاقًا عليه من إثقاله بها . . وكان من حسن الإدراك كذلك ألا يشعر الزوج أبدًا بأن الحياة فى بيته تدور حول محور آخر سواه، مهما كانت نية هذا المحور الآخر طيبة

ودوافعه نبيلة . . ومن هذا القبيل أيضًا ألا يشعر الزوج والأب أن أبناءه ليسوا قريبين منه بنفس درجة قربهم من أمهم ، وأنه لا يواجه فى حياته العائلية حربًا خفية مع شريكة حياته لاستقطاب أبنائها إليها وليس إليه . . فلماذا لا تناقشين كل ذلك مع زوجكِ من جديد ؟ ولماذا لا تواصلين جهادكِ المقدس للاحتفاظ به لنفسكِ وأبنائكِ دون الأخريات ؟ . . إن الأوان لم يَفُتْ بعد لتعديل الأفكار وتصحيح المسار ومقاومة الغزاة . . فلماذا لا تكررين المحاولة مرة أخرى ؟

***



الأرضُ المُحترِقة

منذ ثلاث سنوات كتبتُ إليكَ رسالة من سلسلة رسائل «النّكَد» الزوجى التى كنتَ تنشرها فى ذلك الوقت ، وشكوتُ لكَ من تصرفات زوجتى «النّكَدِيّة» التى تجعل حياتى معها غير محتملة ، وكيف أنها تهوى البكاء فى كل مناسبة ، سواء لمرض أحد أفراد أسرتها أو لأنى انتقدتُها فى شىء عابر من شئون الحياة اليومية . . فإذا لم تبكِ تعمدتْ استفزازى بإجبار طفلتنا على الصراخ والبكاء بإرغامها على تناول الطعام قسرًا، أو بحرمانها من اللعب عقابًا لها على أى خطأ . . هذا إلى جانب اعتبارها كل تصرف من تصرفات أهلى تجاهها إهانة لها ، وبعد كل زيارة منهم لنا تلقننى محاضرة فى حقوق الزوجة ، وكيف أن واجب الزوج هو التربص لكل بادرة يشتم منها رائحة الإساءة إلى زوجته، فيهب ممتطيًا حصانه وشاهرًا سيفه فى وجوه أهله ، إلى آخر ما ذكرتُهُ لك فى حينه .

وقد قرأتُ ردك على رسالتى ورسائل غيرى من الأزواج الذين شاركوا فى مسلسل النكد الزوجى، فوجدتُكَ - بالرغم مما ذكرتَهُ فى ردودك عن

تأثير هذا السحر اللعين للنكد على الحياة الزوجية - تدعونى وغيرى من ضحايا النكد الزوجى إلى الصبر والتضحية من أجل أطفال لا ذنب لهم فى شىء ، ومحاولة التكيّف مع الأمر الواقع ، والتقليل بقدر الإمكان من أثر هذا السحر اللعين على الحياة الزوجية . . إلخ .

لكنى رغم اقتناعى بما قلتُ لم أستطع مواصلة الاحتمال ، وحسمتُ أمرى على الانفصال عن زوجتى ، وطلب منى والدها التروّى قبل اتخاذ هذا القرار من أجل طفلتى التى أحبها وتحبنى كثيرًا . . لكنى سددتُ أذنىّ عن النصيحة وتم الانفصال . . وبدأتُ أبحث عن عروس أخرى وأحلم بالسعادة والهناء معها .

وبعد ستة أشهر من الانفصال كنتُ قد ارتبطتُ بفتاة أخرى رشحتْها لى أسرتى وتزوجتُهَا ، وأَمِلْتُ أن أجد سعادتى وهدوء بالى معها ، وبعد شهرين من الزواج علمتُ أن مطلقتى قد وضعتْ طفلى الثانى وأنها كانت قد أخفتْ عنى حملها عند الانفصال لكيلا ترغمنى على العودة إليها مضطرا . وأصارحكَ القول بأن مشاعرى لم تتحرك فى ذلك الوقت لرؤية وليدى الجديد، ربما لأن أمه كانت قد أقامتْ ضدى دعوى نفقة للطفلين بالرغم من أن والدها ميسور الحال . . وتصورتُ - كما أقنعنى بذلك الجميع - أنها تصر على ملاحقتى بالنكد حتى بعد انفصالنا ، وتمنيتُ أن أنسى كل ما جرى فى حياتى السابقة ، وأن تعوضنى عنه زوجتى الجديدة، لكنى وجدتُهَا بعد شهور قليلة من الزواج تضيق بمشاكلى وأحزانى ، ولا تحتمل ظروفى المادية الجديدة التى فرضتها علىّ

الظروف مؤقتًا بسبب تكاليف الزواج الجديد، ودفْع مستحقات الزوجة السابقة، بل وجدتُها كذلك لا تحتمل أى نقد ولو كان رقيقًا لأى تصرف من تصرفاتها ، وإنما تثور علىّ ثورة هائلة وتفقد سيطرتها على لسانها ، فتوجه لى أفظع السباب ، ولربما قذفتْنى كذلك خلال انفعالها بأى شىء تجده أمامها من الأدوات المنزلية .

وخلال ذلك توفى أبى إلى رحمة الله وأصبحتْ أمى وحيدة فى مسكنها، وقبل أن أفكر فى فعل أى شىء للتخفيف عنها، وجدتُ زوجتى ترفض بإصرار إقامتها معنا ولو لفترة مؤقتة عقب الوفاة ، وتضعنى فى حرج شديد أمام إخوتى وأهلى، فى الوقت الذى جعلتْ فيه من بيتى أرضًا مشاعًا لكل أقاربها - حتى الدرجة الثالثة - يأتون إليه فى أى وقت ، وترحب بهم فى كل حين. . وحرّمتْ بيتى فى المقابل على أهلى، ومَن يغامر بزيارتنا وتفلتُ منه - ولو على سبيل المزاح - كلمة تعتبرُها إساءة لها ، يكون مصيره الطرد بلا رحمة .

وتساءلتُ : أين السعادة التى بحثتُ عنها وهجرتُ من أجلها زوجتى الأولى وأطفالى ؟ . . وتراكم الإحساس بالمرارة فى أعماقى ، لكنى تحملتُ كل شىء خوفًا من الفشل الثانى فى الزواج ، ومن شماتة زوجتى السابقة .

وفى أحد أيام شهر رمضان الماضى توجهتُ لأحد المساجد الكبرى لأداء صلاة التراويح ، فبكيتُ فى صلاتى وأنا أتذكر طفلتى الحبيبة وطفلى الذى قارب على العام الأول من عمره، ثم هممتُ بمغادرة المسجد

بعد الصلاة ، فوجدتُ والد مطلقتى أمامى ، ولما اتجهتُ إليه لأحييه أشاح الرجل بوجهه عنى ، لكنى لاحقتُهُ وتوسلتُ إليه بالمكان الطاهر الذى يجمعنا وأيام الشهر الفضيل الذى نعيشه أن يسمح لى برؤية طفلىّ . . وتحملتُ صابرًا جرحه لكرامتى وهو يذكّرنى بأن الأبناء ليسوا فقط زينة الحياة الدنيا ، وإنما هم أيضًا مسئولية كبرى لا يصح التنصّل منها أو التخلى عنها ليتحملها عنى الآخرون ، ووافق فى النهاية على أن أراهما . .

توجهتُ معه إلى البيت ، وشعرتُ حين رأيتُهما بالسعادة والحزن فى الوقت نفسه . . السعادة لرؤيتهما ، والحزن لحرمان نفسى من الاستمتاع بقربهما وملاحظة مراحل نموهما عن قرب . . وغلب الحزن على السعادة فى قلبى حين رأيتُ طفلى الجديد وهو يخطو خطواته الأولى وينظر إلىّ فى ترقب وشك ولا يعرفنى للأسف .

ورجعتُ إلى «وكر النكد الحقيقى»، وحمدتُ الله حين وجدتُ زوجتى نائمة، فلما تهيأتُ للنوم إذا بالعاصفة تهب على غير انتظار ، وإذا بزوجتى تصحو من نومها وتنفجر فىّ بسيل من الكلمات البذيئة لأننى لم أستأذنها فى التأخر عن العودة للبيت، وإذا بها أيضًا تقذفنى بوسادة تطير كالقذيفة وترتطم بوجهى . . فلم أشعر بنفسى إلا وأنا أنهال عليهاضربًا بعد أن نفد صبرى، وطلقتُها . . ووضعتُ النهاية المحزنة لحلم السعادة والابتعاد عن النكد الزوجى . . ووافقتُ على تسليمها أثاثها وديًا على أن تبقى فى البيت إلى حين انتهاء عدّتها .

وتسلم والدها أثاث ابنته ومزق أمامى قائمة المنقولات، وتركتُ لها البيت وانفردتُ بنفسى متسائلاً عما فعلتُ بنفسى وحياتى، فلم يمضِ أسبوعان حتى فوجئتُ بالزوجة الثانية وقد أقامت ضدى دعوى تبديد لأثاث الزوجية. . واكتشفتُ بعد فوات الأوان أن القائمة التى مزقها الأب لم تكن القائمة الأصلية، وحاولتُ - بالرغم من ذلك - التفاهم معها وديّا لتجنب الوقوف أمام المحاكم ، فكان ثمن تنازلها عن هذه الدعوى هو أن أدفع لها مرة أخرى ثمن الأثاث الذى تسلمَتْهُ بالفعل تأديبًا لى على ما فعلتُ.

وراحت أسرتى تلح علىّ فى إعادتها إلى عصمتى لكى تتنازل عن دعوى التبديد بلا شرط ، لكننى رفضتُ ذلك وآثرتُ أن أقترض المال لأسدد لها المبلغ المطلوب ، ولم تكتفِ - سامحها الله - بذلك ، وإنما أصرّت عند انتهاء عدتها دون أن أعيدها لعصمتى على ألا تترك البيت إلا بعد إلحاق كل ما تستطيع من ضرر بالشقة قبل مغادرتها : من إتلاف للجدران إلى تكسير النوافذ وأطقم الحمامات . . إلخ. . ورجعت إلى البيت فوجدتُهُ خرابًا. . وفى غمار ذلك تلقيتُ من عملى إنذارًا بالاستغناء عنى إذا لم أرجع إلى سابق انضباطى والتزامى بمواعيد العمل، بعد أن كثرت أيام غيابى بسبب هذه الظروف.

وبعد انتهاء العاصفة وجدتُنى أفكر فى زوجتى السابقة «وعيوبها» التى دعتنى لإنهاء حياتى معها ، وبنظرة عادلة هذه المرة للعيوب والمزايا، وجدت أنها إذا كانت تبكى كثيرًا لأى شىء أو لمرض أحد ذويها، فقد

كانت على الناحية الأخرى تجلس على الأرض إلى جوارى إذا أصابنى برد عابر . . وما كنتُ أراه قسوةً من جانبها على طفلتنا ، كان سببه الخوف عليها ورغبتها فى توجيهها إلى الصواب . . وما كنتُ أسمعه من شكواها من أهلى وثورتها على تصرفاتهم معها ، لم يكن يتجاوز فى النهاية حدود الكلام والغضب المؤقت ، ثم ما كان أسهل إرضائها بعد ذلك بأقل كلمة اعتذار منى ولو كانت ساخرة ، فضلاً عن أنها لم تحرجنى أمامهم مرة واحدة ، ولم تتعمد إهانتهم فى بيتى أو طردهم منه كما فعلتْ زوجتى الثانية ، بل كانت - بالرغم من كل خلافاتها معهم - توصينى بالبر بهم وصلة رحمهم . . حتى موقفها منى بعد انفصالنا لم يتجاوز الرغبة المشروعة فى الحصول على حق طفلىّ منى وإشعارى بمسئوليتى عنهما ، لكنها لم تتعمد قَط إيذائى أو الافتراء علىّ ظلمًا كما فعلتْ الزوجة الثانية . . وبعد تفكير طويل رغبتُ بإصرار فى استعادتها والاعتذار لها عن كل ما جرى . . وسعيتُ إليها أملاً فى أن تكون الأيام قد علمَتْنا نحن الاثنين درسها القاسى . . لكنها رفضتْ مقابلتى ، وذكّرنى والدها - حين فاتحتُهُ برغبتى فى استعادة أم طفلىّ - برسالتى التى أرسلتُها إليكَ ونشرْتَها فى حينها ، وما ذكرتُهُ فيها عن ابنته . . فقررتُ أن أكتب إليكَ مرة أخرى . . ليس فقط لكى تقنعها بالعودة إلىّ ، وإنما أيضًا لكى أرفع عنها الظلم الذى ظلمتُهُ لها فى رسالتى السابقة إليكَ . . وأرجو ألا تبخل علىّ بمساعيك الحميدة هذه المرة أيضًا لإقناعها بالعودة إلىّ وبدء صفحة جديدة من حياتنا ، لأننى فى أشد الحاجة إليها الآن لكى أتجاوز محنتى

. . وأرجو أن تصفح هى عنى. . ويكفيها أننى قد عرفتُ بالتجربة القاسية النكد الحقيقى المدمر خلال زواجى الثانى. . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

ليس لَدَىّ الكثير مما أقوله لكَ تعقيبًا على رسالتكَ هذه سوى أنها تقدم لنا مثلاً جديدًا لآفة الإنسان القديمة فى قلة الصبر على ما يشكو منه ولو كان هينًا بسيطًا ، ولميله الغريزى للرثاء لنفسه واعتبارها ضحية للآخرين عن طريق تضخيم عيوبهم وتبرئة النفس من كل شبهة عيب أو خطأ من جانبه فى حقهم .

لقد تعجلتَ يا سيدى هدم أسرتك الأولى وحرمان طفلتكَ الصغيرة منكَ ومن حقها عليكَ فى أن تحيا حياة عائلية مستقرة، لغير أسباب جدّية تجعل من الانفصال عن زوجتك الخيار الصعب الذى لا بديل له، ولا مفر منه. . فكيف كان جزاء؟

لقد أثبتتْ لكَ التجربة العملية أن كل ما شكوتَ منه - مما اعتبرتَهُ من عيوب زوجتكَ الأولى - كان من الممكن احتماله والتجاوز عنه أو علاجه ، وفهم دوافعه وأسبابه، واستجلاء النيات الطيبة وراءه. . كما أثبتتْ لك التجربة أيضًا - والأشياء تعرف بأضدادها - أنه لا وجه للمقارنة بين ما نسبتَهُ إلى زوجتكَ الأولى من عيوب وأخطاء ، وما تجرعْتَ آلامه ومرارته الحقيقية مع زوجتك الثانية. . فحتى ما اعتبرتَهُ ملاحقة لك بالنكد من

جانب زوجتك الأولى بعد انفصالكَ عنها لم يكن أكثر من سعى مشروع للحصول على حق عادل لطفليكَ عليكَ، ولا يغير من مشروعية هذا الحق شيئًا أن يكون والدها ميسور الحال أو غير ميسور ، لأن الحق لا يتقرر بمدى احتياج الإنسان إليه، وإنما بمشروعيته .

ولو كانت زوجتك الأولى قد رغبت حقًا فى ملاحقتِكَ بالنكد بعد انفصالكَ عنها ، لما تعففتْ عن إبلاغكَ بحملها الثانى لكيلا تكون عودتكَ إليها - إذا رغبتَ فيها - اضطرارية وليست إرادية . . بل إنى لأرى أن شرف خصومتها لكَ بعد الانفصال وعدم ادّعائها عليكَ بباطل قد كشفا عن معدنها الأصيل، وحقيقة القيم الأخلاقية السائدة فى محيطها العائلى، ذلكَ أن الفُضَلاَءَ حقًا هم مَن لا يخرجهم الخلاف والغضب عن التزامهم بالعدل والفضل مع الآخرين، ولو آذاهم هؤلاء الآخرون وافتروا عليهم السوء. فالخلاف هو محك الأخلاقيات الحقيقية للإنسان وليس الرضا والوفاق .

وفى ذلك يقول الشاعر :

مَنْ يَـدّعِى الْحِلْمَ أَغْضِبْـهُ تَعْـرِفْــهُ
لا يُعْرَفُ الْحِلْمُ إلاَّ سَاعَـةَ الْغَضَـبِ

ويقول الإمام « ابن حزم الأندلسى » :

أَفْعَالُ كُلِّ امْرِئٍ تُـنْبِى بِعُـنْصُـرِهِ
والْعَيْنُ تُغْنِيكَ عَنْ أَنْ تَطْلُبَ الأَثَرَا

فقارنْ إذن نُبْلَ خصومة زوجتكَ الأولى لكَ بعد الانفصال ، بفحش خصومة زوجتكَ الثانية لكَ عند الخلاف خلال الحياة الزوجية بينكما وبعد انتهائها . . حيث لم تكتف باسترداد أثاثها، وإنما اسْتَأْدَتْكَ ثمنه أيضًا بالباطل وتحت سيف التهديد بالسجن وقضية التبديد . . ولم يشفِ ذلك وحده غليلها ، فاتبعتْ معكَ سياسة «الأرض المحترقة» التى كانت تتبعها جحافل التتار حين تحرق القرى برمتها قبل الجلاء عنها لكيلا يجد الخصوم فيها أخضر ولا يابس عند دخولها . .

فإذا كان الأفضل دائمًا هو ألا يحتاج الإنسان لأن تطحنه التجربة القاسية لكى يعرف أقدار الآخرين ويعترف لهم بفضائلهم ، فإن ما يتعلمه المرء من جحيم التجربة قد يكون فى كثير من الأحيان أعمق أثرًا فى حياته وأفكاره . . لأنه قد دفع ثمنًا غاليًا لما اكتسبه من حكمة وفهم للحياة . . ويبقى بعد ذلك أن أناشد زوجتكَ الأولى وأم طفليكَ الصغيريْن ألا تغلق أبواب الرجاء فى وجهكَ . . وألا تسمح لغضبها المشروع لكرامتها بأن يحجب عنها رحمتها بطفليْها وعدلها معهما الذى يفرض عليها ألا تعاقبهما بخطأ أبيهما وتحرمهما من حقهما فى الحياة الطبيعية بين أبويهما . . وكم من أزواج وزوجات اعترضتْ حياتهم مثل هذه المحنة . . فلم تمنع إعادة اجتماع شملهم مرة أخرى ومواصلة رحلة الحياة بينهم إلى النهاية المقدورة لها . .

فإذا كانت فى حاجة إلى ترضية واعتذار كافييْن ، فلا تتردد فى تقديمهما إليها . . واصبر على رفضها العودة إليكَ بعض صبركَ على أذى زوجتكَ

الثانية لكَ، لأن لكل إنسان كرامته فى النهاية، ومن حق المظلوم أن يسترضيه ظالمه ويصبر عليه حتى تشفى نفسه من مرارتها ويصبح مستعدّا للصفح والنسيان، فاذهب إليها يا سيدى مرة ثانية وثالثة. . ولا تتوهم أن مجرد إبداء رغبتكَ فى عودتها إليكَ بعد كل ما جرى كاف لأن يذيب المرارة التى ترسبت فى أعماقها. . وإنما واصل السعى لاستردادها بلا كَلَل. . وتمثّل بقول الشاعر :

إِذَا كَـانَ ذَنْـبِى كُـلَّ ذَنْبٍ فَـإِنَّـهُ

مَـحَا الذّنْبَ كُلَّ الْمَحْوِ مَـنْ جَـاءَ تَـائِبَـا

وما أحسب إلا أنها سوف تصفح وتنسى بعد حين. . لأن المعدن الأصيل الذى تَبَدّى فى الخلاف ولم يسمح لها الافتراء عليكَ بباطل ، سوف يتجلى أكثر وأكثر حين تلمس صدق ندمكَ على إساءتك السابقة لها ، وتغلبها أمومتها الحانية لطفليها على مشاعرها فترجح لديها سعادتهما وأمانهما على كل شىء بإذن الله .

* * *

الحرب الشرسة

حاولتُ مقابلتَكَ أكثر من مرة ولم تسمح الظروف بذلك فأنا طبيب عمرى ٤٥ سنة، وهيئتى وصحتى على ما يرام والحمد لله.

وقد عملت خارج مصر لفترة ثم رجعت إلى بلدى منذ ٣ سنوات، وتزوجت من فتاة كان عمرها وقتها ٢٥ عاما، وتحمل شهادة من معهد التعاون التجارى ، وذات جمال متوسط ، وتقيم بالإسكان الشعبى بحلوان ، وقد تزوجتها لأحمى نفسى من الموبقات وأرعى حدود الله، غير أنها ومنذ اللحظة الأولى لزواجى منها، راحت تثبت لى كل يوم أننى قد أخطأت بالزواج منها . . فهى تتطاول علىّ بالسب والشتم وتطلب منى الطلاق فى كل مناسبة وتسمعنى عبارات مؤلمة من نوع : إنتَ مش راجل . . طلقنى، أنا مش طايقة أشوف وجهك، إنتَ أكبر منى بـ ١٧ عامًا . . إلخ . .

وخلال انفجاراتها العصبية هذه تقوم بتحطيم المسجلات والفازات والأشياء التى تقع فى يدها، ثم تترك بيت الزوجية وترجع إلى أبيها ، وكل

ذلك بالرغم من عدم تقصيرى معها فى كل الجوانب المادية والعاطفية . . إلخ . . وحين ترجع إلى بيت والدها يبدأ هو فى الاعتذار لى، ولا أسمع منه سوى عبارات : «معلهش» . . «أصلها صغيرة فى السن» . . إلخ .

وقد مضت الشهور الأولى من الزواج على هذا الحال، وبعد تسعة شهور و ١٥ يومًا بالضبط من زفافنا، وضعتْ زوجتى طفلنا الوحيد ، وظننتُ أن هذا المولود سوف يجعلها أكثر تمسكًا بحياتنا، فإذا بها تزداد شراسة وسوء أدب . . وبعد ثمانية شهور من ميلاد الطفل، تركتْ بيت الزوجية من جديد عقب خلاف مماثل ، وبدأتْ فى تحرير المحاضر وإقامة الدعاوى القضائية ضدى، وشن والدها علىّ حربًا شرسة دمرنى خلالها على مدى عام ونصف العام - حتى الآن - فى سمعتى ومالى ومستقبلى، وأساء إلىّ فى عملى الحكومى وفى عيادتى حتى اضطررتُ إلى بيع العيادة وترك الحى كله، كما حرمنى من رؤية طفلى بالرغم من التزامى بدفع النفقة الشهرية له، وأقام عشرات القضايا ضدى . . وقد عرضتُ عليه أكثر من مرة حل الأمور المعلقة بيننا وديّا، فكان يرفض ذلك دائمًا ويقول: إنه يعرف طريق المحاكم جيدًا ، ويعرف كيف يحصل على ما يريد من خلاله .

لقد خرجتْ زوجتى من بيتى دون إذنى منذ عام ونصف العام، ونسبتْ إلىّ صفات قبيحة ظالمة،وأقامت بمساعدة والدها القضايا ضدى وحصلتْ على الطلاق . . لكن القضايا الأخرى مازالت تأخذ مجراها . .

والآن ، وبعد كل ما حدث ، فإنها - كما تقول - نادمة على ما فعلتْهُ وتود أن ترجع إلى بيت الزوجية، ولكن بشرط : أن أوافق على شروط أبيها! . . أما شروط الأب للعودة فهى أن أكتب له شيكًا على بياض، وقائمة منقولات بضعف قيمة القائمة الحالية .

وكلما التقيتُ بزوجتى وتحدثنا فى أمر العودة طلبتُ منها الرجوع إلى بيت الزوجية، ولكن بدون كتابة أى شىء فترفض . . إلا إذا وافقتُ على شروط أبيها بالرغم مما تقوله من أنها قد تغيرتْ وعرفتْ قيمة الحياة الزوجية التى لم تترك وسيلة لتدميرها دون أن تتخذها . .

والآن ، وبعد كل هذه المسيرة ، فإننى أجد نفسى وحيدًا فى مسكنى بمدينة نصر. لا أرى ابنى . . وقد أنفقتُ ثلاثة أرباع مدخرات العمر على القضايا وهذه الحرب الشرسة . . فبماذا تنصحنى أن أفعل ؟ . . هل أقبل بشروطها وشروط أبيها وأرجع للحياة تحت رحمة انفجاراتها العصبية وتهديد والدها لى بالشيك والقائمة ، والقضايا التى يجيد التعامل معها؟ . . أم تنصحنى بأن أطوى هذه الصفحة نهائيًا وأبدأ من جديد مع إنسانة كريمة من أسرة محترمة تقدر الحياة الزوجية وتحافظ عليها ؟

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

بعض البشر ينطبق عليهم حال أسرة «البوربون» الملكية التى حكمتْ فرنسا من عام ١٥٨٩ حتى عام ١٨٣٠ ، فيما عدا فترة الثورة الفرنسية التى عُزلتْ خلالها، ثم رجعتْ للحكم بعد القضاء على الثورة لبضع

سنين أخرى . . فلقد تصور البعض أن ملوكها سوف يستفيدون بعد عودتهم للحكم من أخطائهم السابقة التى أطاحت بهم من قبل ، وسوف يتعلمون درس التجربة ويبدأون عهدًا جديدًا خاليًا من أخطاء الماضى . . فقال المؤرخون : إنهم رجعوا إلى الحكم ، لكنهم لم يتعلموا شيئًا من محنة العزل وإعدام «لويس السادس عشر» وزوجته «مارى أنطوانيت» . . ولم ينسوا أيضًا شيئًا من أحقادهم القديمة على مَن عزلوهم، ولهذا فقد فقدوا مُلكهم مرة ثانية بعد قليل وانقرضتْ أسرتهم للأبد .

والواضح أن زوجتكَ السابقة لم تتعلم شيئًا من تجربة النزاع والطلاق وانهيار بيت الزوجية، وحرمان طفلها الوليد من أبيه لأكثر من عام ونصف العام حتى الآن، ولم تنسَ أيضًا شيئًا من مطالبها الظالمة أو مطالب أبيها التى تمارس الضغط عليكَ للقبول بها، إذ كيف تقول لك إنها الآن نادمة على ما فعلتْ، وعرفتْ قيمة الحياة الزوجية التى لم تدع سبيلاً لتدميرها وتدمير شريكها فيها إلا واتخذته ، ثم تطالبكَ بعد ذلك بالعودة على أساس شروطها الظالمة وليس بلا قيد ولا شرط ، وأى ندم هذا الذى لا يغيّر من الإنسان شيئًا، ولا يعيده إلى جادة العدل والعقل والصواب ؟!

إنها لم تستفد شيئًا - للأسف - ولم تندم على شىء، ولو كانت قد تعلمتْ درس التجربة حقًا لما تمسكت مع أبيها بهذه الشروط المجحفة للعودة إلى عصمتك واستئناف الحياة الزوجية معك، ولَسَعَتْ إلى العودة

إليك بلا مطالب متعنتة لكى تهيىء لطفلها المظلوم معها حياة مستقرة وآمنة فى أحضان أبويه، راجية أن تمسح الأيام ذكرى هذه الفترة العصيبة من حياتِكَ وحياتها، وأن يذيب الزمن مرارة هذا الفحش فى الخصومة الذى مارستْهُ معك طوال الفترة الماضية .

إنه ليس ندمًا . . لكنه حيلة أخرى لقهر إرادتك وإرغامك على القبول بأن تحيا معها تحت ظلال سيف الشيك وقائمة الأثاث الوهمية فى يد أب يفخر بأنه يعرف طريق المحاكم، ويعرف كيف يحصل بواسطتها على ما يريد ! . . والحياة فى ظلال الخوف وتحت سيف مشهر يمكن استخدامه فى أى خلاف عابر لا يمكن أن تكون حياة طبيعية ولا آمنة ، وإنما هى نوع من القهر لا يرضاه الإنسان الحر لنفسه. . فإن عجبتُ لشىء فإنى أعجب لهذه الظاهرة الجديدة التى أقرأ عنها الآن كثيرًا فى رسائل القراء، وهى تفنن بعض الآباء فى محاولة تكبيل زوج الابنة بالقيود والسلاسل وإرغامه على توقيع شيكات مفتوحة على بياض، أو على قوائم وهمية لأثاث لم يدفع الأب ثمنه، وكل ذلك بدعوى توفير الأمان للابنة وضمان حقوقها المادية لدى زوجها عند الخلاف. . فأى أمان هذا؟! . . وكيف تستمر حياة زوجية سليمة تحت ظلال التهديد بالشيكات الموقعة على بياض وشبح قضايا التبديد والسجن؟!

إن ديننا الحنيف يرشدنا إلى السبيل القويم للتعامل مع الحياة الزوجية وهو : ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة ، من الآية ٢٢٩ .

والتسريح بإحسان هو أن يعطى الرجل مطلقته - بغير مماطلة أو منازعة - مؤخر صداقها ومتعة الطلاق وينفق عليها خلال عدتها، ويؤدى إليها بقية حقوقها المادية من أثاث وممتلكات خاصة بها بغير أن يعضلها فى ذلك أو يحرمها من شىء منه، وأن يؤدى راضيًا نفقة أبنائه منها بما يتناسب مع دخله المادى ومستواه الاجتماعى والعائلى، وليس أقل من ذلك. . فأين ذلك مما يجرى الآن بين البعض حين يتحولون بعد حياتهم المشتركة إلى خصوم ألدّاء يتفنن كل منهم فى محاولة إعضال الآخر وسلبه ما لا حق له فيه؟!

يا صديقى ، إننى أفضّل بالطبع أن ترجع زوجتكَ إلى عصمتك ، وأن يأوى طفلك الوليد إلى ظلال أبويْه ، ولكن ما تطالبك به زوجتك السابقة ووالدها لا يَرْضَى به شرع ولا قانون، فإذا كانت قد ندمتْ على ما فعلتْ حقّا وتعلمتْ شيئًا من درس الانفصال، فَلْتَرْجِعْ إليك بلا شيكات ولا قوائم وهمية ، وبما يحفظ لها فقط حقها المشروع لديكَ فى أثاثها الحقيقى ـ وليس الموهوم ـ وبصداق عادل لا مغالاة فى عاجله أو آجله ولا استغلال. . فإنْ لم تقبل بذلك ـ ولن تقبل به غالبًا هى ووالدها خبير المنازعات القضائية ـ فاطْوِ هذه الصفحة المؤلمة من حياتك للأبد، وَلْيَتَوَلَّ الله برحمته أمر طفلك الوليد منها . . وابحث لنفسك عن شريكة حياة أخرى تنسيك هذا العناء، وتعوضك عما لقيتَ فى هذه الزيجة من أهوال وبلاء .

* * *

الشوكة القوية

قرأت رسالة «الحرب الشرسة» للطبيب الذى يروى عن معاناته مع زوجته السابقة والحرب الشرسة التى شَنَّتْهَا عليه حتى نالت منه ما لا حق لها فيه، فأثارت هذه القصة شجونى ودفعتْنِى لأن أروى لك قصة حرب مماثلة كنتُ أنا قائدتها لا ضحيتها . .

فأنا مهندسة شابة على قدر من الجمال ، نشأتُ فى أسرة متوسطة، وكنتُ أول طفلة فى عائلتى، فتمتعتُ بعطف الأسرة وتدليلها الزائد لى حتى تعودتُ أن آمر فأطاع، وإلا غضبتُ وتعذر إرضائى إلا بصعوبة شديدة. . كما ساعدنى على هذا الدلال كذلك تفوقى الدراسى والتحاقى بإحدى كليات القمة .

وخلال فترة الدراسة تعرفتُ على معيد شاب يكبرنى بخمس سنوات، فأحببتُه بجنون، وفرضتُ حوله أسوارًا من الممنوعات والمحظورات خوفًا من أن تأخذه منى فتاة أخرى أو يرحل عن الحياة،

ابتداء من «تعليماتى» المشددة له بألا يعبر الطريق إلا إذا كان خاليًا، إلى تحريمى عليه أن يتبسط فى الحديث مع أى فتاة أو زميلة له فى العمل الحكومى أو فى المكتب الاستشارى الذى يعمل به فى المساء.. ويا ويله منى لو فاجأتُهُ فى المكتب فوجدتُهُ يتحدث مع زميلة له، إذن فهى النار التى لا يطفئها سوى تركه للعمل فى هذا المكتب نهائيّا، مهما يكن دخله منه.

تكررتْ هذه القصة كثيرًا حتى لم يعد يستقر فى أى مكتب سوى بضعة أشهر، وأحيانًا أسابيع، حتى رفضتْهُ بعض المكاتب لعدم استقراره فى العمل.

وعلى هذا النحو مضتْ فترة خطبتى له.. ثم تزوجنا.. وتكررتْ مواقف الشك فيه والغيرة عليه، فكنتُ أشك فى كل اتصال تليفونى يتلقاه.. وكل ورقة أجدها فى جيبه أو حقيبته ولا أفهم فحواها، وأحاصره حين يرجع من عمله مرهقًا بالأسئلة والاستجوابات المضنية إلى ما لا نهاية!

وأنجبنا طفلة جميلة.. والحال ما زال على ما هو عليه.. ثم زاد شكّى فيه حين أبلغنى بعض الزملاء أنه شوهد يسير فى الشارع فى أحد الأيام مع زميلة له فى آخر مكتب هندسى قَبِلَهُ للعمل فيه.. ولاحقتُهُ بالتحريات واستجواب زملائه فى المكتب حتى هَيّأَ لى شيطانى أنه لابد أن يكون أخطأ مع هذه الزميلة، فافتعلتُ معه مشاجرة عنيفة وأخذتُ

طفلتى وعدتُ إلى بيت أهلى، وبغير أى محاولة للتفاهم معه بدأتُ فى شن حربى الشرسة ضده ، ابتداء من رفع دعوى قضائية ضده واتهامه بتبديد أثاثى، إلى رفع دعاوى النفقة، وحتى تشويه سمعته فى عمله بالمكتب الهندسى وعمله الحكومى واتهامه بكل ما لا يخطر على البال من اتهامات . . كل ذلك وهو لا يكف عن محاولة إعادتى إلى بيته مرة أخرى واسترضائى والتفاهم معى ، لكنى كنتُ قد تحجرتُ أمام مطلب واحد هو الطلاق والحصول على كل حقوقى بلا تنازل عن أى شىء مهما يكن، ولم أترك وسيلة مادية أو معنوية لإيذاء زوجى إلا واستخدمتُها . . كل ذلك وهو صابر ويكتفى بالدفاع عن نفسه ، ومحاولة دفع الاتهامات الظالمة عنه دون أى محاولة لإيذائى .

وخلال انهماكى فى قيادة هذه المعركة الضارية ضد زوجى تقرّب إلَىّ كثيرون من الزملاء يريدون الزواج منى بعد نجاحى فى الحصول على الطلاق، فقوّى ذلك من شوكتى ورادنى إصرارًا على مواصلة الحرب حتى النصر !

وأخيرًا حصلتُ على الطلاق ، وفزتُ بالأحكام القضائية التى أردتُها . . وتلقيتُ التهانى من الأهل والصديقات شاعرةً بنشوة النصر . .

وبدأتُ أفكر فى المستقبل، فانتظرتُ انقضاء فترة العدة لكى أبدأ فى اختيار واحد من الذين يحومون حولى ويرغبون فى الزواج منى للارتباط بى . . وبدأتُ أقارن بين مميزات كل منهم وعيوبه، وأفكر بعمق فى ذلك

لكيلا أكرر التجربة الفاشلة فى حياتى، ولكى أحصل على أفضل الشروط والظروف لحياتى الجديدة. . وبدأتُ أتهيأ لاستقبال عروض الزواج والمفاضلة بينها، فإذا بالذين كانوا يتنافسون على الفوز بى خلال انشغالى بالمعركة الطاحنة، يبتعدون عنى واحدًا بعد الآخر بمجرد حصولى على الطلاق. . وإذا بأحدهم يقولها لى بصراحة: إنه كان يريد «صداقتى» فقط وليس الزواج منى، إذ ماذا يجبره على الزواج من مطلقة ولديها طفلة!

وبعد عشرة شهور فقط من حصولى على الطلاق رحل أبى فجأة عن الحياة، رحمه الله وسامحه فيما جناه علىّ. . إذ لم يَنْهَنِى يومًا عن شىء مما فعلتُهُ ولم يفتح عينىّ على حقائق الحياة التى أدركها بخبرته، وبدلاً من أن يرشدنى للحق والعدل فى معركتى مع زوجى، كان يساعدنى عليها بحيل وأفكار شيطانية.

ومضى العام تِلْوَ العام. . فضمد زوجى السابق جراحه ورمم حياته التى حطمتُها له تحطيمًا وتزوج من أخرى. . وتحسنتْ أحواله المادية تدريجيًا حتى استطاع شراء شقة جديدة وسيارة جديدة، وقام بأداء فريضة الحج مع زوجته مرتين، وأنجب منها البنين، أما أنا فلقد طردنى أخى من شقة أبى لكى يتزوج فيها، وانتهى بى المطاف لأن أحيا وحيدة مع طفلتى ـ التى تبلغ من العمر الآن تسع سنوات ـ فى شقة صغيرة بالإيجار، وقد أصيبت ابنتى بحالة من الاكتئاب والتبول اللاإرادى، كما تعذبنى دائمًا بتساؤلاتها المريرة: لماذا يكون لكل صديقاتها آباء وهى

وحدها بينهن التى بلا أب ؟! . . وذلك بالرغم من أن أباها يراها مرتين كل أسبوع ويصطحبها معه إلى المصيف والرحلات القصيرة !

إنى أكتب لك هذه الرسالة لكى أقول لكل إنسانة على وشك الانفصال عن زوجها، إننى ـ وبكل كبريائى ـ أقبل الآن أن يعود إلىّ زوجى ولو ضربنى كل يوم، وأقبل به ولو عرف امرأة مختلفة كل يوم، وأقبل به كذلك ولو رفض حتى أن يكلمنى أو يجالسنى ، وذلك لكى أحس فقط «بالأسرة»؛ وبأننا أب وأم وأطفال. . وأناشد كل زوجة وكل زوج أن يتفهما معنى شركة الحياة وأن يسعى كل منهما لحل مشكلاته بالصبر والتفاهم والأمل فى المستقبل. . وأنصح كل زوجة بأن تقرّب زوجها منها ، وأن تصبر على ما لا يرضيها منه الآن لأنه أفضل لها كثيرًا من الوحدة والندم اللذيْن أتجرع مرارتهما الآن .

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

يشغلنى دائمًا ـ حين أقرأ رسالة مماثلة لرسالتكِ هذه ـ سؤال أتأمله طويلاً ولا أصل عادةً إلى جواب شافٍ له ، وهو : لماذا يحتاج الإنسان دائمًا إلى أن تنزل به النازلات لكى يدرك خطأ مواقفه السابقة التى طالما أصر عليها من قبل واستمسك بها ورأى أنها الحق الذى لا يأتيه الباطل من شماله أو يمينه؟! . . وكم من السنين يحتاج المرء لكى يكتشف أخطاءه ويرى خَطَل مواقفه السابقة، فينهض لإصلاح الأخطاء وأداء

الحقوق لمن ظلمهم خلال اغتراره بنفسه وقوته واقتناعه المطلق بصحة موقفه ؟!

إن السعداء من البشر هم الذين تهديهم حكمتهم إلى اكتشاف أخطائهم والتسليم بها بلا مكابرة فى المدى الزمنى القريب الذى يسمح لهم بالاعتذار عنها و إصلاح آثارها بغير أن يخسروا الكثير ، والتعساء منهم هم من لا يرون الحق حقًا إلا بعد أن يتعذر عليهم إصلاح الأخطاء وتدارك المواقف، فيدفعون الضرائب الباهظة من حياتهم وأمانهم . . وسعادتهم .

ونحن كثيرًا ما نقول لأنفسنا : إنه لو رجعتْ بنا الأيام إلى الوراء لما فعلنا كذا ، وما استمسكنا بكذا وكذا من مواقفنا السابقة وآرائنا ، ونحن نحن البشر حين استمسكْنَا بهذه المواقف ودافعنا عنها باستماتة فى وجه الآخرين . . ونحن نحن نفس البشر حين أدركْنا الآن كم كنا جهلاء وحمقى وقصار النظر حين صَمَمْنَا آذاننا عن كل نصيحة ، وتصورْنا أن موقفنا أو اختيارنا هو الحق الذى لا يدانيه حق ، وأن الآخرين هم المخطئون الذين لا شبهة فى خَطَلِهم وخطئهم ، فما الذى تغير فينا وغَيّرَ من مواقفنا وأفكارنا وآرائنا ؟ إنها تجربة الأيام وحكمة السنين التى تَضِنُّ غالبًا بدروسها على مَن لم يدفع ثمنها الغالى من حياته وتجاربه .

فهل كنتِ تتصورين ذات يوم يا سيدتى ـ وأنتِ تقودين المعركة الطاحنة ضد زوجكِ فى المحاكم ، وترفضين كل محاولات الصلح أو

التفاهم ـ أنه سوف يجيء اليوم الذى تعترفين فيه بجنايتكِ على نفسكِ وروجكِ وطفلتكِ، وبخطأ موقفكِ من شريك الحياة من البداية إلى النهاية ؟

وما دام الحال هكذا ـ وما كان يبدو لنا أنه الصواب الذى لا يأتيه الخطأ من فوقه أو تحته، قد يصبح بعد بضع سنوات هو عين الخطأ، ونشعر بالندم المرير عليه ـ فلماذا لا يُبدى أحدنا وهو فى عنفوان تمسكه برأيه وموقفه أى استعداد لمراجعة نفسه وتأمل مواقفه ومواقف الآخرين ومحاولة تحرّى العدل فيها ؟! . . ولماذا نتهلل للخلاف من أول بادرة، فنقفز على الفور إلى مياهه العميقة، ونخوض المعارك الضارية ضد مَن اختلفْنَا معهم بلا أى اعتبار لسابق مودتنا لهم أو مودتهم لنا، أو لما يربطنا بهم من روابط إنسانية ؟!

لقد كتبتِ رسالتكِ هذه يا سيدتى وأنتِ فى حالة صدق مع النفس، حَبَّذَا لو استشْعَرَها الإنسان دائماً لكى يعترف بأخطائه ويتعلم دروسها ويبرأ من حقوق مَن ظلمهم خلال معاركه الضارية معهم . .

فلقد أدركتِ الآن أنكِ وأنتِ مَن أحببتِ زوجكِ السابق «بجنون» ـ كما تقولين ـ قد حطمتِ حياتكِ معه بغيرتكِ المفرطة عليه، وشكوككِ الدائمة فيه، واعتيادكِ ـ بأثر تنشئتكِ الخاطئة وتدليلكِ المفرط ـ أن تأمرى فيُستجاب لكِ بلا مناقشة، فلعلكِ قد تعلمتِ الآن درس التجربة الذى يقول : إن الحب وحده لا يكفى لاستمرار الحياة الزوجية ونجاحها، ما لم يرافقه الفهم وحسن الإدراك والاتزان والإنصاف وحسن المعاشرة واتحاد

الأهداف . . ولعلك أدركت الآن أيضًا أن الحياة ديون ، وأننا نحاول دائمًا أن نحتمى من ظلم الأيام لنا بألا نظلم أحدًا أو نفترى على أحد ، وبألا تدركنا نشوة النصر الظالم على مَن نعرف جيدًا فى قرارة أنفسنا حقيقة ظلمنا له ، وأنه لم يكن ليستحق منا بعض ما فعلنا به . . فلا عجب إذن يا سيدتى أن تعوض الحياة زوجكِ عن ظلمكِ له ، وأن تبدله زوجة أخرى ترعى مودته وتحرص عليه ، ويحيا معها آمنًا مستقرّا ، ولا عجب أيضًا أن يبدله الله من حياته ـ التى تعترفين بأنكِ قد نجحتِ فى تحطيمها ماديّا ومعنويّا ـ حياة جديدة أفضل وأنجح وأوفر ثمرة .

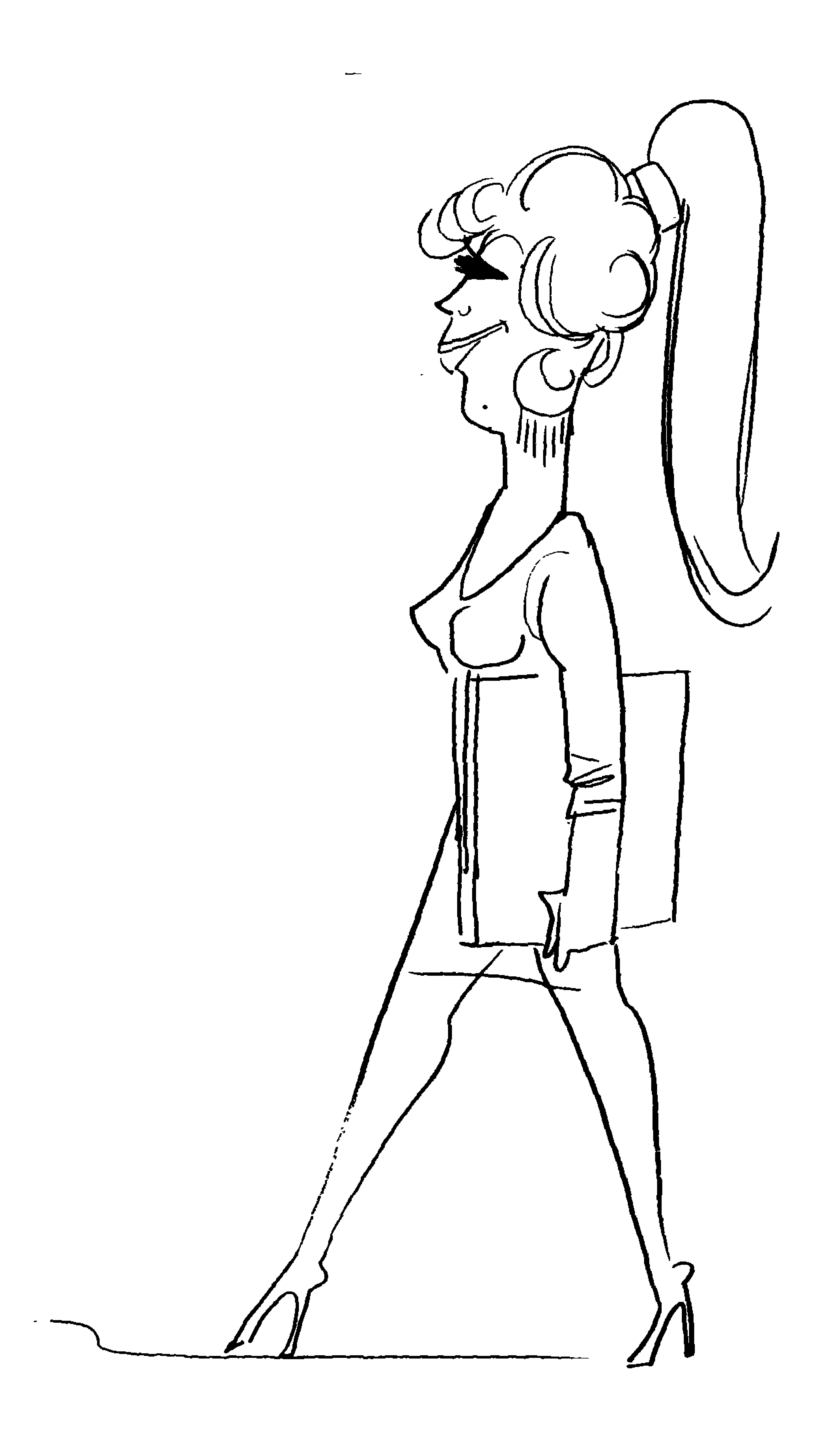
كما لعلكِ أيضًا قد تعلمتِ أهم دروس هذه التجربة ، وهو الفارق الهائل بين مَن يحومون حول امرأة متزوجة بهدف الفوز بها «كصديقة» ، ومَن يرغبون حقّا وصدقًا فى الارتباط بها والزواج منها . . فلقد فات عليكِ للأسف إدراك هذا الفارق بين زوجكِ الذى لم يكن يرغب فى فراقكِ حتى اللحظة الأخيرة ، وبين هؤلاء الذين تخلوا عنكِ بمجرد أن زال عنكِ قيد الزوجية .

ولو أنكِ أمعنتِ النظر الآن فى الأمر كله ، لأدركتِ أن أحد أسباب نفور هؤلاء الرجال من التفكير فيكِ كزوجة بمجرد انتصارك «الشامل» فى معركتكِ الضارية ضد زوجكِ السابق ، هو هذه المعركة نفسها ! ولا غرابة فى ذلك ، لأن مَن تخوض مثل هذه المعركة بالحق والباطل ضد من أحبتْهُ من قبل بجنون وأنجبتْ منه طفلة صغيرة ، وتستخدم فيها ـ كما تقولين ـ الأفكار والحِيَل الشيطانية التى يساعدها بها والدها ضده . . مَن تفعل

ذلك يا سيدتى ، لا يأمن غالبًا الرجل الارتباط بها إذا اقترب منها خلال «قيادتها» لهذه المعركة ولمس عن قرب ضراوة عدواتها ولَدَد خصومتها ، حتى ولو كان غارقًا فى حبها . . فلعل ذلك يكون أيضًا أحد دروس تجربتكِ التى تَدْعِينَ الأخريات والآخرين إلى الاستفادة بها ، فلا يفْجُرُ أحدهم فى الخصومة فينفر منه مَن يحيطون به خوفًا من أن تطولهم سهامه ذات يوم .

وختامًا ، فإنى أشكركِ على صدقكِ مع نفسكِ وعلى رغبتكِ المخلصة فى أن تضعى تجربتكِ أمام الآخرين ليستفيدوا بدروسها ويتفادوا أشواكها ، وأرجو لكِ ولطفلتكِ الصغيرة أن تعوضكما الحياة عما تعانيان وتمسح على جراحكما ، وتبدل من أمركما خيرًا بإذن الله .

***



الملابسُ الساخنة

أكتب إليكَ هذه الرسالة وقد بلغ بى اليأس قمته . .

فأنا طالبة جامعية عمرى ٢٢ عامًا وعلى درجة عالية من الجمال ، مما جعل كل من حولى ـ وأمى بصفة خاصة ـ يكيلون دائمًا المديح لجمالى حتى أدار الغرور رأسى . . ولم تكتفِ أمى بالإشادة بجمالى فى كل مناسبة، وإنما راحتْ تدفعنى أيضًا إلى إظهار مفاتنى وتشجعنى على ارتداء الملابس الساخنة !

أعلم الآن ما يدور فى رأسكَ عنى ، وأعرف أنكَ لابد أن تتساءل : وأين أبى من كل ذلك ؟ . . وأجيبكَ بأنه منفصل عن أمى ويعمل بإحدى الدول العربية ، ويرسل إلينا كل شهر مبلغًا يغطى احتياجاتنا .

وعلى الرغم من جمالى وارتدائى للملابس المغرية ، فقد كنتُ حريصة على المحافظة على نفسى . .

وأحببتُ إنسانًا يعمل عملاً مرموقًا وأحبنى . . ودعانى إلى تغيير

طريقة ملابسى ومكياجى وارتداء الحجاب، فاستجبتُ له ، وكنتُ على استعداد لأن أغيّر كل حياتى من أجله فى مقابل ما شعرتُ به معه من حنان الأب الذى افتقدتُهُ منذ صغرى . . وبالفعل أصبحتُ أكثر التزامًا .

وحدثنى هو عن رغبته فى التقدم لخطبتى عند عودة أبى من إجازته ، وبعد فترة أبلغنى باعتراض أهله الشديد على ارتباطه بى للفارق الكبير بين العائلتين، ثم تزوج فتاة من أسرة صديقة لعائلته، فشعرتُ بصدمة قوية هزت وجدانى . . وأدركتُ أنه لم يكن حبّا وإنما شىء آخر .

ورجعتُ لسابق عهدى فى ارتداء الملابس إياها والماكياج وإظهار مفاتنى، ولاحظتُ فجأة خلال ذلك إعجاب أستاذى فى الكلية ـ الذى تعدى الخمسين من عمره ـ بى . . ولفت نظرى إليه ما قالتْهُ بعض زميلاتى أمامى من أنه لا يرفع عينيْه عنى طوال المحاضرة، وكأننى الطالبة الوحيدة فى المدرج . . ثم حدث أن سلمتُ إليه فى مكتبه بحثًا كان قد طلبه من تلاميذه ، فأبدى اهتمامه الشديد بى ورغبته فى مساعدتى ، وألح علىّ فى حضور حفل الكلية السنوى الذى لم أكن أنوى حضوره ، فذهبتُ إليه والتقيتُ به فيه ، وقدّمنى إلى زوجته وأشاد بى أمامها ، ونوّه بحبه الكبير لها !

واقترب الامتحان ، فتوجهتُ إليه فى مكتبه لأسأله عن بعض ما غَمُضَ علىّ فهمه من المنهج ، فرحب بى بحرارة وشرح لى كل ما أردتُهُ ،

ثم صمت وراح يتفحصنى باهتمام شديد ، ثم قال لى : إنه كان يتمنى لو أننى قد ظهرتُ فى طريقه منذ ١٥ عامًا ! وسألنى عن رقم تليفونى فأعطيتُهُ له ، ولما هَمَمْتُ بالانصراف صافحنى بحرارة واحتوى يدِى بين يديْه فى حنان ، وانصرفتُ وقد شعرتُ بأننى قد استرددْتُ بعض كرامتى التى أُهدرتْ فى حبى الأول .

وبعد انتهاء الامتحانات بدأ أستاذى يتصل بى تليفونيًا بالساعات ، وفى بعض الاحيان كان يطلبنى فترد عليه أمى ولا تنزعج من اتصاله بى باعتباره بمثابة أبى !

وفى الفصل الدراسى الثانى كنتُ قد أصبحتُ صديقة لزوجته بناء على رغبته وتدبيره . . وأعترف لك بأننى كنتُ أشعر بسعادة خفية وأنا أتعامل مع زوجته ، وأشعر بأنها مخدوعة فىّ وفى زوجها . . كما أعترف لك بأننى أحببتُ هذا الشعور الداخلى بالانتصار عليها ، بل وبالسخرية الداخلية منها حين كانت تحدثنى عن حب زوجها لها ، وأنا أعلم تمامًا أنه يحبنى ويتحرّق شوقًا للارتباط بى .

وجاء اليوم الذى انتظرتُهُ منه . . وفاتحنى فى الزواج . . لكننى صدمتُ بأنه يعرض عَلَىّ الزواج العرفى ، فرفضتُ ذلك بحدة . . وكنتُ قد علمتُ من زوجته أن أقل ضغط تمارسه عليه يجعله يستجيب لطلباتها ، فقررتُ أن أستفيد من هذه الخبرة ، وانقطعتُ عن الذهاب إلى الكلية والرد على اتصالاته التليفونية . . فجُنّ جنونه ، وراح يسأل عنى

كل الصديقات ، واكتفيتُ بهذا القدر من الضغط عليه وعدتُ للكلية ، فوجدتُهُ ملهوفًا علىّ ، وكان أول ما فعله هو أن طلب الخروج معى ، وفى السيارة التى ركبتُها معه بعد شىء من التردد انهمرتْ دموعه وطلب منى ألا أتخلى عنه . . وأعلن استعداده للزواج الشرعى منى، ولكن بشكل سرى .

وقبلتُ بذلك . . وتم زواجنا شرعيّا فى السر ، واستأجر شقة خارج المدينة التى نقيم فيها ، وبدأتُ أخرج من بيتى فى الصباح بدعوى الذهاب إلى الكلية ثم أتوجه إلى هذه الشقة ، ويأتى هو إلىّ لنمارس حياتنا الزوجية فى هذا العش البعيد .

وانتهى العام الدراسى وبدأ عام جديد . . وأنا أتصور أن علاقتنا سرية ، إلا أننى اكتشفتُ أن جميع أساتذة الكلية يعلمون بارتباطه بى ، وأنه يتباهى بينهم بصولاته وجولاته معى ، كما علمتُ كذلك أن زوجى العزيز قد بدأ يكرر نفس اللعبة مع طالبة جميلة أخرى لديه لا ترغب فى الزواج منه ، لكنها لا تمانع فى التساهل معه مقابل رعايته لها دراسيّا ! . .

وما دفعنى لأن أكتب إليكَ هذه الرسالة ـ رغم علمى بما سوف ينالنى منك من لوم شديد ، وربما أيضًا الشعور تجاهى بالاحتقار ـ هو أننى الآن حامل فى شهرى الثالث ، وقد فكرتُ بجدية فى إجهاض نفسى ووافقنى زوجى على ذلك ، لكننى أرجع فأرى ذلك ذنبًا عظيمًا . . وأتساءل على الناحية الأخرى : لو أننى احتفظتُ بالجنين ، كيف سأواجه زوجة

أستاذى التى أصبحتْ الآن صديقة لأمى ، وتعتبرنى ابنة لها؟! . . وكيف سأتصرف مع أمى ؟! . . وماذا أقول لها ولكل من حولى؟! . .

صحيح أننى زوجة شرعية . . لكن زوجى قد هددنى بأنه إذا أعلنتُ زواجى منه فسوف ينكر أبوته لطفلى . . فماذا أفعل ؟ . . وفى النهاية فإن لَدَىَّ نصيحة لكل الأمهات ألا يفعلن مع بناتهن ما فعلتْهُ أمى معى . . فلقد دفعتْنى بغير قصد إلى الطريق الشائك . . واطمأنتْ إلى ذئب وضعتْنى معه فى غرفة واحدة !

●● ولكاتبة هذه الرسالة «المزعجة» أقول :

أرجو ألا تكونى قد اخترتِ إبلاغ زوجة أستاذكِ بزواجكِ الشرعى منه عن طريق نشر رسالتكِ هذه فى «بريد الجمعة» ، فالحق أننى قد شككتُ فى ذلك لبعض الوقت ، ولهذا فقد تعمدتُ التعمية على ملامح شخصيتكِ وشخصية أستاذكِ ونوع دراستكِ لكيلا تستخدمى «بريد الجمعة» فى تحقيق بعض أغراضك . . ويبقى بعد ذلك أن أناقش رسالتكِ ، وأن أرد على تساؤلاتكِ محاولاً بقدر الإمكان تحييد مشاعرى تجاهك . .

وأبدأ بأن أقول لكِ : إنه ليس لديكِ ما تخشينه كثيرًا من أمك إذا علمتِ بما أوقعتِ نفسكِ فيه من الارتباط برجل متزوج يكبركِ بحوالى ٣٥ عامًا فى زواج سرى لا يختلف كثيرًا عن علاقة العشق لافتقاده ركن الإشهار ، وهو من أركان الزواج الشرعى الأساسية ، ذلك أن من تحت

ابنتها على إظهار مفاتن جسدها وتحضّها على ارتداء ما تسمينه بالملابس الساخنة ، لن يتجاوز غالبًا رد فعلها لحمقكِ وتهوركِ واندفاعكِ إلى الارتباط بأستاذكِ المتزوج بغير علمها حدود اللوم الهادىء لك على عدم إشراكها معكِ فى تدبيركِ للارتباط بهذا الرجل ، وربما أبدتْ ـ ولها الحق فى ذلك ـ أسفها لتجاهلكِ لها فى هذا الأمر كله من البداية ، مع أنها لو علمتْ به وشاركتْ فيه فى الوقت المناسب لربما كانت قد استطاعتْ أن تحصل لك على شروط أفضل للزواج والارتباط بهذا الرجل !! أما خشيتكِ من مواجهة الآخرين بما فعلتِ فلا معنى لها أيضًا، ولا هى هَمٌّ حقيقى لكِ ينبغى التوقف عنده ، لأن من تفعل ما فعلتِ فى سنها الصغيرة هذه لا يتعذر عليها مواجهةَ أحد بما فعلتْ ، والمضى قُدُمًا فيه «مرفوعة الرأس»، وكأنها لم تأت أمرًا إِدًّا ولم تفعل ما تستحق اللوم عليه! . .

يبقى بعد ذلك ما يستحق التحسب له بالفعل ، وهو أن تعرف زوجة أستاذكِ بزواجكِ منه سرّا ، وتكتشف خديعتها الكبرى فيمن كانت تعدّها بمثابة الابنة الشابة لها ، وخديعتها الأكبر فى زوجها الأستاذ الجامعى الوقور الذى لا يتوانى عن التنويه بحبه لها فى كل مناسبة ، كما فعل معكِ فى حفل الكلية ، فهذا هو الهَمُّ الحقيقى الوحيد الذى ينبغى أن تتحسبى له فى هذه القصة المؤسفة كلها ، والحق أننى لا أقصد بهذا الهم حرجك الإنسانى معها ولا إحساسكِ تجاهها بالذنب ، أو شعوركِ الشديد بالخجل منها والإشفاق عليها ، لأنكِ ـ وا[illegible] لله ـ لا تعانين

من مثل هذه المشاعر «التّرَفِيَّة» التى يشقى بها آخرون من البشر ، وإنما أقصد به تحسبكِ لما سوف يترتب على انكشاف أمر زواجكِ من زوجها من زوابع وعواصف فى حياته العائلية، وما سوف يتعرض له هو من ضغوط إنسانية شديدة من زوجته وأهله قد تفلح فى النهاية فى دفعه للتخلص من ارتباطه بكِ ، وهو ما يستحق أن تستعدى له بالفعل من الآن ، خاصة وقد أثبتتْ لكِ التجربة أن زواجه منكِ لم يكن تتويجًا لحب حقيقى قهّار لا يملك معه إرادته ، وإنما كان ـ كما أتصور ـ استجابة متسرعة لرغبة حسية عارمة فيكِ ، والوسيلة الوحيدة التى أتيحتْ له لقضاء وطره منكِ بعد أن تعذر عليه قضاؤها بغير الزواج منكِ ، بدليل أنه ـ وقد نال منكِ مآربه وهدأتْ رغبته فيكِ ـ قد بدأ يكرر نفس اللعبة مع زميلة أخرى لكِ أكثر تساهلاً معه منكِ وأقل تدبيرًا وتخطيطًا ، فلعله قد ركز عليها نظراته فى المحاضرة ، وكأنما قد خلا المدرج إلا منها . . ولعله يبكى الآن بين يديها طالبًا الزواج العرفى بها إذا تعذر عليه بلوغ مأربه منها بغير ذلك. والحق أيها السيدة الصغيرة أننى لا أشعر تجاهكِ بأى تعاطف، ، ولا أراكِ ـ كما حاولت إقناعى فى رسالتكِ ـ ضحية لأستاذكِ ، ولهذا لم أستجب لرغبتكِ فى أن يكون عنوانها هو «ضحية أستاذها» كما رغبتِ ، وإنما أنتِ ضحية فساد القيم الأخلاقية السائدة فى مجتمعكِ العائلى، وضحية غياب الدين فى حياتكِ الأسرية وخفوت صوته فى دائرتها. . كما أنكِ ضحية غياب الأب عن القيام بدوره الجوهرى فى توجيهكِ وحثكِ على الالتزام بالقيم الدينية والأخلاقية . .

فلا عجب فى أن تعدلى عن الحجاب والاحتشام فى مظهركِ عقب فشل تجربتكِ الأولى، لأن حجابكِ لم يكن عن اقتناع داخلى لديكِ ولا نابعًا من وجدانكِ الدينى ، وإنما كان وسيلة لإغراء ذلك الشاب بالتقدم لخطبتكِ ، فما إن فشل التدبير والتخطيط حتى رجعتِ عنه بلا ندم ، غير أنكِ لم تستفيدى للأسف من درس التجربة الأولى، ولم تتعلمى حكمتها ، وهى أن الشاب قد يعجب فى بعض الأحيان بالفتاة الجميلة المتحررة فى ملابسها ومظهرها . . لكنه لا يرتبط غالبًا إلا بمَنْ يثق فى قيمها الأخلاقية والدينية، ويشعر بأنه يستطيع أن يأمن على شرفه وعرضه معها . . وبدلاً من استيعاب هذا الدرس الثمين والاهتداء بهديه فى حياتكِ بعد ذلك، فلقد شعرت ـ للعجب ـ بأن كرامتكِ قد جُرحت ، وأنكِ قد استردذْتِ بعضها حين تأكدتِ من سطوة تأثيركِ على أستاذك، فلقد سعيتِ أنتِ إليه فى مكتبه بعد أن لاحظتِ افتتانه بكِ ، ورحبتِ بإعطائه رقم تليفونكِ ، وتهللتِ لاتصالاته التليفونية الطويلة معكِ ، وهى الاتصالات التى لم تعترض عليها أمكِ ـ للأسف ـ استمرارًا لسياستها الخاطئة المتساهلة فى تربيتكِ ، واستفدتِ من خبرة زوجته فى التعامل معه فى الضغط عليه لكى يتزوجكِ ، وقبلتِ ـ وهو الأخطر ـ الزواج من رجل متزوج وله أبناء ، فكيف يمكن اعتباركِ ضحية بريئة من كل إثم لسوء توجيه والدتكِ أو لمثل هذا الرجل ؟ . .

صحيح أنه يتحمل الجانب الأكبر من المسئولية الأخلاقية عما انتهى إليه مصيركِ الآن وأنتِ فى الثانية والعشرين من عمركِ كزوجة سرية

لرجل يكبرها بـ ٣٥ عامًا ، وصحيح أيضًا أنه كان خليقًا به أن يتعفف عن مغازلتكِ وملاحقتكِ والتحرش بكِ ، احترامًا لنفسه وموقعه كأستاذ جامعى ولوضعه العائلى كزوج وأب ، لكن مسئوليتكِ أنتِ أيضًا عن هذا المصير المؤسف جسيمة . . فلقد سعيتِ إليه فى مكتبه بذرائع مختلفة لإحكام سيطرتكِ عليه بعد أن علمتِ عنه ضعفه معكِ ، ولم يكن سعيكِ إليه فى مكتبه سوى دعوة ضمنية له لمغازلتكِ والمضى قُدُمًا فى هذا الطريق الشائك. والرجل أو المرأة لا يرمى أحدهما غالبًا سهامه ، ويواصل الرماية بلا كلل إلا إلى مَن يأنس فيه ترحيبه ـ ولو كان صامتًا ـ بهذه السهام الموجهة. . ولولا ذلك لانثنى عن غايته إذا وجد أن سهامه لم تُصِب الهدف .

ولقد نشرتُ رسالتكِ على الرغم من استيائى لها عسى أن يستفيد بأخطائها غيركِ من الشباب والأمهات والآباء ، لأننا نتعلم من أخطائنا بأكثر ما قد نتعلم أحيانًا من اختياراتنا القويمة فى الحياة ، ولقد تأملت طويلاً ما حكيتِ عنه عما كنتِ تشعرين به من سعادة شريرة وأنت تمارسين خداع زوجة هذا الرجل التى تعاملتْ معكِ بحسن نية ولم تسىء إليك فى شىء ، كما توقفتُ أيضًا أمام ما كنتِ تشعرين به من سخرية داخلية تجاهها حين تحدثكِ بسلامة طويتها عما يكنه لها زوجها من حب . . فشكرًا لكِ لأنكِ قد أطلعتِنا على مثل هذا الجانب السادى المظلم من النفس البشرية ، وأرجو أن تكونى قد تطهرتِ من بعضه حين علمتِ بأن هناك الآن مَن لعلها تشعر بمثل هذه السعادة الشريرة فى

باطنها، وهى ترى زوجكِ يتودد إليها وتحس بانتصارها القريب عليكِ . .

وفى النهاية فإنى أقول لكِ : إنكِ يجب أن تصارحى أمكِ على الفور بما فعلتِ بحياتكِ ، وأن تواجهى الأمر الواقع وتتحملى عواقبه بشجاعة، وتحاولى تحجيم خسائره . . فالحق أن زوجكِ بهذا الرجل محكوم عليه بالفشل والانهيار ـ طال العهد به أو قصر ـ لأنه زواج غير متكافىء من ناحية السن ونواح أخرى ، ولأنه زواج مؤقت كالنزوة العابرة التى ترشح صاحبها بعد انقضائها للندم بأكثر مما ترشحه للسعادة ودوام التجربة .

أما الجنين الذى أثمرَتْهُ هذه النزوة الخرقاء فى حياتكِ ، فإن تهديد زوجكِ لكِ بإنكار أبوته له إذا أعلنتِ زواجكِ منه ، ليس سوى محاولة مكشوفة للضغط عليكِ لمنعكِ من إعلان هذا الزواج ، وتخويفكِ من عواقب ذلك، لأن زواجكِ منه مادام شرعيًا وموثقًا فإن إنكاره لأبوة هذا الجنين تهديد أجوف لا يُعْتَدُّ به كثيرًا، ولن يغير من الواقع شيئًا. . وأما عن تفكيركِ فى مصير هذا الجنين الذى لم يكمل بعد شهره الثالث ، فإنى أنقل لك هنا ما جاء فى كتاب «بيانٌ للناس» الصادر عن الأزهر الشريف فى مسألة الإجهاض ، وملخصه: أن الحمل متى استقر فى الرحم لمدة ١٢٠ أو أربعة أشهر فقد ثبت بالقرآن والسنة نفخ الروح فيه ، وبذلك يصير إنسانًا له حقوق الإنسان الكاملة ، حتى لَتَجُوز له الوصية والوقف عليه والميراث بعد موت مورّثه ، وبذلك يكون من النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق . . ويحرُم إجهاضه إلا إذا دعتْ إلى ذلك ضرورة

قهرية ، كأن يكون بقاء الحمل ضارًا بحياة الحامل . . إلخ . أما قبل نفخ الروح فيه فللفقهاء أربعة أقوال فى الحكم عليه :

الأول : الإباحة مطلقًا من غير توقف على وجود عذر ، وهو قول فقهاء الزيدية ، ويقرب منه قول فريق من فقهاء الحنفية ، وإن قيّده بعضهم بوجود العذر ، وهو أيضًا ما نقل عن بعض فقهاء الشافعية وما يدل عليه كلام المالكية والحنابلة .

والثانى : الإباحة لعذر ، والكراهة لعدم وجود العذر ، وهو ما تفيده أقوال فقهاء الأحناف وفريق من الشافعية .

والثالث : الكراهة مطلقًا ، وهو رأى بعض فقهاء المالكية .

والرابع : الحرمة، وهو الرأى المعتمد عند المالكية .

فحاولى أيتها السيدة الصغيرة أن تتعلمى درس التجربة وتصححى الأوضاع الخاطئة فى حياتكِ ، وتبدئى صفحة جديدة خالية من مثل هذه المغامرات الطائشة والأفكار الخاطئة عن الحياة والحب والزواج .

* * *




الشَجَرَةُ الجدْبَاء

أنا سيدة على وشك أن أبلغ الثلاثين من عمرى . . لى أخ واحد ، وقد نشأنا يتيميْن فلم نَرَ أبانا الذى توفى فى طفولتنا المبكرة ، ولم نعرف سوى أمنا التى سرعان ما تزوجتْ ونحن طفلان صغيران زواجًا عرفيّا ، وكادت تنجب من زوجها لولا أنها أجهضت نفسها فى اللحظة الأخيرة . . وطُلقت منه ، وعاشت بلا زواج . وعلى الرغم مما قد يوحى به ذلك من أمومة وعطاء ، فلقد كان واقع الحال مختلفًا كثيرًا عن هذا الإيحاء ، فلم نشعر ذات يوم بدفء حضنها ، ولا أتذكر أنها أخذتنا ذات مرة فى نزهة أو إلى المصيف ، وإنما كان كل همها هو العمل وكسب النقود . . ولا اعتراض لنا على ذلك، لولا أنها فى سبيل ذلك قد قطعتْ كل علاقاتها بأقاربنا ومعارفنا ، فنشأنا كأننا ورقتان فى شجرة جدباء لا أوراق لها ، وكان عذرها الوحيد فى ذلك هو أنه لا وقت لديها لمثل هذه العلاقات . . وأيضًا لأنها كانت تستأثر لنفسها بما تكسبه وترى ذلك حقّا مطلقًا لها دوننا ، وكان قولها الدائم لنا : إنها قد أدخلتْنا المدارس لكى

يقول عنها الناس إنها ـ وهى الأرملة الوحيدة ـ قد عرفتْ كيف تربى أبناءها بأفضل مما يفعل بعض الرجال .

ومضت الحياة بنا بخيرها وشرها ، وخَلَتْ دائمًا من حنان الأم ودفء المحبة . . وحفلتْ بالمشاكل التى تفتعلها معنا لأتفه الأسباب ، وبالقسوة الشديدة علينا ، إلى أن أنهينا دراستنا وعملنا . . وبدأ كل منا يتطلع لأن تكون له حياته الخاصة . . وارتبط أخى بفتاة رغب فى الزواج منها ، فكان يوم خطبته مناحة عند أمى لأنه ليس من العدل ـ كما قالت ـ أن تنفق على ابنها طوال العمر وتربيه، ثم تجىء فتاة غريبة لكى تأخذه على الجاهز ! . . وكانت فترة خطبة أخى فترة معاناة شديدة وجهاد رهيب لاستكمال مشوار الزواج ، أَكْثَرَتْ خلالها من افتعال المشاكل مع خطيبته وأهلها إلى أن نجح بمعجزة فى إتمام الزواج والاستقلال بحياته . أما أنا فلقد أذاقتْنى الأمرّين خلال فترة خطبتى مع أنها هى التى أحضرتْ لى العريس ووافقتْ عليه قبل أن ألتقى به ، ثم رأيتُهُ فوجدتُهُ إنسانًا ممتازًا، وكان دافعى الأول للارتباط به هو رغبتى فى الخروج من الجحيم الذى أعيش فيه معها . . وكالعادة ، افتعلتْ أمى المشاكل الكثيرة مع خطيبى وأهله خلال فترة الخطبة ، وحين اقترب موعد زواجى منه أصرتْ على فسخ الارتباط من أساسه ، وكان منطقها العجيب فى ذلك هو كيف تربى وتشقى فى تربية ابنتها ثم يجىء رجل غريب ويستمتع بثمرة شقاء السنين بعيدًا عنها !؟ وحين فشلتْ كل محاولاتها لإفشال هذا الزواج ولمستْ إصرارى على إتمامه ، جمعتْ كل ملابسى ـ التى اشتريتُها أنا من

مرتبى ـ وكل أشيائى الخاصة حتى الهدايا التى تلقيتُها من صديقاتى فى الجامعة وكل جهازى والأشياء التى اشتراها لى أقاربى الذين كانوا يعطفون علىّ وعلى أخى لعلمهم بقسوة أمى علينا، ثم وضعتْ كل ذلك فى غرفة وأغلقت عليه الباب بالمفتاح ، وخَيَّرَتْنِى بين فسخ هذا الارتباط أو الخروج إلى زوجى بلا شىء من حاجياتى ، إذ يكفيه ما سوف يستمتع به دونها من مرتبى !

وتزوجتُ على الرغم من ذلك . . وبدا بيتى خاليًا من جهاز العروس وأشيائها الخاصة أمام أهل زوجى ، ولَم تَدَعْنى ـ على الرغم من ذلك ـ لشأنى وإنما راحتْ الغيرة الجنونية تنهشها كلما لمستْ أننى وزوجى على وفاق ، بل وحاولتْ التفريق بيننا أكثر من مرة ، وهى تريدنى الآن أن أرجع للحياة معها فى مسكنها دون زوجى على أن ينفق هو علىّ وعلى أولادى ونحن مقيمون معها ، وقد فعلتْ مثل ذلك وأكثر مع أخى وزوجته ، حتى إنها تضرب زوجته أحيانًا وتسبها بأفظع السباب ، ونحن نتحمل أمنا فى صبر ونعجز عن فعل شىء معها .

ولقد أعدتُ بعد زواجى علاقتى بالأهل والأقارب التى قطعَتْها هى ، وأصبحتُ أستقبلهم فى بيتى وأزورهم فى بيوتهم ، كما أزور حماتى وأهل زوجى ، وكل ذلك يقتلها لأنها لا تحب أحدًا على وجه الأرض ، وقد خيّرتْنى فى النهاية بين أن أعرفها وحدها وأقطع علاقاتى بالآخرين جميعًا أو العكس . . فاخترتُ العكس ، لأننى لا أستطيع أن أحيا فى الدنيا وحيدة تمامًا كالفرع المقطوع من الشجرة ، ولا أريد لأبنائى أن ينشأوا

منعزلين عن الناس ومحرومين من العلاقات الأسرية والاجتماعية كما نشأنا نحن . . والمشكلة الآن هى أن أمنا تقطع صلة الرحم بيننا وبينها وتحارب أخى فى رزقه وعمله على الرغم من وفائه لها وحرصه عليها . . وإعطائه لها مبلغًا شهريّا من عرقه وكَدِّه وهى التى لا تحتاج إلى أية نقود ، ولديها شقة تمليك على أعلى مستوى . . وعلى الرغم أيضًا من أنها قد طردتْهُ من شقة جدى التمليك هو وزوجته واستأثرتْ بها لنفسها ، إلى جانب مسكنها لكيلا تستمتع بها «الغريبة» ـ كما تقول . . وقد قطعتْ صلتها بى على الرغم من محاولتى استرضاءها ، وذهبتُ إليها للتفاهم معها فأغلقتْ الباب فى وجهى أنا وزوجى ، واتصلتُ بها تليفونيّا فأغلقتْ السكة أيضًا فى وجهى . . وحاولتُ أن أرسل إليها الوسطاء فرفض الجميع التوسط بينى وبينها لقسوتها وغلظتها معهم . أما أكثر ما آلمنى وجرح قلبى فهو أن لَدَىّ ابنًا معوّقًا عمره ٤ سنوات ، والله سبحانه وتعالى وحده يعلم كم نقاسى من شقاء ومصاريف ومعاناة نفسية فى علاجه . . فهل يرضيك بعد ذلك يا سيدى أن يَبْلُغَنى عن أمى أنها ـ سامحها الله ـ شامتة فى مصيبتى بهذا الابن المعوّق ، وأنها تقول : إنه جاء إلى الحياة معوّقًا استجابة من الله لدعائها علىّ أيام زواجى حين قررتُ أن أتركها وحدها وأجرى وراء رجل غريب لكى نستمتع بحياتنا بعيدًا عنها ! ! هل يرضيك هذا يا سيدى ؟ . . وبماذا تنصحنى أن أفعل مع أمى وأنا لا أريد منها شيئًا سوى المعاملة الطيبة وعدم قطع صلة الرحم ؟

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

لابد أن نعترف بما يقوله بعض علماء النفس المحدَثين ـ خاصة البروفيسور الأمريكى «كولز» ـ من أن هناك قلة من الأمهات معظمهن ممن تفرغن لتربية أبنائهن عقب ترمّلهن أو طلاقهن ، ينطبق عليها وصف العالم الأمريكى لهن بأنهن «أمهات متوحشات». يتسمن بالأنانية المفرطة فى علاقتهن بأبنائهن الذين عكفن على تربيتهم وحيدات ، وتتملكهن رغبة لا عقلانية فى امتلاكهم للأبد والاستئثار بهم دون الآخرين ، خاصة لو كان هؤلاء «الآخرون» هم شركاء الحياة. . لابد أن نسلم بهذه الحقيقة المفزعة لكى نستطيع التعامل معها وتفادى الأشواك المحيطة بها بقدر الإمكان ، ولو أنكِ راجعتِ يا سيدتى تصرفات والدتكِ معكِ ومع شقيقكِ قبل زواجكما وبعده لأدركتِ أن كثيرًا من السمات المميزة لهذه النوعية من الأمهات تنطبق إلى حد كبير على والدتكِ ، وهى :

* قوة الشخصية ونزوعها للهيمنة الكلية على الأبناء ، والاعتماد الكلى على النفس فى مواجهة الحياة دون إعطاء قدر كبير من الاهتمام للعلاقات الإنسانية بصفة عامة .

* الأنانية ، كنتيجة جانبية للإفراط فى الاعتماد الكلى على النفس فى مواجهة الحياة ، حيث يقوى الإحساس بالذات لدى هذه النوعية من البشر وبكل ما يرتبط بها ، فتميل للأخذ دون العطاء، وتُغَالِى فى تقدير الأشياء والماديات أكثر من غيرها .

* الاعتقاد الراسخ الخاطىء بأن الأبناء « ملكية» خالصة للأم يحق لها أن تفعل بهم ما تشاء ، ومن حقها أن تنفرد وحدها دون العالمين بعائد «استثمارها» فيهم، مقابل ما أنفقتْهُ عليهم من مال وما بذلته من جهد لم يساعدها فيه أحد فى تربيتهم وتنشئتهم .

* النظر بعين الشك والارتياب إلى كل من يحاول اجتذاب هؤلاء الأبناء إليهم ، والميل الخفى لإفساد علاقاتهم بمن يحتمل أن ينجذبوا إليهم دونها ويبتعدوا عنها بسببهم .

* الكراهية المتأصلة لمن نجحوا فى اجتذاب هؤلاء الأبناء الذين تمتلكهم الأم ملكية مطلقة لها ، واستثمرتْ فيهم من قبل سنوات عمرها ووحدتها ومالها .

* التراوح بين الرغبة فى استمرار التصاق الأبناء بالأم ليستمروا ـ كعهدهم السابق معها ـ خاضعين لها ومنصرفين كليّا بمشاعرهم واهتمامهم بها ، وبين ما يشبه «الكراهية» ـ نعم الكراهية ، ولا حرج فى التصريح بذلك ـ لهؤلاء الأبناء أنفسهم إذا استمروا فى «جحودهم» وتمردهم وتفضيلهم لأحضان شركاء الحياة عليها .

هذه هى بعض السمات المشتركة بين هذه القلة من الأمهات . . قد تتجلى لدى البعض واضحة ، وقد يتخفى بعضها وراء ستار . . وأحسب أنها كلها تكاد تكون مجتمعة فى شخصية والدتكِ التى حاولتْ أكثر من مرة إفساد خطبة ابنها وزواج ابنتها ، وما زالت تحلم بعودة الابنة للحياة معها دون زوجها . .

فأما شماتتها ـ سامحها الله ـ فى رزئكِ بابن معوّق ـ أعانه الله على أقداره وأعانكم معه ـ فليست سوى إفراز سيىء لكل هذه المركبات النفسية المعقدة والمتداخلة فى أعماقها ، ذلك أنها لم تغفر لكِ بعد «جريمة» تركِكِ لها بعد أن أنفقتْ العمر ـ كما تتصور ـ فى تنشئتكِ ، فما أن ظهر رجل غريب فى أفق حياتكِ حتى ركلتْ ـ فى تقديرها ـ كل «عطائها» السابق لك وهرولتْ وراءه ، وسعدت ـ للأسف ـ بحياتكِ بعيدًا عنها . . غير أنها لا تعلم أن الله سبحانه وتعالى إنما يمتحن مَن يشاء بما يشاء من اختبارات الحياة لحكمة تخفى على الأفهام ، وأنه لا شأن لدعائها عليكِ بمجىء ولدكِ للحياة محكومًا بأقداره ، ذلك أنه : ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1] كما يقول لنا سبحانه وتعالى ، وليس من القساة وغلاظ القلوب وقاطعى الرحم والبعيدين كل البعد عن ربهم وتعاليم دينهم . أو لعلها تعلم ذلك لكنها تغالى فى كيدها لكِ بهذا الزعم المفضوح . . وعلى أية حال فليس أمامكِ سوى أن تتحملى أقداركِ معها وتواصلى الحرص على حياتكِ الزوجية وأبنائكِ وصلة رحمكِ بالأهل والأقارب ، وألا تيأسى ـ على الرغم من ذلك ـ من محاولة وصل رحمكِ بأمكِ ، وتتحملى صابرة فظاظتها وقسوتها وجفاء طبعها ، عسى أن ترقق الأيام من قسوة قلبها ذات يوم قريب أو بعيد ، أو يأتيها برهان ربها فى حينه فتدركُ كم كانت قاسية وظالمة لابنيْها ، فتسعى لتصحيح علاقتها بهما فى الأجل القريب . . أو لعلها تتقبل حقائق الحياة ذات يوم غير

---

(١) سورة المائدة ، من الآية ٢٧ .

بعيد، فتسلّم بما يسلم به العقلاء والرحماء فى كلِ مكان وزمان ، من أنه لا تناقض هناك بين وفاء الأبناء لأمهم وبين استقلالهم بحياتهم وسعادتهم مع شركاء الحياة . . وهذا على الأقل هو الأمل الذى لا تملكين أنتِ وشقيقكِ سوى التعلق به إلى النهاية .

* * *

السعادةُ الخفيّة

أنا سيدة فى أوائل الخمسينيات من عمرى . . تزوجتُ وأنا صغيرة، وأنجبتُ أربعة أبناء ذكور سعدتُ بهم كثيرًا . . لكن روحى كانت تهفو دائمًا إلى أن تكون لى بنت تشاركنى الاهتمامات النسائية اللذيذة، وتحنو علىّ وأحنو عليها ، فحملتُ من جديد . . واستجاب الله لدعائى فجاء مولودى الخامس بنتًا طرتُ بها فرحًا وسعد بها أبوها وإخوتها الذكور كثيرًا، وأصبحتْ هذه البنت هى «مصباح البيت» الذى يضيئه بابتسامتها ورقتها وظرفها . . فنالت منا كل الحب والتدليل اللذيْن لم ينلهما أحد من إخوتها بهذا القدر من قبل .

وكبر الأبناء وتقدموا فى مراحل التعليم . . وكبرتْ ابنتى وتقدمتْ فى مدارج الحياة، فأصبحتْ صديقتى الأولى ، ورفيقة كل أوقاتى ، فالأبناء يخرجون إلى أصدقائهم وحياتهم ومشاغلهم . أما ابنتى فهى معى دائمًا ، وما أن ترجع من المدرسة ـ ثم الكلية فيما بعد ـ حتى نجلس معًا ونقوم بالواجبات المنزلية ، أو نشاهد مسلسلات التليفزيون . . أو نتحدث فى

كل الأشياء . . أو نرتب جدول أعمال البيت معًا . . ونحدد متى نقوم «بتنفيض» البيت . . ومتى نضع ملابس الشتاء فى الدواليب ، ونُخرج ملابس الصيف ، ونفعل كل ذلك يدًا بيد مهما استعنا بمن تساعدنا فيه . . وفى مواسم الامتحانات تسهر «حبيبتى» للمذاكرة . . وأسهر إلى جوارها أعد لها سندوتشات الطعام وأكواب الشاى، وأنتظر عودتها من امتحان كل مادة بلهفة وخوف ، فأطمئن حين أراها مبتهجة ومتفائلة ، وأشعر بالقلق حين أراها ساهمة ومكتئبة . . وحين تظهر النتيجة وتنجح تكون سعادتى طاغية . أما فى الصيف فإن الأوقات تطول بنا . . فندخل المطبخ معًا لإعداد طعام الغداء، ونجلس أمام التليفزيون بالساعات ، ويطول بنا السهر كل ليلة، ونخرج معًا لشراء ما تحتاج إليه من فساتين وأحذية . . إلخ .

ومضت بنا رحلة الحياة وتَخَرَّج الجميع فى كلياتهم ، وبمجرد تخرج ابنتى فى كليتها تقدم إليها مهندس شاب من جيراننا يشهد له الجميع بالأدب والاحترام . . وتم عقد القران سريعًا، وسعدتْ به ابنتى ورحبتُ به أنا واعتبرتُهُ ابنى الخامس، وأصبح ينادينى بـ «ماما» . . فأحسستُ أن قلبى قد انقسم نصفين : نصف لابنتى الحبيبة، والآخر لخطيبها الشاب . . ولا مكان بعد ذلك فى قلبى لحب آخر ! وشُغلتُ مع ابنتى بإعداد جهازها . . وخرجنا معًا عشرات المرات إلى المحلات التجارية لشراء مستلزمات حياتها الجديدة، وكانت فترة شراء الجهاز من أكثر فترات الاقتراب والتلازم بيننا . . وحرصتُ على تلبية كل طلباتها وشراء

أحسن ما تسمح إمكانياتنا المادية به . . وانتهى كل شىء وتحدد موعد الزفاف . . وكانت ليلة سعيدة من ليالى العمر تألقتْ فيها ابنتى بجمالها وسعادتها . . وانتقلتْ إلى بيتها الجديد .

وتَلَفَّتُّ أنا حولى بعد أيام من زواجها فلم أجد نصف قلبى فى ضلوعى . . وأصابنى الجنون . . وبدأتُ أتمنى استعادة ابنتى التى فقدتُها بالزواج . . وأرجو ألا تتصور أنى أردتُ حرمانها من زوجها . . فليس الأمر على هذا النحو أبدًا . . لكننى فقط قد استوحشتُ حياتى بعد انتقال ابنتى الحبيبة إلى بيت زوجها . . وبدأتُ أتمنى أن ترجع للإقامة معى فترات طويلة وليس فى زيارات قصيرة تنتهى بأن يدعوها زوجها للخروج فتستجيب له «صاغرة» وتمضى معه !

وشيئًا فشيئًا بدأ يحدث بينها وبين زوجها ما يحدث بين أى زوجيْن شابيْن لم يتعود كل منهما بعدُ على طباع الآخر وشخصيته ، من خلافات بسيطة ومشاجرات صغيرة، ووجدتُنى - وأعترف لك بذلك - أسعد سعادة خفية لا يدرى بها أحد بما يقع بينهما من هذه المشاجرات لكى يحضرا إلىّ للفصل فيها، وفى كل مرة ياتيان إلىّ فى أمر مماثل أطيل بقاءها معى لأطول فترة ممكنة . . وأطلب من زوج ابنتى أن يتركها معى لفترة حتى تهدأ أعصابها . . وكانت ابنتى متعاطفة معى على طول الخط . أما زوجها فكان يتجاوز عن إهاناتى له ، ويفهم ما أفعل ولا يوافقنى فيه . . لكنه لا يعترض عليه كذلك . . ثم بدأتُ ألح على ابنتى وزوجها فى أن يكثرا من زيارتهما لى . . وكانت أسعد أوقاتى هى وقت بداية الزيارة،

وأتعسها عندى هى نهايتها حين يَهُمّانِ بالانصراف، فأشعر بأن روحى تنسحبُ منى، وأن هذا الشاب يخطف ابنتى ويبتعد بها عنى .

وبعد فترة أخرى طلبتُ منه أن تزورنى ابنتى يومًا بعد يوم ، فاعتذر عن عدم الاستجابة لرغبتى هذه بحجة مشاغل العمل وضيق الوقت، واستأتُ لذلك فى أعماقى وترصدتُ أول مشكلة وقعتْ بينهما بعد ذلك، فأصررتُ على بقاء ابنتى معى لفترة طويلة حتى تهدأ أعصابها ، ويتعلم هو كيف يعامل زوجته باحترام. . ورفضتُ عودتها إلى بيته بإصرار بالرغم من اعتذاراته وتوسلاته. . وتبعتْنى ابنتى فى موقفى من زوجها، فتجرأتْ عليه بإهانته كما كنتُ أفعل معه، وبقيتْ ابنتى معى. .

وطالت فترات وجودنا معًا وأحاديثنا وسهرنا أمام التليفزيون كما كنا نفعل فى أيامنا الجميلة. . وكلما سعى زوجها لاستعادتها تصديتُ له وأَهَنْتُهُ وطالبتُهُ بما لا يستطيع القيام به، حتى يئس منى ومنها تمامًا وابتعد، ولم يعد يكرر هذه المحاولات، أو يتصل بى أو بابنتى. . إلى أن علمنا فجأة أنه سافر للعمل فى دولة عربية بدون أن يُخطرنا بذلك أو يسعى لاستعادة ابنتى. . ومضتْ الشهور بلا أى اتصال من جانبه. . وبدأتُ أشعر بابنتى، وأراجع نفسى فيما حدث. .

ثم هاجمنى المرض منذ أسابيع فشعرتُ بأننى قد ظلمتُ هذا الشاب كثيرًا وحرمتُهُ من ابنتى وحرمتُها منه، وزاد من شعورى بالذنب ما بدأتُ ألاحظه على ابنتى من وجوم واكتئاب. . ولهذا فإنى أريد أن أخاطب هذا

الشاب من خلال بابكَ الذى يحرص على قراءته ، وأرجوه أن يصفح عما فعلتُ به ويعيد علاقته بابنتى قبل أن أقابل وجه رب كريم ـ سبحانه وتعالى ـ يسألنى عما وقع منى . . ومع استعدادى الكامل لفعل أى شىء يُرضى هذا الشاب ويعوضه عما فات . . فهل يقبل هذا النداء ؟

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

الفرق بين الحب السوى والحب المريض، هو أن الأول لا يتجاوز صاحبه القصد فى سعيه إلى الإشباع العاطفى من المحبوب، ولا يغفل خلال ذلك عن صالحه وسعادته . . فإذا تعارض هذا السعى مع ما فيه صالح المحبوب ؛ رَدَّ نفسه عنه وتَصَبّرَ على بعض الحرمان منه . أما الحب الأنانى المدمر فإنه لا يراعى فى هذا السعى مصلحة المحبوب ولا سعادته ولا حقوق الآخرين عليه ، فيضر به ضررًا بالغًا من حيث لا يرجو ولا يريد، ويكون وَبَالاً عليه بدلاً من أن يكون زادًا له وواحة يهجع إليها .

وحب الأمهات لأبنائهن ـ كما فطرهن الله سبحانه وتعالى عليه ـ هو بالضرورة من ذلك النوع السوى النبيل الذى يقوم على العطاء لهم والتضحية من أجلهم والتصبّر على شىء من الحرمان العاطفى منهم، حين يشبّون عن الطوق وتتفتح قلوبهم ومشاعرهم لشركاء الحياة، وتصبح لهم حياة مستقلة عن حياتهم السابقة فى كنف أمهاتهم وآبائهم .

وأنتِ يا سيدتى قد غاليتِ فى الالتصاق النفسى بابنتكِ المحبوبة، حتى كأنما قد نَسِيَتْ القابلة أن تقطع الحبل السُـرِّى الذى يربط بينكما

عند ولادتها . . وجاوزتِ حد القصد والاعتدال فى رغبتكِ فى الاستمتاع بقربها منكِ والاستئثار بها دون زوجها . . وبدلاً من أن تحاولى تعويض افتقادكِ العاطفى لها بعد زواجها بتدريب النفس على القبول بحقائق الحياة التى لا مفر من القبول بحقائق الحياة التى لا مفر من القبول بها . . وترشيد مشاعركِ تجاهها، واستبدال وجودها الفعلى فى حياتك «بحضورها» العاطفى فى قلبكِ ومشاعركِ، وسعادتكِ بسعادتها مع زوجها واستقرار حياتها . . سعيتِ بوعى ـ أو بغير وعى ـ إلى استردادها إلى حضانتكِ العاطفية من جديد، وتعاملتِ مع زوجها الشاب كما تتعامل الأم مع خاطف ابنتها وليس مع شريك الحياة الذى زَفَّتْهَا إليه الأم وتمنتْ لها السعادة معه، وشعرتِ بالسعادة الخفية لأول بادرة خلاف وقعتْ بينها وبينه، واندفعتِ وراء رغبتك الأنانية فى الاستئثار بابنتكِ دون زوجها، فنفختِ فى نار الخلافات الصغيرة بينهما بدلاً من إخمادها والتعامل معها بحكمة الأم الراغبة فى استقرار حياة ابنتها ونجاح زواجها.

وكل ذلك ليس من الحب الحقيقى لابنتك فى شىء ، وإنما هى الرغبة القهرية لديكِ فى الاستمرار فى امتلاك ابنتكِ والسيطرة على حياتها والتحكم فيها .

ولأن الحق والباطل قد ينبعان ـ أحيانًا ـ من نبع واحد فى النفس البشرية كما يقول لنا شاعر الألمان الأعظم «جوته»، فإن القلب الذى نبع منه هذا الحب الطاغى لابنتكِ هو أيضًا الذى نبعتْ منه تلك الرغبة غير

الرشيدة فى الاستئثار بها دون زوجها لأطول وقت ممكن ، ولو أدى ذلك ـ كما حدث ـ إلى تدمير حياتها الزوجية .

فلا عجب إذن فى أن يضيق زوج ابنتكِ باغتصابكِ لها منه وحرمانه منها . . ورفضكِ لقبول اعتذاراته وتوسلاته لإعادتها إليه ، فيبتعد عنكما تاركًا للأيام أن تعلمكما معًا ما لا تعلمان . . فإذا كانت ابنتكِ قد تعاطفت معكِ دائمًا على حساب زوجها ، وجَارَتْكِ فى التجرؤ على إهانته كما كنتِ تفعلين معه ، فلا عجب فى ذلك أيضًا . . لأنها بدلاً من أن تجد الأم التى تردها عن غيّها وترشدها إلى حُسن معاملة زوجها وما فيه خيرها وسعادتها ، قد وجدتْ مَن تسعد بتجرئها على زوجها وخلافاتها معه وهجرها له واستقرارها فى بيت أسرتها بدلاً من عش الزوجية .

وقديمًا استشهد الإمام «أبو حامد الغزالى» فى مقدمة كتابه «إحياء علوم الدين» ، وهو يتحدث عن فساد الأحوال فى زمنه ومسئولية رجال الدين والعلماء عن ذلك ، ببيت من الشعر يقول :

يَـا مَعْشَرَ الْـقُـرَّاءِ يَـا مِـلْـحَ الْـبَـلَـدْ

مَـا يُصْلِحُ الْـمِلْحَ إِذَا الْـمِلْحُ فَسَـدْ ؟

وعلى غرار ذلك أستطيع أن أقول لك أيضًا : ما يصلح البنت إذا الأم قدمت لها المثل السيىء فى معاملة زوجها بدلاً من المثل الصحيح . . خاصة إذا هى استسلمتْ لأهوائها ورغبتها فى امتلاك ابنتها دون

شريكها، بدلاً من أن تنبهها إلى واجباتها تجاهه وتعينها على الاستقلال النفسى والعاطفى عنها ؟!

إن مسئوليتكِ يا سيدتى عن تدمير علاقة ابنتكِ بزوجها كبيرة، وهى مسئولية قد بدأتْ منذ زمن طويل حين أسرفتِ فى تدليلها منذ صغرها وغمرْتِها بحبكِ وعطفكِ ، واعتبرتها «مصباح البيت» الوحيد بالرغم من وجود أربعة مصابيح أخرى فيه. . وغاليتِ فى تعويدها على الاعتماد النفسى عليكِ فى كل شىء إلى حد أن عجزَتْ عن التواؤم مع حياتها المستقلة عنكِ مع زوجها. . غير أننى أرى فى النهاية أن أخطاءكِ وأخطاء ابنتكِ لم تذهب كلها سُدًى بالرغم من كل شىء. . وأنكِ قد بدأتِ تدركين فداحة جناية حبكِ الأنانى لابنتكِ على زواجها وسعادتها ، كما أرى أن ابنتكِ قد بدأتْ هى الأخرى فى إدراك ذلك والتنبه له ، ولهذا فإنى أنشر رسالتكِ طالبًا من زوج ابنتكِ أن يقرأها جيدًا ويمعن التفكير فيما جاء على لسانكِ فيها. . وأن يتصرف وفقًا لما يستشعره منها من صدق ندمكِ وندم ابنتكِ على أخطائكما فى حقه. . راجيًا ألا يكون الوقت قد فات لإصلاح الأخطاء والتجاوز عنها .

***

الحظ العاثر

أنا سيدة أبلغ من العمر ٣٨ عامًا أعمل موظفة بإحدى الجهات الحكومية. . ولقد تزوجتُ عقب تخرجى من الجامعة، لكن زواجى لم يطل أكثر من عام واحد. . وبسبب كثرة الخلافات بيننا أرسل لى زوجى ورقة الطلاق، وانتهتْ صفحة زواجى به دون إنجاب.

وبعد فترة من طلاقى تزوجتُ بإنسان آخر، واكتشفتُ بعد زواجى منه أنه قد خدعنى وأخفى عنى أنه كان متزوجًا وله أبناء من زوجة أخرى، فشعرتُ بالكره الشديد تجاهه، وبعد ثمانية شهور من الزواج طلقنى زوجى الثانى، ولم أكن قد أنجبتُ منه، وعشتُ حياتى وحيدة فى بيت أسرتى. . ثم بعد عدة سنوات تقدم إلىّ رجل أرمل يشغل مركزًا مرموقًا ويتمتع بسمعة طيبة، رحلتْ زوجته عن الحياة، وتركتْ وراءها ثلاثة أبناء فى مراحل التعليم. . فتزوجتُ هذا الرجل الثالث وانتقلتُ إلى بيته، لكننى لم أشعر بالراحة مع أبنائه.

وبعد شهريْن من الزواج حملتُ منه، وعلى إثر خلاف بسيط مع أحد هؤلاء الأبناء عملتُ بمشورة أمى ورجعتُ إلى بيت الأسرة، وراحتْ أمى ترعانى خلال فترة الحمل، وراح زوجى يتردد علىّ فى بيت العائلة ويحاول إعادتى إلى بيت الزوجية بلا طائل. . ثم طلبتُ منه أن يدعنى فى بيتها إلى أن أضع مولودى، فقبل ذلك، ورزقتُ بطفل جميل شديد الشبه بوالده.

وعاد زوجى مرة أخرى يطلب رجوعى إلى بيته. . لكن أمى قالت لى: إننى لن أتحمل عناء رعاية طفلى وخدمة أبنائه فى الوقت نفسه، وبالتالى فإن عليه أن يدبر هو أمور بيته بنفسه فيُحضر لأبنائه شغالة أو طباخًا، ويدعنى مع طفلى فى بيت أسرتى ويتردد علىّ من حين لآخر.

واقتنعتُ بهذا الرأى، وطالبتُهُ بتنفيذه. . فرفضه رفضًا قاطعًا، وظل عامًا كاملاً يطالبنى بالعودة إلى بيته بلا يأس، ويرسل إلىّ مبلغًا شهريًا للإنفاق علىّ وعلى الطفل، وأنا أرفض العودة إلى بيته. . وأخيرًا ضاق بهذا الوضع فهددنى بالامتناع عن الإنفاق علىّ وعلى الطفل إذا لم أرجع إلى بيت الزوجية مع طفلى، لكننى لم أعبأ بتهديده، فنفذ وعيده بالفعل وامتنع عن إرسال المبلغ الشهرى إلىّ، ونصحتنى أمى برفع قضية نفقة ضده، ففعلتُ. . وما إن تسلم هو إعلان القضية حتى أرسل إلىّ ورقة الطلاق الثالثة. . ولكَ أن تتصور ما شعرتُ به من غُصَّة فى حلقى وألم يعتصر قلبى لهذا «الحظ العاثر»!

وعندما أفقتُ من شدة الصدمة، رحتُ أتودد إليه لكى يردنى إلى عصمته ووافقتُ على كل شروطه ـ ومنها شرط العودة إلى منزله . . لكنه رفض ذلك بإصرار . . ثم فوجئتُ به ـ بمجرد انتهاء عدتى ـ يتزوج من أخرى، فأصابنى خبر زواجه فى مقتل . . وتدهورتْ حالتى الصحية والنفسية، ويعلم الله وحده ما أنا فيه الآن من عذاب وألم وحيرة وندم، فقد مضى الآن عام طويل على زواجه لم يَرَ خلاله طفله مرة واحدة . . ومازالت القضايا قائمة بينى وبينه فى المحاكم، وإنى أعترف لكَ بأننى أخطأتُ . . لكن انتقام والد طفلى منى كان قاسيًا وشديدًا . . فانصحنى بما أفعل يا سيدى، حيث لم تعد نصائح أمى تُجدى شيئًا بعد أن فقدتُ الزوج والأب لطفلى والأمان !

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

أى «حظ عاثر» تتحدثين عنه يا سيدتى ؟ . . لقد تزوجتِ عقب تخرجك فلم يطل زواجك الأول أكثر من عام واحد، ثم تلقيتِ ورقة الطلاق بسبب كثرة الخلافات كما تقولين . . ومعنى أنكِ قد «تلقيتِ» ورقة الطلاق هو أنكِ قد هجرتِ بيت الزوجية ورجعتِ إلى بيت أسرتكِ قبل أن تتسلمى هذا الإشعار ببضعة شهور على الأقل، وبالتالى فإن زواجك الأول لم يَدُمْ عمليّا سوى أربعة أو خمسة أشهر على الأكثر .

ثم تزوجتِ مرة ثانية فلم يطل زواجكِ هذه المرة سوى ثمانية شهور . . ثم «تلقيتِ» ورقة الطلاق من جديد، مما يفيد أن عشرتكِ لزوجكِ الثانى

لم تدم كذلك سوى ثلاثة أشهر أو أربعة على أقصى تقدير . . ثم تزوجتِ من رجل ثالث لم يُخْفِ عنكِ من أمره شيئًا، ولم يكن هناك من جانبكِ أى سوء إدراك لحاجته إلى زوجة تعنى بأمره وتدير شئون بيته وتعوض أبناءه عن حرمانهم من أمهم. . فلم يَدُمْ زواجكِ منه عمليّا أكثر من شهريْن اثنيْن هما مجموع ما أمضيتِهِ فى بيت الزوجية. . ثم هجرتِ البيت لخلاف بسيط مع أحد أبنائه، ورجعتِ إلى بيت أسرتكِ واعتصمتِ به عامًا وسبعة شهور، رافضة العودة إلى زوجكِ، ومطالبة إيّاه بالخضوع لإرادتك فى الإبقاء على هذه الصيغة المبتكرة من العلاقة الزوجية، وهى صيغة «الزواج عن بعد» . . حيث تبقين فى بيت والدتكِ لترعاكِ وتحمل عنكِ عناء تربية طفلك. . ويتردد هو عليكِ من حين لآخر مع تحمّله لجميع مسئولياته المادية والاجتماعية عنكِ بغير أن تتجشمى عناء أى شىء من رعايةٍ لبيته وأبنائه ، أو اهتمام بأمره وبحياته كما ينبغى للزوجة الحقيقية أن تفعل مع زوجها .

وحين ينفد صبره عليكِ بعد عام طويل من الرجاء ومحاولات إقناعكِ بالعودة لبيت الزوجية، يهددكِ بالامتناع عن الإنفاق عليكِ وعلى طفلكِ، فلا تأبهين - وبثقة غير مفهومة فى النفس - بهذا التهديد، وتواصلين الإصرار على الهجر ورفض العودة، والرغبة فى إملاء الشروط . . فلا يملك الرجل فى النهاية إلا أن ينفذ وعيده ويتوقف عن الإنفاق عليكِ، فلا ترددين أنتِ لحظة واحدة فى المبادرة بفحش الخصومة وإقامة دعوى قضائية ضده بدلاً من أن يعيدك ما فعل إلى

رشدكِ ويقنعكِ بجدية إصراره على عودتكِ إلى بيت الزوجية، فتكون العاقبة الطبيعية لهذا الحُمْق والطيش والاندفاع هو «تلقى» ورقة الطلاق الثالثة.. وشكوى الزمان واتهام الحظ العاثر!.. فأى شكوى تحق لك.. وأى حظ عاثر تلومين؟!

أَوَ لم تتعلمى يا سيدتى شيئًا.. أى شىء من تجربة فشلكِ مرتين قبل هذا الزواج، فتحاولين التعامل بأى قدر من الحكمة مع الزوج الثالث الذى سَخَتْ به عليكِ الأقدار؟!.. ألم تحاولى تجربة أية حيلة جديدة لإنجاح الحياة الزوجية عدا الفرار من عش الزوجية بعد شهرين أو ثلاثة كل مرة، والعودة إلى كنف والدتك والعمل بنصائحها «الحكيمة»؟! وماذا كنتِ تنتظرين من زوجكِ أن يفعل حين يتلقى إعلان قضية النفقة المقامة منكِ ضده وقد صبر عليكِ عامًا وسبعة شهور طويلة بغير أن يستقر جنبه بك سوى شهرين فقط طوال هذه الزيجة التعيسة؟.. هل كنت تتوقعين أن يعتبر هذا الإعلام دليلاً جديدًا على أصالتكِ ونبلِ صفاتِك وكريم تسامحكِ معه و «صبركِ» عليه؟.. لقد قدمتِ له ياسيدتى - وبمشورة والدتك المجرِّبة -أسوأ مثل على الجحود والعدوانية والحمق وفحش الخصومة عند أول بادرة.. فأى عجب فى أن يرد هو على ذلك بطلاقكِ ورفض إعادتكِ إلى عصمته؟.. إنكِ تقولين: إنك قد رحت بعد «تلقيكِ» ورقة الطلاق الثالثة فى حياتكِ تتوددين إليه وتقبلين كل شروطه، ومنها شرط العودة إلى المنزل.. فكيف فات عليكِ أنكِ كنتِ تتحدثين عن قبولكِ لشرط العودة إلى المنزل وكأنه «تنازل» أو

«تضحية» كبرى تقدمينها إليه مقابل إعادتك إلى عصمته ، وليس كحق شرعى بديهى له أن تشاركيه حياته وتقيمى معه حيث يقيم ؟ . .

لقد فاض به الكيل وأدرك أنكِ لم تتعلمى شيئًا ولم تستفيدى من تجاربكِ الثلاث السالفة ، فيئس منكِ وانصرف إلى غيركِ ممن لا يعتبرن الحياة مع الزوج فى بيت واحد «تنازلاً» ولا تضحية، ولا يعتبرن مشاركة الزوج حياته ومسئولياته وهمومه شيئًا قابلاً للمناقشة لأنه من بديهيات الحياة الزوجية. . ولقد كان الفيلسوف الألمانى «شوبنهاور» يقول : إن الزواج هو اتحاد إرادتين من أجل إرادة أعلى .

وكانت «الإرادة الأعلى» التى يقصدها هى الطفل أو الأبناء الذين ينجبهما الزوجان ، فتتحد إرادتهما من أجلهم ومن أجل إسعادهم. . وأنتِ ـ فيما يبدو ـ لم تعرفى من الزواج سوى محاولة فرض إرادتكِ وحدها على من يرتبط بكِ من الأزواج. . ولم يعلمكِ الفشل مرتيْن تصحيح مفاهيمكِ الخاطئة للزواج فتعرفى أنه أخذ وعطاء، وحقوق وواجبات، وصبر ووفاق ، وأشياء أخرى كثيرة . . وأضعتِ من بين يديكِ هذا الرجل الثالث لأنك لم تدركى أبسط حقائق الحياة، وهى أنه لم يكن يبحث عن مغامرة عاطفية يزور فيها شريكته فى بيتها، حين يفيض به الشوق إليها. . أو يغنى تحت شباكها كما كان العشاق فى إسبانيا القديمة يفعلونِ. . أو يستأجرون الفرق الغنائية المحترفة لتغنى لها بدلاً منهم إذا كانوا لا يحسنون الغناء، وإنما يحتاج إلى شريكة لحياته وربة لبيته وأم بديلة لأبنائه، تشاركه أتراح الحياة وأفراحها. ولهذا فلقد رفض أن يقبل بصيغة

الزواج عن بُعد التى أردتِ فرضها عليه . . لأنها صيغة للأخذ فقط دون أى عطاء من جانبكِ . . ولأنها لا تحل له مشكلة حياته ووحدته مع أبنائه . .

ولستُ ألومه فى الحقيقة على إصراره على رفضه لها ولا على إصراره على عدم إعادتكِ إلى عصمته، على الرغم من أن هناك ضحية بريئة لهذا الإصرار . وإنما ألومه فقط على توقفه عن الإنفاق على هذه الضحية البريئة وهى طفلكِ منه . . ولو كان لى أن أشير عليه وعليكِ بشىء لأشرتُ عليكِ أنتِ أولاً بالتنازل عن جميع القضايا التى رفعتِها ضده، وأشير عليه بالتفاهم وديّا معكِ على أداء بقية حقوقكِ الشرعية إليكِ، وبالاستمرار فى الإنفاق على طفله منكِ دون منازعات قضائية ولا تبادل للقضايا .

ولْيَطْوِ كلٌّ منكما بعد ذلك هذه الصفحة من حياته، ويأمل فى أن تعوضه الأقدار عنها . . ولتحاولى أنتِ بعد كل هذه الأهوال أن تتعاملى مع الحياة الزوجية ـ إذا قُدّرَ لكِ الزواج لمرة رابعة ـ بفهم أنضج واستعداد أقل للعمل بنصائح والدتكِ المدمرة !

* * *



بَيْتُ الغَاضِبات

أنا سيدة فى الرابعة والعشرين من عمرى . . عُقد قرانى وأنا فى عامى الجامعى الثالث على شاب متدين ، واتفقنا على أن يتم الزواج بعد انتهائى من دراستى . . وانتظرنى زوجى عامًا ونصف عام حتى تخرجتُ وأنهيت استعداداتى للزواج ، ثم تزوجنا . . وبدأتْ حياتى الزوجية . . فوجدتُ نفسى تائهة وسط مسئوليات البيت الجديد، ولا أعرف الكثير من الشئون المنزلية . . فلجأتُ إلى أمى . . فكانت تخدمنى لكنها لم تعلمنى . . وتحمّل زوجى تقصيرى فى كل أعمال البيت ، ولم يَشْكُ من ذلك، كما لم يَشْكُ أيضًا من خلافاتنا التى ظهرت فى الشهور الأولى من حياتنا بسبب اختلاف الطباع . . وتحمّل حدتى عليه . . بل وإهاناتى له فى بعض الأوقات!

ثم شعرتُ بالجنين يتحرك فى أحشائى ، فأحسستُ أنه سيكون نقطة قوة لى على زوجى، فزادتْ حدتى معه . . إلى أن هجرتُ بيت الزوجية لأسباب تافهة، وذهبتُ إلى بيت أمى حيث وجدتُ الحياة الناعمة بلا

مسئوليات ولا متاعب . . فازداد إصرارى على عدم العودة إلى بيت زوجى وطلبتُ الطلاق منه ! . .

وحاول زوجى إصلاح الأمر بيننا فلم يَلْقَ منا إلا التعنت والجحود، وكرر المحاولة مرة أخرى قائلاً: إنه يتمسك بحياتى معه وبأن ينشأ ابننا بيننا، فلم يلق سوى الإهانة منى ومن أمى وإخوتى . . وتملكنى الشيطان تمامًا حتى إننى تحمستُ لفكرة قرأتها فى كتاب قديم هى إنشاء بيت للغاضبات تلجأ إليه كل من تغضب من زوجها . . ورحتُ أتحدث عن هذه الفكرة كثيرًا وأدعو لها . ومضتْ خمسة أشهر وأنا مقيمة فى بيت أمى دون أن يطلقنى زوجى .

وذات يوم كنتُ أستقل سيارة أجرة، وكان السائق يدير شريطًا لأحد رجال الدين يتحدث فيه عن هجر الزوجة لزوجها بلا سبب، وعقاب الله لمن تطلب الطلاق من زوجها من غير سبب، ولمن لا تحسن عشرة زوجها وتتعامل معه بعيدًا عن الرحمة والمودة . . فدار رأسى، واستغرقنى التفكير فى أمرى عدة أيام، وأدركتُ أن كل ما حدث بيننا هو من فعل الشيطان الرجيم الذى تلاعب بى لأهدم بيتى . . فعزمتُ على أن أرجع لزوجى، وأرسلتُ إليه وسيطًا ـ ليس من أهلى ـ ليجسّ نبضه ويحاول فتح الأبواب المغلقة بيننا من جديد . . ففوجئتُ بزوجى يقول له: إنه لن يسامحنى على ما فعلتُ به وعلى هجرى له خمسة أشهر كاملة دون ذنب جناه . .

لقد أخطأتُ يا سيدى فى حق زوجى وكنتُ أرى أن طاعة أهلى هى

الواجبة عليّ وليست طاعته . . كما كنتُ أؤمن أنهم الأبقى لى وليس هو. . والآن أدرك أن طاعتى لزوجى لا تتعارض مع حق أهلى عليّ، وأن اعتزازى بهم ينبغى له ألا ينقص من اعتزازى بزوجى. . وأرجوكَ أن تكتب له أننى قد كرهتُ الآن فكرة بيت الغاضبات ولم أعد أشيد بها ، وأننى مستعدة لأن أقبّل يده وقدمه كل يوم حتى يرضى عنى. . وأننى أرجو أن ترجع الحياة الزوجية بيننا كما كانت بحلوها وبمشاكلها «الجميلة» التى سأتحملها الآن ، ولن أضيق بها كما كنتُ أفعل من قبل. . وشكرًا لك. .

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

يخيل إلىّ فى بعض الأحيان أننا نغالى فى تحميل «الشيطان» مسئولية أخطائنا وحماقاتنا ونقص إدراكنا لحقائق الحياة، فنفعل ما تمليه علينا نوازعنا دون تبصّر ولا مراجعة. . ونستجيب لأهوائنا بلا تعقل ولا إنصاف، ثم نبرر لأنفسنا كل ما فعلناه وما ارتكبناه من حماقات بأنه «الشيطان» لعنة الله عليه. . ونعفى أنفسنا بذلك من كل لوم ونستريح!

وهذا هو ما تفعلينه الآن فى رسالتكِ هذه حين تبررين كل ما ارتكبتِ من أخطاء فى حق زوجكِ بأنه «الشيطان» وحده ولا شىء سواه ! ولستُ أعترض كثيرًا على هذا التبرير إذا اعتبرنا شيطان كل إنسان نفسه وتذكرنا قول الشاعر :

عَـدو كُـل لبـيـبٍ نفسـه فـإذا مــا

استَحكَمت منه لا تُبقى ولا تَذرُ !

كما أنى لا أراكِ وحدكِ المسئولة عن تدمير علاقتكِ بزوجكِ، وفراركِ من بيت الزوجية بعد شهور قليلة من الزواج، ولا عن سوء فهمكِ لطبيعة الحياة الزوجية، ولا عن تصوركِ لها كعلاقة صراع بين طرفين يحتاج كل منهما إلى عناصر «للقوة» لكى ترجح كفته فيه على حساب الآخر. فالحق أن أسرتكِ ـ وعلى وجه التحديد والدتكِ ـ تتحمل النصيب الأوفى من مسئولية سوء إعدادكِ لتحمل مسئوليات الحياة الزوجية، ومسئولية نقص إدراككِ لحقائقها الصحيحة !

فلقد بدأتْ حياتكِ الزوجية وأنتِ ـ كما تقولين ـ لا تعرفين الشىء الكثير عن الشئون المنزلية ومسئوليات الحياة الزوجية.. وحين شعرتِ بالضياع والحيرة أمام هذه المسئوليات، فإن والدتكِ قد اكتفتْ بالقيام عنكِ ببعضها ولم تقم بتعليمكِ كيفية أدائها وتحمل مسئولياتها، ولم تَسْتَهْدِ فى ذلك بالحكمة الصينية القديمة التى تقول «إنه خير من أن تعطى محتاجًا سمكة، أن تعلمه كيف يصيد السمك».. كما أنكِ من ناحية أخرى لم تبذلى أى جهد يذكر من ناحيتكِ لتعلمها، ربما لميل لديكِ للدعة والراحة والنفور من المسئولية، ويرجح هذا الظن لدىّ أن من يرغب فى أداء واجباته ومسئولياته.. فإنه قد يتعلم ما لا يعرفه بالمشاهدة وطلب المشورة.. وبالرغبة القوية فى تعلمه والإرادة.. وليس بالاستعانة بغيره على أدائه.. والرغبة والإرادة لم يتوافرا لديكِ ـ فيما أتصور ـ لتحمل مسئوليات الحياة الزوجية.. ولهذا آثرتِ الاعتماد على غيركِ.. وتغطية قصوركِ وعجزكِ بالحدة على زوجكِ، والتماس أسباب «القوة»

الموهومة لديكِ فى جنينكِ الذى تحرك فى أحشائكِ. ثم حين ضقتِ بتبعات هذه المسئولية فررتِ من تحملها بافتعال أسباب الخلاف مع زوجكِ، وفضلتِ الاستنامة للحياة الخالية من الأعباء والمسئوليات فى بيت أسرتك.

ومن عجب أن أسرتكِ التى كان ينبغى لها أن تعيدكِ إلى الرشد وتنبهكِ إلى أخطائكِ وقصوركِ، قد وافقتْكِ على طلبكِ للطلاق من زوجكِ وأغلقتْ فى وجهه أبواب الرجاء وأساءت إليه. فأى شيطان هذا الذى «تفرغ» تمامًا للوسوسة لكِ ولأفراد أسرتكِ بكل هذه الأخطاء والحماقات؟.. لقد أدركتِ متأخرة بعض حقائق الحياة.. واعترفتِ لنفسكِ بخطئكِ فى حق زوجكِ ورغبتكِ فى استئناف الحياة معه.. فأية وسيلة اخترتيها إذن لتحقيق هذا الهدف؟

لقد أوفدتِ إليه رسولاً من غير أهلكِ لكيلا يعرف زوجكِ أنه يتحدث إليه باسمكِ.. وأنكِ ترغبين حقًا فى العودة إليه، ولم يعتذر عنكِ الرسول فيما ارتكبتِ فى حق زوجكِ من أخطاء، وإنما راح - بناءً على رغبتكِ - يتحسس مدى استعداده هو لأن يستأنفَ من جديد محاولاته للصلح معكِ واستجداء عودتكِ إليه التى توقف عنها عندما استشعر المهانة والرفض.. فكأنما - حتى حين أدركت خطئكِ فى حق زوجكِ - قد أبيتِ الاعتراف له بالخطأ والاعتذار عنه.. وأردتِ أن ترسلى إليه فقط الإشارة المبهمة بأنه إذا تجرع غُصّتَهُ واستأنف محاولاته لاستعادتكِ.. فقد تنجح المحاولات هذه المرة..

وليس هكذا يفعل مَن يشعر حقًّا بفداحة خطئه فى حق شريكه ويرغب فى أن يقنعه بأنه قد تعلم درس التجربة واستفاد من أخطائه، وأصبح أكثر استعدادًا لتحمل مسئوليات الحياة الزوجية وتفادى العَثَرَات والخلافات السابقة . . ولأنكِ لم تبلغى زوجكِ بهذه الرسالة الصريحة، فإنه قد أجاب رسولكِ بأنه لم يَعْفُ عنكِ ولم يغفر .

إننى أنصحكِ بألا تمارى فى الاعتراف الصريح المباشر له بخطئكِ فى حقه ، والاعتذار له عن هجركِ له بلا مبرر طوال الشهور الماضية . . كما أنصحك أيضًا بألا تتجملى فى مصارحته برغبتكِ فى العودة إليه وبدء صفحة جديدة معه على أسس صحيحة ومختلفة للحياة الزوجية، فهذا وحده هو ما سوف يقنعه بأنكِ قد تعلمتِ حقًّا درس التجربة واكتسبتِ فهمًا جديدًا لحقائق الحياة . . فاتصلى بزوجكِ يا سيدتى وأبلغيه بهذه الرسالة المباشرة ، وتحملى عَتْبَهُ عليكِ ومرارته منكِ حتى تصفو نفسه . .

* * *

العُمْرُ الضَّائِع

بدأتْ قصتى حين تعرفتُ على زوجتى وعشنا معًا قصة حب طاهرة توّجناها بالزواج منذ عشرين عاما . . وبدأنا حياتنا المشتركة معًا من نقطة الصفر، بل مما هو تحتها . . وضَحَّتْ زوجتى من أجل حبنا برغد العيش الذى كانت تتمتع به فى بيت أسرتها قبل زواجنا، وبالسهر والملابس الغالية والمصروف المفتوح فى كنف أسرتها، وانتقلتْ معى من القاهرة إلى المدينة الساحلية الصغيرة التى أعمل بها .

وأنجبنا ابنتنا الأولى، وأسهمتْ معى زوجتى بثمن شبكتها فى بناء عش الزوجية . . ومضتْ سنواتنا جميلة وسعيدة ، واكتمل بيتنا تدريجيّا حتى أصبحتْ به كل الكماليات، وامتلكنا السيارة، ، ورُزقنا بابنة ثانية، فأصبحتْ مع أختها هما الحب الكبير فى حياتنا .

وانصرفتُ أنا إلى عملى وشُغلت به كلية، وتركتُ لزوجتى مسئولية كل شىء فى حياتنا المشتركة من البيت إلى البنتين إلى كل شىء . . ووجدتُها تحب ذلك وشخصيتها مناسبه له، لأنها ـ بصراحة ـ «بمائة رجل» . .

فتركتُ لها المسئولية، وأصبح بيتها وابنتاها هم كل شيء فى حياتها، وعاشت معى فى حرية كاملة، ووثقتُ بها أكثر مما أثق فى نفسى، وزاد اهتمامى بعملى، فكنتُ أرجع إلى البيت فلا أفكر إلا فى راحتى وما سوف أقوم به فى اليوم التالى من مهام، فإذا رغبتْ زوجتى فى أن نخرج معًا للنزهة رفضتُ وتركتُها تخرج وحدها. . وإذا رغبتْ هى فى ممارسة الرياضة تركتُها لما تريد وفضلت النوم والراحة ومشاهدة التليفزيون . . وإذا رغبتْ هى فى مشاهدة فيلم السهرة فى التليفزيون تركتُها تشاهده ودخلتُ غرفة النوم ونمتُ. . وهكذا. .

إلى أن تنبهتُ منذ فترة إلى أن الصمت قد حل بيننا وأصبح هو اللغة المشتركة فى علاقتنا، وأننا أصبحنا لا نكاد نلتقى داخل البيت حتى ولو أمضيتُ النهار كله فيه إلا للنوم. . ونتيجة لتفرغى الكامل لعملى فقد حققتُ فيه مركزًا مرموقًا، وتحسنتْ أوضاعنا المادية كثيرًا وبدأنا نجنى ثمار كفاحنا، لكن الحياة فى بيتنا استمرتْ على نفس الوتيرة : لا نزور أحدًا ولا يزورنا أحد، ولا يدق بابنا غالبًا سوى بائع اللبن . . وأنا فى عملى، وزوجتى فى البيت ، والبنتان مع صديقاتهما فى النادى.

وفجأة ـ وبعد عشرين عامًا من الزواج ـ بكت زوجتى بكاءً مريرًا وهى فى زيارة لشقيقتها فى القاهرة ـ وكانت قد اعتادت زيارتها فى الفترة الأخيرة كثيرًا ـ وطلبتْ الطلاق !

لماذا ؟! ماذا حدث ؟! . . لا جواب سوى أنها لم يعد لديها ما تعطيه لنا ولا تستطيع العطاء أكثر من ذلك. . وأن « ابنتيْها » لم تعودا فى حاجة

إليها لأنهما تستطيعان الآن الاعتماد على نفسيهما، وأنها تشعر بأن سنوات عمرها قد ضاعت منها وتريد أن تحيا ما بقى من عمرها !

وحاولتُ المستحيل معها لإثنائها عن رغبتها بلا جدوى، واستسلمتُ فى النهاية لما أرادت. . وتم الطلاق بيننا فى هدوء. . وفى تقديرى أنها مجرد فترة من الإرهاق النفسى ترجع زوجتى بعدها إلى نفسها لتعود الحياة إلى مجاريها بيننا ، وغادرتْ هى البيت والمدينة الصغيرة وتوجهتْ إلى القاهرة للإقامة لدى أشقائها . .

ومنذ ذلك الحين أصبحتْ زوجتى «السابقة» وأم ابنتىَّ بلا عنوان بالنسبة إلينا ، وكلما حاولنا الاتصال بها لدى أحد أشقائها بالقاهرة ـ وهم كثيرون ـ كان الجواب أنها ليست موجودة، أو سافرتْ إلى حيث لا يعلمون. . وأصبحتْ هى فقط التى تتصل بنا للاطمئنان على البنتيْن من حين لآخر، وإذا اتصلتْ لم تترك مجالاً لأى حوار. . واستمر الحال هكذا طوال شهور العِدَّة التى أوشكتْ الآن على الانتهاء. .

إننى يا سيدى لا أدرى ماذا حدث؟!. . ولا أعرف لماذا ضاقت زوجتى بحياتها معنا فجأة ؟!. . هل اشتاقت لأضواء المدينة وإلى السهر والفسحة والخروج والمصيف التى انتقلت منها للزواج؟ أم أن هناك أسبابًا أخرى ؟ . .

لقد كانت حياتنا تمضى هادئة، وكانت تحدث بيننا المشاكل العادية التى تقع فى أية أسرة. . لكن الحياة كانت ماضية فى طريقها ، فإذا كان

ثمة خطأ قد وقع فإنى أستطيع أن أحدده وأعترف به ، وهو أننى الآن أعرف ـ وبالثمن الغالى ـ أن الحياة ليست عملاً فقط ، وأن كل طرف ينبغى له أن يشعر بأهميته الخاصة وكيانه فى العلاقة الزوجية . . وأسأل نفسى متعجبًا : ترى لو أننى قد تزوجتُ إنسانة أخرى الآن، ألن أعاملها برقة وأعطيها من وقتى ما يُشعرها بأهميتها لَدَىَّ ، وأخرج بصحبتها وأجلس معها وقتًا طويلاً نتسامر ونتحدث ؟! . . وألم تكن زوجتى التى عاشرتنى ٢٠ عامًا إذن هى الأحق بمثل هذه الرقة وهذا الاهتمام ؟!

إننى أحب زوجتى هذه وبنتاها تحبانها بجنون، لكن المشكلة هى أننا لا نعرف لها عنوانا الآن . . فهل نستطيع أن نجده عن طريقك ؟ وهل تكتب إليها كلمة تناشدها فيها الاستماع إلى نداء الحب والعقل ، فترجع إلى بيتها وزوجها لكى أعوّضها عما فاتها معى بعد أن أدركتُ خطئى ، وإلى بنتيْها اللتيْن تفتقدانها لأنها الوحيدة القادرة على إعادة هذا البيت الذى تحطم . . ؟

إننى أرجوك أن تقول لها : إن كل المظاهر التى تسعى وراءها الآن زائفة وزائلة، وسرعان ما سوف تصدمها الحقيقة حين تفقد كل شىء فى لحظة خاطفة . . وقل لها : إن هناك فرقًا بين الحب الحقيقى والحب الزائف، وإن الحب الحقيقى عطاء وسعادة وراحة نفسية ، والحب الزائف أقراص مهدئة ومنومة ومضادات للألم سرعان ما يزول أثرها .

وقل لها أيضًا: إننا نسامحها على كل هذا الألم الذى سببتْهُ لنا خلال الفترة الماضية، وسوف نغفر لها هذه «الفترة» العابرة من حياتها، وسيكون باب بيتى مفتوحًا لها دائمًا لتعيد إعماره مرة أخرى، فهل تجفف دموع ابنتيْها اللتيْن تبكيان ألمًا وحزنًا على فراقها ؟ وهل تستجيب لنداء العقل والحب الحقيقى ؟

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

المرأة لا تُقْدِمُ على هذه الخطوة المدمرة فتهجر ابنتيْن فى سن الشباب وزوجًا عاشرتْهُ عشرين عامًا وحياة عائلية بأكملها، لمجرد الاشتياق إلى نمط حياتها السابق فى بيت أهلها من سهر ونزهات وخروج.. إلخ، وإنما تفعل ذلك فقط حين يتزلزل كيانها كله بمؤثر خارجى غَلّاب يحسم داخلها الصراع الطويل بين نداء الواجب العائلى ونداء السعادة الشخصية خارج إطار الأسرة الصغيرة.

ولهذا فلستُ أظن أن انشغالكَ بعملكَ وحلول الصمت بينكما فى الفترة الأخيرة هما السبب الحقيقى لهذا الانهيار المفاجىء لأسرتكَ، وإنما كانا فقط «الظرف الداخلى» الذى مهد أرض زوجتكِ لهذا الزلزال المدمر، فجاء الحديث المكرر فى مثل هذه الحالة عن سنوات العمر الضائعة والرغبة فى الحياة ما بقى للإنسان من عمر. وهو حديث مألوف لدى مَن يحسم الصراع داخله ـ بين نداء الواجب العائلى والإنسانى، ونداء السعادة الشخصية كما يتصورها لنفسه ـ لمصلحة اعتباراته الشخصية، وعلى حساب سعادة أبنائه وواجباته العائلية والإنسانية.

والبعض يشبهون الروابط الزوجية بجديلة الشعر المتينة التى تحتاج من الطرفين إلى العناية المستمرة بها ، وإلا تقصّفتْ شعيراتها واحدة وراء الأخرى على مدى السنين ، إلى أن يجىء اليوم الذى يصبح فيه ما بقى منها أَوْهَى من خيط العنكبوت . . فإذا تعرضتْ الأرض المشتركة بين الزوجيْن إلى رجفة قوية ، تقطعتْ آخر هذه الخيوط ، ووقع الانفصام تمامًا كما تنفصم القشرة الأرضية فجأة بتأثير الزلزال الذى تحرك فى باطنها .

والرجفة الشديدة التى قطعتْ الشعرة الأخيرة بينكَ وبين زوجتكَ هى ما تعبر عنه أنتَ فى رسالتكَ هذه «بالفترة العابرة» فى حياتها الآن ، وبالحديث المؤلم عن الفرق بين الحب الحقيقى والزائف ، ودعوتكَ لها للاستماع لنداء العقل والتمييز الواعى بينهما ، وهو حديث مؤلم لنفس الرجل ومشاعره ولا أريد الاستطراد فيه .

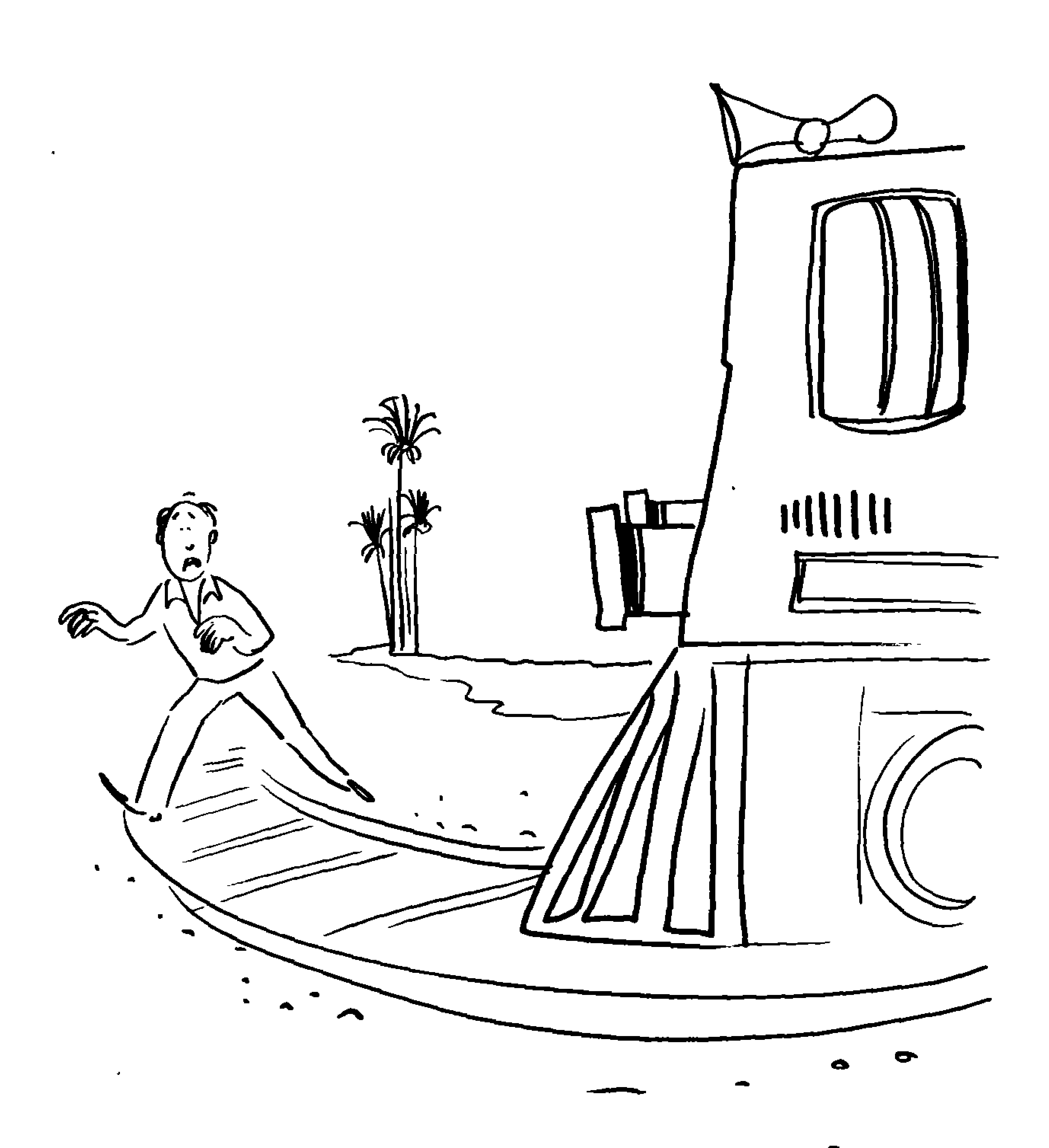
ولهذا فلن أقول لزوجتكَ السابقة سوى : إن من الزوجات من لا يضحين بسعادة أبنائهن ـ خاصة إذا كُنَّ من البنات ـ بمغريات الدنيا كلها ، وإن منهن مَن لا تصفو لهن السعادة مهما بلغ شأوها إذا كان ثمنها هو تعاسة أبنائهن وحيرتهم وحرجهم الإنسانى أمام الآخرين .

وإن الحديث عن سنوات العمر الضائع ـ إذا كان مقبولاً ومفهومًا لدى من لا ينشغلون إلا بطلب سعادتهم الشخصية على حساب سعادة الأعزاء واعتباراتهم ـ هو حديث مرفوض لدى من لا تهنأ لهم الحياة إلا إذا ارتبطتْ بسعادة أبنائهم وأمانهم واستقرارهم . . ولكل إنسان فى النهاية

أن يختار لنفسه ما يراها جديرة به ، فيكون من الباحثين عن أنفسهم بغير مبالاة بواجباته العائلية والإنسانية ، أو يكون من أهل التضحية والواجب الإنسانى وترجيح سعادة الأبناء على كل الاعتبارات .

ولنفسكِ فى النهاية ما تختارين ، وعليها عاقبته وضريبته ، فإن قدمتِ العطاء لأبنائكِ وأسرتكِ إلى النهاية فلكِ من خلال سعادة أبنائكِ ووفائهم لكِ عائد ما أعطيتِ . . وإن قدمتِ الخذلان والأثرة وتفضيل الذات على الجميع ، فعليكِ أيضًا عاقبة ما قدمتِ وما سوف تدفعين ثمنه الغالى من علاقتكِ بأبنائكِ . . وقديماً شاهد «الحسن البصرى» أميرًا يضرب رجلاً بالسوط ، فقال له : «والله ما تضرب سوى نفسك ، فإن شئتَ فأكْثِرْ وإن شئت فَقَلّلْ » . .

* * *



لحظةُ العُبُور

أنا سيدة من قارئات بابكَ منذ عام ١٩٨٥ حتى الآن . . ولم أتصور أن يجيء اليوم الذى أصبح فيه صاحبة إحدى مشكلاته . . فلقد تزوجتُ من موظف بإحدى الوزارات وأنجبنا ثلاثة أبناء ، وسافرنا جميعًا فى منتصف السبعينيات إلى إحدى الدول العربية ، حيث عمل زوجى فى وظيفة بإحدى الهيئات وعملتُ أنا أيضًا فى تخصصى . . ورجعنا إلى بلدنا بعد رحلة غربة طويلة ، والتهمتْ شركات توظيف الأموال جزءًا كبيرًا من حصيلة شقاء الغربة ، ووضعنا الجزء الباقى فى البنك ليدر علينا دخلاً شهريًا يعيننا على مواجهة الحياة ونفقات الأبناء . .

ومضت بنا الأيام بحلوها ومرّها ، وتركتُ عملى وتفرغتُ لزوجى وأبنائى . . وآمنتُ دائمًا بأنه لا فرق بين الزوجة وزوجها من الناحية المادية ، وشجعنى على ذلك أن زوجى رجل عطوف وحنون ويحبنى حبًا عظيمًا . . كما أننى لاحظتُ عليه بعد عودتنا واستقرارنا فى مدينتنا بالأقاليم اهتمامه المبالغ فيه بزميلة له فى العمل متزوجة ولها أبناء . . لكننى

استبعدتُ أن يكون معجبًا بها، ولم أمانع فى التعرف عليها استجابة لإلحاح زوجى على ذلك. . وتم التعارف بيننا، فأصبحتْ هذه السيدة بعد ذلك جزءًا من حياتنا. . تزورنا هى وزوجها وأبناؤها كل يوم تقريبًا، ويحرص زوجى على وجودها لأطول وقت ممكن . . وبعد فترة أخرى وجدتُ زوجى متحمسًا لإنشاء مشروع تجارى صغير ، يموّله زوجى ويشارك فيه زوج هذه السيدة بالعمل والمجهود . . وبدأ المشروع بالفعل، وتحسنت أحوال «الشركاء» المادية، وجددتْ هذه السيدة أثاث بيتها، واشترتْ الذهب والملابس لنفسها ولأولادها. . وكل هذا وأنا أنبه زوجى إلى أن هذه النفقات الجديدة من رأس مال المشروع أو أرباحه، وزوجى يرفض تصديق ذلك ويكذّب ظنونى ويتهمنى بالتجنى على هذه السيدة وزوجها بدوافع الغيرة .

وثارت مشاكل عديدة بينى وبين زوجى بسبب هذا الأمر ، وطلبتُ منه الطلاق بعد أن أصبح الوضع بينه وبين هذه السيدة المتزوجة مُحرجًا أمام الأبناء، كما طلبتُ أيضًا أن يجعل جزءًا من المال الذى شقيتُ فى جمعه خلال سنوات الغربة باسمى. . ولم يستجب زوجى لهذا الطلب أو لذاك. . ومن شدة غيظى وحنقى وضيقى بما أراه دعوتُ عليه بالموت مرارًا وتمنيتُهُ له بالفعل لأنه لا يستجيب لى ، وإنما يستجيب لرغبات هذه السيدة الملعونة. . لا لشىء إلا لأنها بيضاء البشرة وأنا سمراء !

وتعجبتُ غاية العجب كيف لرجل مثل زوج هذه السيدة أن يرضى لنفسه أن يلمس اهتمام رجل آخر بزوجته وغمره لأسرته بالهدايا والأطعمة

الفاخرة ، ولا يتشكك فى نية هذا الرجل الغريب تجاه زوجته، ولا يعترض على ذلك، بل يتقبل ذلك بسعادة ورضا ؟! . . وكل ذلك وأنا المخلصة الوفية لزوجى لا ألقى منه سوى التجاهل لرغباتى وتحذيراتى !!

لقد سلمتُ أمرى إلى الله . . وغلبنى حبى لأولادى الذين منحتهم زهرة عمرى على إحساسى بكرامتى كزوجة، وتركتُ لمن لا يغفل ولا ينام أن يحل هذه المشكلة التى أَعْيَتْنِى الحيلة فى حلها . .

وذات يوم ركبتُ السيارة مع زوجى إلى المدينة المجاورة لمدينتنا ـ حيث لا يفصل بينهما سوى الكوبرى ـ لكى يدفع زوجى مبلغًا من المال لأحد الأشخاص هناك . . وتوقف زوجى بالسيارة قرب محطة السكة الحديد وترك لى مفاتيحها ، واستأذن فى أن يغيب عشر دقائق فقط يعبر خلالها شريط القطار ويدفع المبلغ المطلوب ثم يرجع إلىّ . . وراقبتُهُ فى صمت وهو يتجه إلى شريط القطار لكى يعبره . . وقبل أن يصل إليه أذن لصلاة العشاء فى مسجد المحطة الصغير ، فاتجه إليه زوجى بدلاً من عبور القضبان، وأدى الصلاة، وغاب بعد ذلك عن نظرى فلم ألاحظه وهو يتجه إلى غايته أو يرجع منها . . ومضى الوقت وطال بغير أن يرجع . . وبعد نصف الساعة مرتْ من جوارى سيارة إسعاف تدوى صفارتها المزعجة، فانقبض صدرى . . وبعد ساعتيْن أخرييْن غادرتُ السيارة لأبحث عن زوجى، فإذا بى أعرف أن قطارًا قد دَهَمَ رجلاً لحظة عبوره لشريط القطار عند المحطة، وأنه نقل بسيارة الإسعاف وهو فى حالة سيئة إلى المستشفى . . وبطريق المصادفة البحتة اكتشفتُ من أحاديث

من حولى أن هذا الرجل هو زوجى، فمادت بى الأرض وسقطتُ مَغْشِيّا علىّ. . وتعاون الناس على حملى للسيارة وإعادتى للبيت حيث تأكدتُ من رحيل زوجى عن الحياة ـ يرحمه الله . .

وتحملتُ الصدمة المؤلمة وحدى، وصبرتُ على أقدارى ومصيبتى فى أعز إنسان لَدَىّ فى الوجود . . والآن ـ وبعد عشرة أشهر على وفاته ـ لا أستطيع أن أصف لكَ عمق حزنى عليه وهو مَن كان زوجى وحبيبى وأخى وكل مَن لى فى الحياة . . ولقد مرضتُ بالسكر وساءت حالتى الصحية والنفسية، وأصبح السؤال الذى يؤرقنى ويضاعف من همومى وأحزانى هو : هل دعائى على زوجى بالموت هو الذى عَجّلَ بوفاته ؟ وهل استجاب الله سبحانه وتعالى لدعائى المذموم هذا عليه ؟ أم أنه قدر مكتوب من قبل أن يأتى إلى الحياة ؟

إننى مؤمنة بقضاء الله وقدره وصابرة على أقدارى ، لكن ضميرى يعذبنى وأعانى من الاكتئاب والإحساس المؤلم بأننى السبب فى وفاة زوجى، وأدعو له الله بالمغفرة والرحمة، وأتعلق بالأمل فى أن يكون موته عقب خروجه من المسجد مباشرة ـ كما علمتُ ـ إشارة إلى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد غفر له كل ذنوبه ، لكن عقلى يكاد ينفجر كلما تذكرت الطريقة الفظيعة التى لقى بها زوجى مصرعه . . رحمه الله .

وأرجو من قرائكَ جميعًا أن يقرأوا له الفاتحة تَرَحّمًا عليه . . وأخيرًا فإنى أتساءل : ألا يحق لى أن أقاضى هيئة السكك الحديدية لمسئوليتها عن

مصرع زوجى حيث كانت محطة القطار عند عبوره لها مظلمة تمامًا فلم يرَ القطار الذى دهمه، وبعد الحادث تم إصلاح الإنارة فيها ؟ . . وهل أجد من قرائكَ من المحامين من يتبنى هذه الدعوى القضائية ، ولَدَىَّ كل الأوراق والمستندات المؤيدة لها ؟

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

هَونى على نفسكِ يا سيدتى، فإن الآجال لا شىء من دعاء البشر يُعَجلُ بها أو يؤخرها ، وإنما هى - كما جاء فى الأثر - كالرزق والسعادة، تُقدر على الإنسان وهو فى رحم أمه ، ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[1] صدق الله العظيم.

غير أنه ليس من المستحب أن يرجو الإنسان موت أحد مهما كان حانقًا عليه أو مكلومًا منه. . خاصة إذا كان هذا الإنسان شريكًا له فى حياته أو قريبًا منه، لكنه ينقم عليه فقط بعض أفعاله. . ومن الأفضل دائمًا أن يعتصم المرء بالحِلم والصبر على من آذوه ، وأن يدع أمرهم لخالقهم راجيًا أن ينصفه - سبحانه وتعالى - منهم بعدله ورحمته. فإذا ما نزلتْ بهم النوازل لم يشمتْ فى مصيبتهم ولم يفرح لها ، وإنما اكتفى بالاعتبار والصمت ، والتفكر فى عدالة الخالق وعبرة الأحداث .

ومن الأفضل كذلك إذا اشتد ضيق المرء بجناية البعض عليه وظلمهم له، أن يدعو بدعاء الرسول - صلوات الله وسلامه عليه -

(١) سورة النحل ، من الآية ٦١ .

المأثور عنه : (رَبِّ أَعِنى ولا تُعِنْ عَلَىّ، وانصرنى ولا تنصر علىّ، وامكُرْ لى ولا تَمْكُرْ علىّ، واهْدِنى ويَسرْ الهُدَى لى، وانصرنى على مَن بغى علىّ).

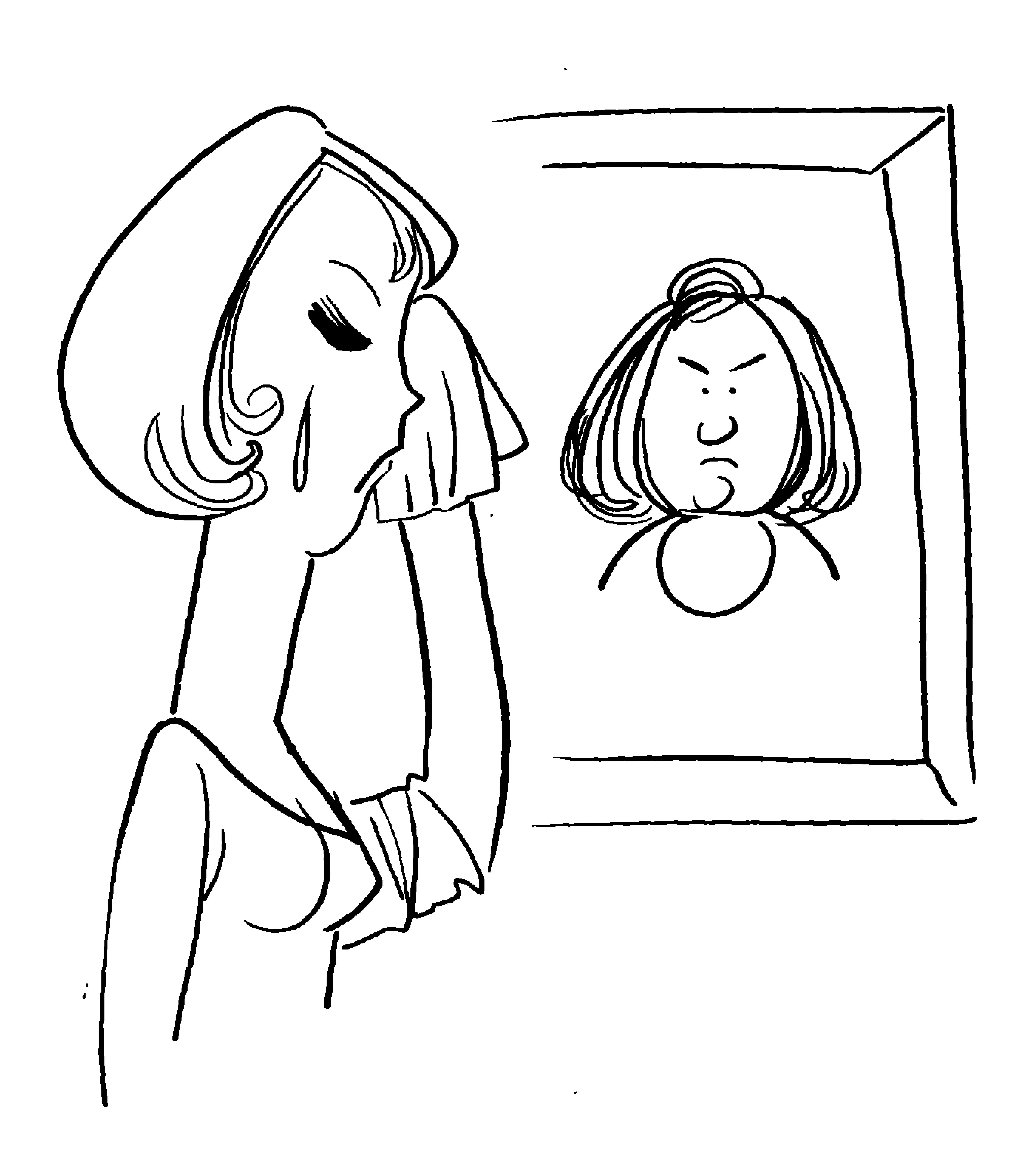
وفى ذلك ما يغنى المرء عن تمنى الأذى للآخرين انتصافًا لنفسه أو ثأرًا لها منهم، وما يطهر الصدور من سخائمها، ويعفى الإنسان من الإحساس المرير بالذنب إذا تصادف أن أصابت الأقدار مَن اشتد به حنقه عليهم فرجا لهم الأذى . . ومن دعاء الرسول الكريم كذلك ـ صلوات الله وسلامه عليه : (رَبِّ تقبل توبتى، واغسل حَوْبَتِى، وأجب دعوتى، وثبت حُجتِى، وسَدّدْ لسانى، واهْدِ قلبى ، واسْلُلْ سَخيمة صدرى).

ومن سداد اللسان وهداية القلب وخُلُوّ الصدر من سخيمته ألا يستجيب الإنسان لنوازع الغضب والحنق، فينطق لسانه بما يندم عليه، أو ينطوى قلبه وصدره للآخرين على ما يكرهه لنفسه من الأحاسيس والمشاعر . غير أن الإنسان خُلِقَ عَجُولاً، فما أن يضيق صدره بشىء حتى يطلق العنان للسانه وتمنياته، التى لا تعدو أن تكون فى أغلب الأحيان مجرد إطلاقٍ للبخار المكتوم فى صدره، ولا تعبر فى حقيقة الأمر عن رغباته وتمنياته الحقيقية . . وما أسرع ما يندم عليها المرء لو تحققتْ فى أرض الواقع .

وحالكِ خير مثال على ذلك يا سيدتى . . فلقد ضقتِ باهتمام زوجكِ بتلك السيدة ورفضه الاستجابة لك ، فما إن أصابتْهُ الأقدار فى موعدها المقدور حتى عضكِ الندم، وعانيتِ الوحدة والوحشة وفقدان

الرفيق ، واستشعرتِ جسامة الخسارة الإنسانية التى أصابتك، ورجوتِ لو كانت الحياة قد امتدتْ به ولو كان فى العمر ما فيه من الحسرات. . فأما مصرعه وقد خرج لتوه من المسجد ذاكر القلب واللسان، ومتطهرًا، فلعله من علامات القبول والإجابة، بإذن الله. . وأما عن مقاضاتكِ لهيئة السكك الحديدية لمسئوليتها عن مصرع زوجكِ الراحل ـ يرحمه الله ـ فهى من حقكِ، بل من واجبكِ أيضًا تجاه نفسكِ وزوجكِ الراحل وأبنائكِ، ذلك أن سكوت صاحب الحق المنهوب عن حقه قد يجعل المعتدى صاحب حق فى الاعتداء، أو يغريه بمواصلة عدوانه على الآخرين بلا رادع ولا عقاب!

* * *



الشُّعَاعُ الوَحِيد

قرأتُ رسالة «لحظة العبور» للسيدة التى فقدت زوجها تحت عجلات القطار ـ عقب خلافها معه ـ وتشعر بالندم على سابق دعائها عليه بالموت، فأثارت الرسالة شجونى، وذَكَّرَتْنِى بما أحاول نسيانه خلال البقية الباقية من عمرى . .

فأنا سيدة تزوجتُ عقب دراستى الثانوية منذ ٣٨ عامًا من رجل فاضل يكبرنى بـ ٣ سنوات ، ورزقنى الله بولد لم يعش أكثر من ساعات، وفَسَّرَ الأطباء ذلك بالمشكلات الوراثية، نظرًا لصلة القرابة بينى وبين زوجى، فانطويتُ على نفسى وتفرغتُ لرعاية زوجى ، ثم شاءت إرادة الله أن يرزقنى بابنة نجت من مصير شقيقها ، ودَرَجَتْ فى العمر حتى بلغتْ ثلاث سنوات، ثم بابنة أخرى تعلقتُ بالأمل فى أن تنجو هى الأخرى من هذا المصير، لكنَّ الأجل المحتوم حل عليها بعد أسابيع، فقررتُ أنا وزوجى أَلاّ ننجب مرة أخرى، وشكرنا الله على ابنتنا التى حفظها لنا ، وركزتُ كل حبى ورعايتى فيها، واعتبرتُها ملاكى الصغير الذى يضىء سماء حياتى.

والتصقتُ بها . . ولازمتُها فى كل خطواتها . . ورأيتُها وهى تتفتح أمامى كالزهرة النضرة الجميلة ، وما إن بلغتْ سن الخامسة عشرة حتى وجدنا من شباب العائلة مَنْ يطلب الارتباط بها ، لكنى وزوجى أصررنا على أن تستكمل تعليمها ، وزادنى إصرارًا على ذلك أننى لم أكمل تعليمى العالى . . والتحقتْ ابنتى بالجامعة ، وراحتْ تروى لى عن صديقاتها بالكلية وارتباطهم بشباب من زملاء الجامعة وعدم رضائها عن ذلك ، فازددتُ حبًا لها و إعجابًا بكمالها وعقلها وأخلاقياتها ، ومضتْ بنا الحياة وادعةً سعيدةً حتى أوشكتْ على التخرج ، فإذا بوالدها يرحل عن الحياة ، فيصبح كلٌّ منا هو السند الوحيد للآخر فى الحياة .

وتخرجتْ ابنتى الغالية فى كليتها وبدأتْ رحلة العمل ، وازددنا تلاصقًا واقترابًا ، وأصبحتُ أعتمد فى حياتى على معاش زوجى الراحل ومرتب ابنتى التى تضعه فى يدى أول كل شهر ، وتترك لى حرية التصرف فيه . . ثم بدأتُ بعد فترة ألاحظ عليها الشرود وعدم التركيز وبُعدها النفسى عنى ، وحاولت أن أتحرى عن طريق صديقاتها سِر ما طرأ عليها من تغير ، ففوجئتُ بأنها قد تعرفت على شاب يكبرها بـ ١٢ عامًا ، ويعمل معها فى المكان نفسه ، فواجهتُها بما عرفتُهُ عنها فلم تنكره ، و إنما أخبرتنى بأنها وافقتْ على الزواج منه ، وأنها كانت تحاول منذ فترة تهيئتى لهذا الأمر ، لكن الحزن الذى سيطر علىّ بعد وفاة أبيها لم يمكننى من ملاحظة ذلك .

وطلبتُ منها مقابلة هذا الشاب لكى أستطيع أن أصدر حكمى عليه، فلما التقيتُ به لم يترك لَدَىَّ أى انطباع بالارتياح إليه، خاصة أن إمكاناته المادية عادية، غير أننى لا أنكر فى الوقت نفسه أننى قد رأيتُ الحب فى عينيه لابنتى . وعقب انصرافه من البيت ثُرْتُ على ابنتى لأول مرة فى حياتى ، وأبلغتُها برفضى القاطع لهذا الشاب لأنه دون المستوى الاجتماعى المناسب لعائلتنا ، وأيضًا بسبب فارق السن بينهما .

وبكت ابنتى . . لكنها لم تيأس ولم تكف عن محاولة إقناعى به، وراحت تقنع كل من حولى بالتوسط لها عندى وأنا مازلتُ على موقفى منها ، ولم تيأس قَط من الأمل فى نيل موافقتى، حتى حل الصمت والجفاء بيننا ، وأصبحنا غريبتيْن تعيشان تحت سقف واحد .

واستمر الحال بيننا على هذا النحو خمسة أشهر ، ثم حدث أن رددتُ على التليفون ذات مرة فكان هذا الشاب ، ولتشابه صوتى مع صوتها فقد ظن أننى ابنتى وتحدث معى على هذا الأساس ، فطلبتُ منه الابتعاد عنها لأننى لن أوافق عليه نهائيًا، ولأن هناك من سوف يتزوجها ـ وهو ابن خالتها . . ثم أغلقتُ السماعة فى وجهه .

ولم أكتفِ بذلك، وإنما شكوته لمديره فى العمل وافتريتُ عليه بالكثير والكثير ، وحاول الرجل تهدئتى ووعدنى بأن يتدخل لديه لمنعه من تكرار الاتصال بابنتى ، ولم تمض أيام حتى كانت ابنتى قد علمتْ بكل ما جرى . . ولا أنسى نظرتها اللائمة لى . . ولا عبارتها المؤلمة لى بعد أن

ظلتْ للحظات تنظر إلىّ فى صمت مؤلم : حرام عليك ما تفعلينه بى !

وازداد حاجز الصمت والجفاء الصامت بينى وبينها رسوخًا ، واستمرت الحياة بيننا على هذا النحو وأنا آمل كل يوم فى أن ترجع إلى طبيعتها معى وتنسى هذا الشاب . .

إلى أن كان يوم انصرفتْ فيه إلى عملها باكية وهى تكرر لى نفس تلك العبارة المؤلمة : «حرام والله ما تفعلينه بى»، فلم أجبها سوى بالدعاء عليها . . لخصامها وجفائها لى بعد أن كرّستُ كل حياتى لها ، فغادرتْ البيتِ والدموع فى عينيها ، فكانت المرة الأخيرة التى رأيتُها فيها وهى على قيد الحياة . . يا حسرة قلبى المكلوم عليها ويا مصيبتى الهائلة فيها ! فلقد تعرضَتْ لحادث تصادم بشع أودى بحياتها القصيرة وشبابها الغض، وانطفأ الشعاع الأخير الذى كان يضيء حياتى .

ومضت الأيام بى بعدها وأنا كالميتة . . ما بين مرض ، وعلاج ، وبكاء لا ينقطع عليها . . حتى استطعتُ بعد أكثر من عام أن أتمالك بعض نفسى ، وأكرمنى الله بأداء العمرة مرتين : مرة لى ، ومرة لابنتى الحبيبة التى أتمنى أن يعوضها الله فى جنته عما حرمتُها منه فى الأرض . . وإننى الآن أسترجع ما كان من أمرها معى وأمرى معها وأعجب لنفسى : لماذا حرمتُها مما رأت فيه سعادتها . . وهى التى لم تغضبنى قبل هذا الموضوع ذات مرة ، وكانت دائماً نبعًا للحب والحنان معى ؟!

ويشتد علىّ الألم حين أتساءل : تُرَى لو كنتُ قد وافقتُها على ما

أرادتْهُ أكان يمكن أن تودع الحياة دامعة باكية قانطة كما رأيتُها آخر مرة ؟ أَوَليس من المحتمل أن يكون حزنها وانشغال بالها بموقفى منها قد عَجَّلا لها بالقضاء ، فلم تَرَ السيارة القاتلة وهى تقترب منها ؟

إننى أرجوكَ أن تنصح السيدة كاتبة رسالة «لحظة العبور» بألا تكرر خطأ الدعاء على أحد أعزائها مرة أخرى ، وكل الآباء والأمهات ألا يفعلوا ذلك أيضًا ، وبألا يتحجروا فى مواقفهم من أبنائهم إذا كانوا لا يطلبون منهم شيئًا مخالفًا للشرع والدين ، كما فعلتُ أنا مع ابنتى وزهرة عمرى الوحيدة . . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

من المؤكد يا سيدتى أن العمر لو كان قد طال قليلاً بهذه الابنة الغالية فإنكِ كنتِ ستتوصلين معها إلى حَلٍّ مُرْضٍ لهذه المشكلة التى عَكَّرَتْ صفوكما فى الفترة الأخيرة من حياتها القصيرة، وقد كان الأغلب الأعم أن تتنازلى أنتِ عن معارضتكِ لزواجها وتقبلى بارتباطها بهذا الشاب وتسعدى بسعادتها، غير أن عجلة الأيام سريعة الدوران للأسف، وكثيرًا ما تسبق خطواتنا ورغباتنا ، فنرجو لو كنا قد أسرعنا قليلاً بما تدبرناه فى أعماقنا ولم نستبعد الإقدام عليه ذات يوم قريب أو بعيد. . لكننا آثرنا ـ كما نفعل أحيانا لثقتنا غير المبررة فى الأيام ـ أن ننتظر بعض الوقت عسى أن يجىء التنازل والاقتراب من الجانب الآخر . . أو عسى أن نفوز نحن فى سباق التحمل والمعاناة إلى أن تضعف مقاومة الآخرين ويسلموا لنا

برغباتنا . . وقد نكافئهم فى هذه الحالة نحن أيضًا بالاستجابة لبعض رغباتهم .

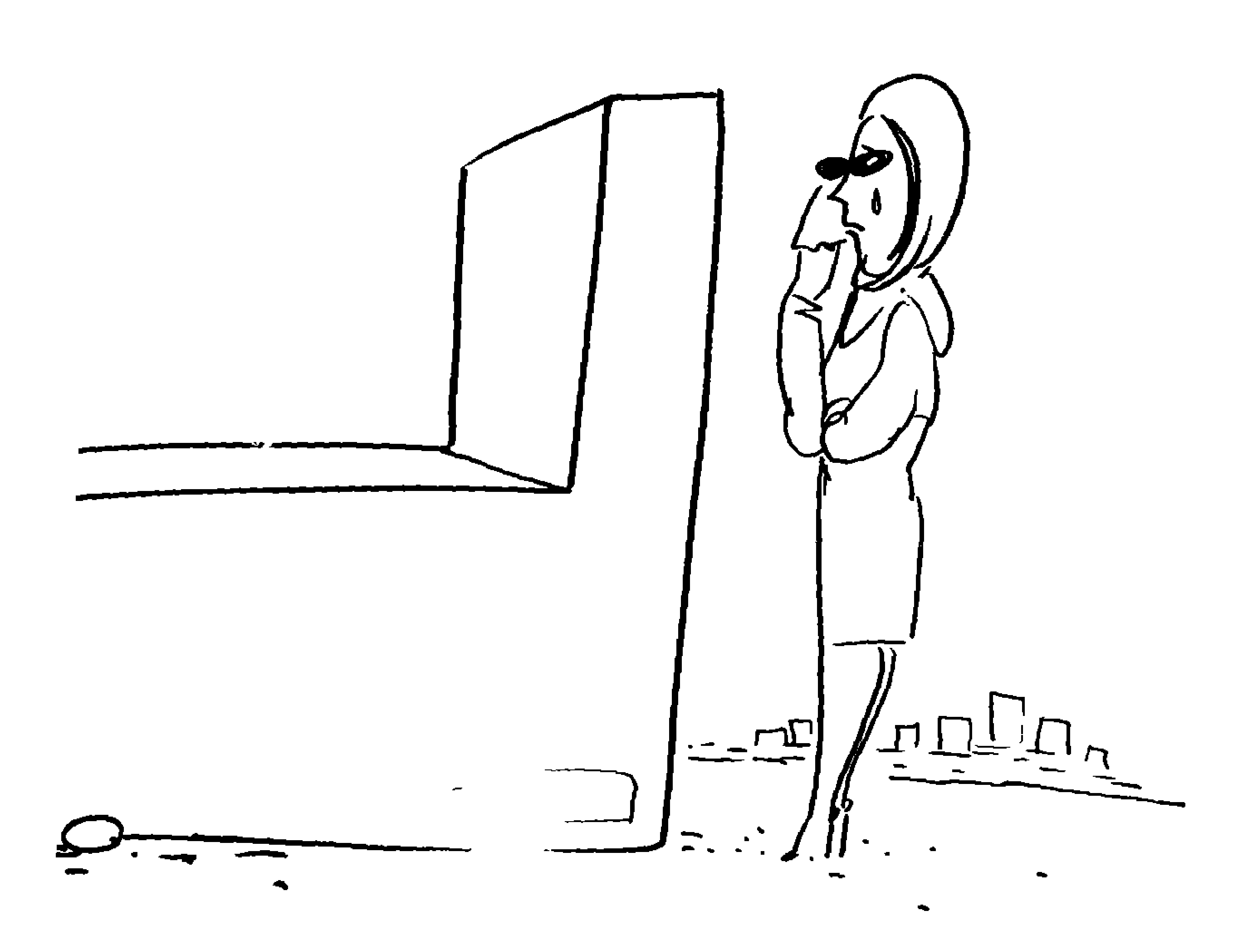
فإذا حق لأحد أن يحزن فليحزن على أيام العمر الثمينة التى تبددتْ فى الجمود والعناد والكبرياء، ولنحزن أيضًا على تعجلنا لأسباب الشقاق والجفاء والصدام مع الأعزاء . . وقد كان فى مقدورنا لو أوتينا الحكمة وبُعد النظر أن نتفادى كل ذلك ، وألا نحرمهم مما رغبوا فيه ورأوا فيه جماع سعادتهم وغاية أمانيهم ، وَلَكُنا قد أسعدنا أيامهم بالتأييد والمساندة، وتركنا لتجربة الأيام أن تمتحن صدق اختياراتهم .

فهذا هو واجبنا تجاههم يا سيدتى : أن نخلص لهم النصح دائمًا فيما نراه محققًا لخيرهم وصلاح أمرهم ، ونبذل أقصى ما نملك من جهد لإقناعهم به . . وتبصيرهم بما هم مقدمون عليه ، فإذا تمسكوا بعد كل ذلك باختياراتهم الشخصية وأبوا الاقتناع بما فى وجهة نظرنا ـ بشأنهم ـ من حكمة وبُعد نظر ، لم نحرمهم بالرغم من ذلك من ثمار حكمة الأيام التى اكتسبناها بالتجربة والخطأ خلال رحلة العمر ، ولم ندعهم لطريقهم يواجهون فيه المجهول وحدهم ، وإنما واصلنا حَدْبَنَا عليهم حتى وهم يسيرون إلى الطريق الذى عارضناه من قبل . . وأكدنا لهم فى كل حين أننا سنكون إلى جوارهم دائمًا وفى كل الأحوال ، وكلما احتاجوا إلى دعمنا ومساندتنا . . لأن ما بيننا وبينهم لا ينفصم بخلاف فى الرأى أو التوجهات ، وإنما دائم ومستمر إلى أن يقضى الله أمرًا كان مفعولاً .

وأحسب أن هذا نفسه هو ما كانت ستئول إليه علاقتك بابنتكِ

الغالية على الرغم مما حدث بينكما فى الأيام الأخيرة، وما تساؤلاتكِ المريرة عما إذا كان من الممكن أن يتأخر عنها الأجل المحتوم لو لم تكن قد غادرتْ البيت دامعة مشغولة الخاطر بهمّها ، سوى صدًى آخر لما تعانينه الآن من حسرة عليها وإحساس مؤلم بالذنب تجاهها لأنكِ قد عارضتِ اختيارها لشريك حياتها . . ولا لوم على أحد فى القضاء الذى لا راد له ولا يقدم أو يؤخر منه شىء ، وإنما هى حسرات القلب المكلوم على وحيدته الراحلة . . رحمها الله وأعانكِ أنتِ على أحزانكِ عليها . . فاعفى نفسكِ من مرارة الندم بعد فوات الأوان يا سيدتى . . وتذكريها دائماً بدعائكِ الصالح لها ، وتأكدى أنها لم تحمل لكِ فى أعماق قلبها سوى الحب والحنان اللذيْن كانا خلال عمرها القصير نبعًا دائماً يفيض بمائه العذب عليكِ ، فإن كان قد حل بعض الجفاء بينكما فى شهورها الأخيرة ، فلقد كانت تعرف فى أعماقها أنكِ ما عارضتِ فى زواجها إلا بدافع الحب لها والخوف عليها ، والأمل من أجلها فى أفضل الأشياء . . وبالصبر والصلاة والإيمان نستطيع دائماً أن نروّض الأحزان ، ونأمل فى عون السماء لنا على احتمالها ومواصلة الحياة بالرغم منها . . وقديماً قال الشاعر الإنجليزى « وودورث » : « إن العاقل هو من يحزن على ما بقى له من العمر وقد حاصرته الأحزان والآلام أكثر مما يحزن على ما مضى من هذا العمر . . ولو كان فيه ما فيه من الأخطاء والأشواك » !

* * *



النظـــرة العميقـــة

أنا سيدة فى العشرينيات من العمر . . على قدر كبير من الجمال ، ومن أسرة فاضلة حظيتُ فى أحضانها بطفولة سعيدة ، وحياة هادئة بين أبى وأمى وإخوتى الثلاثة الذين يكبروننى . . وقد تخرجت فى كلية العلوم بإحدى جامعات الأقاليم ، وتقدم لى خُطّاب كثيرون لم أشعر تجاه أحدهم بالقبول النفسى . . إلى أن تقدم لى شاب ما إن رأيته لأول مرة حتى شعرتُ بأنه الرجل الذى انتظرتُهُ طوال سنوات عمرى ، وشعرتُ نحوه بميل شديد ، ورأيتُ فيه كل السمات والميزات التى ترجحه على غيره من الشباب . . فهو ضابط شاب على خلق كريم ، ووسيم للغاية، وقوامه فارع ، ويتمتع بخفة ظل وجاذبية لا تقاومان . . كما أنه ـ وهو الأهم ـ حنون وعطوف ورقيق المشاعر ، ويحظى بحب الجميع .

وتمت الخطبة ، وتعمقتْ الروابط بينى وبين خطيبى إلى حد أن شعرتُ بالتطابق التام بينى وبينه فى الأفكار والآراء والرغبات . . وبعد

عام وسبعة أشهر من الخطبة تم الزواج فى حفل كبير كُنا فيه معًا أجمل عروسيْن . . ولما بدأنا حياتنا الزوجية اكتشفتُ أن هناك أنهارًا أخرى من السعادة لم تكن فى الحسبان، وشعرنا بأننا نمسك بالسعادة بأيدينا . . وتوالتْ أيامنا الجميلة معًا وزوجى الحبيب يغمرنى بحبه وعطفه وحنانه ، ويغدق علىَّ كلماته الرقيقة عن هيامه بى وسعادته معى إلى حد أن تتلألأ عيونه بدموع الحب وهو يقول لى ذلك . .

منه تعلمتُ كيف يكون التفانى فى إسعاد الحبيب وكيف يكون العطاء الغامر له دون انتظار المقابل . . وأفرط زوجى معى فى كل شىء جميل ، فأفرط فى حبه الذى جعلنى أشعر بأن الحب قد خُلق خصيصًا من أجلى . . وفى اهتمامه بى الذى يفوق اهتمام الأم بوليدها . . وفى تدليله لى الذى أشعرنى بأننى طفلته الوحيدة ، حتى أصبح بالنسبة لى العمود الفقرى لحياتى وشخصيتى .

ومع كل هذه السعادة فقد كنا نشفق من أن يكون لها ثمن غال ، لكننا كنا نرجع إلى الطمأنينة حين نقول لأنفسنا : إننا ندفع هذا الثمن بالفعل من خوف كل منّا على الآخر إلى حد الجنون ، وفى ذلك الكفاية كل الكفاية . . إلى أن جاء يوم واستعد فيه زوجى للسفر إلى عمله كالعادة ، وودعنى بحنانه الغامر . . ثم نظر إلىَّ نظرة عميقة طويلة لم آلفها منه من قبل ، وقبّلنى وحمل حقيبته الصغيرة وخرج . . وجلستُ أنا فى البيت أنتظر مكالمته المعتادة لى بعد وصوله لمقر عمله ليطمئننى عليه ويخبرنى ـ كعادته ـ بأنه يفتقدنى ويشعر بوحشة شديدة فى بُعده عنى ،

لكن الانتظار طال هذه المرة بغير أن يرن جرس التليفون . . وحين رن فى النهاية كان النذير اللعين الذى نقلنى فى لحظة من السعادة إلى الجحيم، فلقد تعرض زوجى لحادث تصادم مشئوم خلال سفره إلى عمله ونُقل إلى المستشفى فى حالة خطيرة ، فهرولتُ إليه هناك لأفجع بآثار الحادث اللعين فى وجهه الجميل وساقه المكسورة . .

وتعلقتُ بالأمل فى أن ينجو من المحنة ونرجع معًا لاستئناف أيامنا الجميلة التى لم نَرْتَوِ منها بعد ، لكن الأيام توالت ووجوه الأطباء لا تحمل لى أى بشير . . وبعد أسبوع قضاه فى المستشفى صعدتْ روحه الطاهرة إلى بارئها قبل أن يختتم عامه الثامن والعشرين . . وبدلاً من أن نحتفل بعيد زواجنا الأول فى الفندق الذى شهد حفل زفافنا السعيد ـ كما كنا نخطط لذلك قبل أيام قليلة ـ احتفلتُ وحدى بهذه الذكرى الحسيرة أمام قبره وأنا أرتدى السواد ، وقد نضبتْ دموعى من كثرة ما بكيتُهُ خلال الأيام السابقة . . لقد كنتُ أخشى وأنا فى قمة سعادتى أن تكون لهذه السعادة ضريبة فادحة ، لكنى لم أتصور أن تكون هذه الضريبة هى وأد السعادة نفسها ، والحسرة عليها للأبد .

ومشكلتى التى أكتب لك عنها الآن هى اشتياقى الشديد إلى زوجى الحبيب، الذى مازال عقلى الباطن يرفض أن يصدق رحيله عنى إلى الأبد، ومعايشتى له فى كل لحظة من صحوى ونومى، لقد فقدتُ الرغبة نهائيّا فى الكلام . . فإذا اضطرتْنى ضروريات الحياة إلى النطق ببضع كلمات ، فإنى أشعر باختناق شديد بعدها وبرغبة عارمة فى

الصراخ . . كما أننى أستجدى النوم كل ليلة بلا طائل ، فلا يزورنى شبحه إلا كل بضع ليال . . وإذا استسلمتُ له رأيتُ زوجى واستأنفتُ معه أيامنا الجميلة المنقضية ، وصحوتُ من غشيتى وأنا مجهدة كأنما كنتُ أصعد جبلاً عاليًا .

لقد قررتُ أن أحيا ما بقى لى من عمر على وفائى له . . ولو أن ذلك وحده لن يفى بحقه علىّ ، لكنى أريد أن أستعيد قدرتى على الكلام والنوم وتقبل الحياة لكى أستطيع مواصلة المشوار . . وقد نصحنى أهلى باللجوء إلى الطبيب النفسى ، لكنى تذكرتُ أننى وزوجى كنا فى أيامنا الجميلة نقرأ بابك ونتبادل الرأى فيما تنشره فيه ، وأنه كان يقول لى عنكَ : إنك كالطبيب النفسى الذى يعالج مريضه فى جلسة واحدة ، فشعرتُ وكأنه ينصحنى بأن ألجأ إليكَ أنتَ لكى تقول لى كلمة تعيننى بها على الحياة . . فأرجو ألا تبخل علىَّ بها . . والسلام عليكم ورحمة الله .

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

توقفت فى رسالتك الحزينة هذه أمام أشياء كثيرة ، لكنى أطلتُ الوقوف فيها أمام هذه النظرة العميقة التى وجهها إليك زوجكِ الراحل قبيل خروجه إلى قدره المحتوم ، وكأنما كان يملأ بها عينيه منكِ قبل أن يغيب عنكِ إلى الأبد!

وتجددتْ تأملاتى الحائرة لما يقال عن هذا الشعور الغامض الذى يراود بعض ذوى الشفافية بقرب النهاية، وكأنهم يتسمّعون دون غيرهم

أنغام الرحيل ، فهل يكون زوجك الشاب قد تسمّع هذا النداء الغامض وهو يودعكِ قبيل خروجه إلى قدره المقدور ؟!. . أم ترى أننا نفسر أحيانًا بعض إشارات الأعزاء الراحلين عنا بما يتوافق مع أقدارهم الحزينة فيما بعد ، وحزننا الشديد عليهم ؟!

لقد روى الشاعر الألمانى «جوته» فى إحدى قصائده أن طفلاً كان يسير إلى جوار أبيه ، فانتابه الفزع فجأة وتعلق بصدر أبيه ليحميه من صوت خفى يغريه بأجمل الهدايا والألعاب لكى يذهب إليه ويمضى معه، فظن الأب حديث ابنه هزلاً ولم يأخذه مأخذ الجد ، لكنه أراد أن يطمئنه ، فحمله على صدره وراح يهدىء روعه طوال الطريق ، فما إن بلغ به باب البيت حتى كان الطفل قد فارق الحياة !

غير أنى ـ على أية حال ـ لا أريد أن أستسلم لخواطرى وتأملاتى بعيدًا عن رسالتك المحزنة ، وأقول لكِ فقط : إن بعض البشر قد تعوضهم السماء عن قِصَرِ رحلتهم فى الحياة بأن تجعل سعادتهم فيها حقيقية ومكثفة ، فكأنما قد عاشوا بقدر سعادتهم هذه حياة عريضة وممتدة ، وكثيرون من البشر يتفقون مع الرسام الإيطالى الشهير «موديليانى» حين قال : أتمنى أن أحيا حياة قصيرة ، ولكن حافلة وسعيدة!

غير أننا لا نختار لأنفسنا أقدارنا ، وإنما نحيا حياتنا كما أرادتها لنا السماء ، ونمضى عنها حين تؤذن شمس العمر بالمغيب .

وفى كل الأحوال فمن واجبنا أن نتقبل حياتنا ونتواءم معها ، ونعين

أنفسنا على اجتياز المحن والفترات العصيبة التى تعترضها بأقل الخسائر النفسية والصحية الممكنة .

وليس كالإيمان بالله ـ سبحانه وتعالى ـ والتسليم المطلق بقضائه وقدره من معين للإنسان على اجتياز الأوقات العصيبة والتطلع لما بعدها من جوائز السماء للصابرين والمبتلين ، والإيمان الصحيح ـ كما يقول الأستاذ «مصطفى صادق الرافعى » : هو بشاشة الروح ، وإعطاء الله الرضا من القلب ثقة بوعده ورجاء لما عنده ، ومن هذيْن يكون الاطمئنان .

وإذا كنا لا نستطيع أن نقتلع الأحزان من نفوسنا بمجرد الرغبة فى ذلك ، فإننا نستطيع على الجانب الآخر مراوغتها وتضييق الحصار عليها، بالتشاغل عنها والاندماج فى النشاطات المختلفة التى تصرف الذهن إلى غيرها من شئون الحياة بعض الوقت .

وأفضل ما يشغل العقل عن أحزانه هو العمل والانغماس فى النشاطات الاجتماعية والعائلية ، والوجود بين الآخرين ، ومراودة النفس على مشاركتهم اهتماماتهم والاستجابة لمحاولاتهم الطيبة لشغل المحزون عن أحزانه ، وتجنب الوحدة لفترات طويلة ، وتفادى الفراغ من كل عمل أو نشاط . . لأن الطبيعة ضد الفراغ ـ كما تقول لنا مبادىء علم الطبيعة . . وكما أن المصابيح الكهربية المفرغة إذا ثُقبت تسلل الهواء إليها على الفور وشغل فراغها . . فإن العقل البشرى إذا خلا تمامًا مما يشغله تسلل الهم والفكر إليه وشغلا كل فراغه .

أما الحياة فلسوف تمضى فى طريقها المقدور لها ، سواء تقبلنا أقدارنا فيها وتواءمنا معها أم لم نفعل . . غير أنه من واجبنا تجاه أنفسنا دائمًا أن نركب قطار الحياة مهما تكن العثرات ، وألا نتجمد عند أحزاننا إلى مالا نهاية .

ففكِّرى فى كل ذلك واجعلى من ذكرى السعادة الغالية مع زوجكِ الراحل دافعًا جديدًا لكِ للحياة ، فنحن نستعين كذلك بذكرى السعادة على تحمل الأحزان ، وقد نغبط أنفسنا فى بعض الأحيان على أنه كانت لنا فى سابق الأيام ذكريات سعيدة وجميلة ، ولم تكن حياتنا خالية تمامًا من كل عزاء . . كما أن الأعزاء الراحلين لا يسعدهم أبدًا أن نهلك بعدهم حزنًا عليهم ، وإنما تطمئن أرواحهم فى ملكوت السماء حين نواصل الحياة من بعدهم فى شجاعة ، ونصمد لآلامها فى صبر .

* * *



الأسئلةُ الصّامتة

أنا شاب على أبواب الأربعين من عمرى . . نشأتُ فى أسرة طيبة بين أب كريم ـ يرحمه الله ـ وأم فاضلة ـ أطال الله عمرها ـ وعدد من الإخوة والأخوات . . وقد رحل أبى عن الحياة وأنا فى السادسة عشرة من عمرى . . وحصلتُ على شهادتى العليا . . فلما أنهيتُ خدمتى العسكرية سافرتُ للعمل بإحدى الدول العربية ، وخلال عملى بها أعلنتُ خطبتى لابنة خالتى ، وهى فتاة كريمة الأخلاق ، وعقدتُ قرانى عليها . . وبعد ٣ شهور تم الزفاف . . وقضيتُ مع عروسى فى مصر شهريْن، ثم سافرتُ إلى مقر عملى . . وبعد ٨ شهور أخرى رجعتُ إليها وقضيتُ معها ٧٥ يومًا . . وبعد شهور أخرى لحقتْ هى بى فى مقر عملى وسعدتُ بها . . ومضت الأيام بنا هادئة ، غير أننى لم ألمس بشائر الحمل بعد كل هذه الفترة ، فتوجهتُ إلى أحد المعامل لإجراء تحليل للخصوبة ، وقرأتُ النتيجة فى وجه طبيب المعمل قبل أن يصارحنى بها . . وتقبلتُها هادئًا ، ثم أعدتُ إجراء التحليل فى معمل آخر . . ثم ثالث . . وجاءت النتيجة مماثلة . . وإلى هذه اللحظة لم أكن قد أخبرتُ أحدًا على

ظهر الأرض أنه لا أمل لى البتة فى الإنجاب لانعدام الحيوانات المنوية لدىَّ نهائيّـا، ولم أكن أيضًا قد فقدتُ هدوئى وتماسكى ، لكن نتيجة التحليل الثالث كانت قد قضتْ على آخر أمل تعلقتُ به . . فشعرتُ بحزن شديد أذهلنى حتى عن رؤية صاحب العمل حين صادفنى عند عودتى للعمل . . وبعد قليل من رجوعى للعمل سألنى مديرى عن سبب تجاهلى لصاحب العمل حين التقيتُ به منذ قليل . . فأجبتُهُ صادقًا بأننى لم ألتقِ به ، فقال لى : بل التقيتَ به، واستغرب عدم مصَافحتكَ له . . فوجدتُنى أبوح له بما أَهَمَّنِى وشغل خاطرى . . وبعد قليل طلبنى صاحب العمل فى مكتبه وأسمعنى من الكلام الطيب ما خفف عنى بعض أحزانى ، وطلب منى التمسك بالصبر والأمل فى رحمة الله رب العالمين . .

وجاء إلى المدينة بعد شهور جَرّاح مصرى كبير ، فعرضتُ نفسى عليه، واستقر الرأى على إجراء فحص جراحى وأخذ عينة لتحليلها . . ووافقتُ على ذلك بشرط : عودتى لبيتى فى نفس اليوم لكيلا تشعر زوجتى بالقلق . . وتم إجراء الجراحة . . وانتظرتُ نتائج تحليل العينة لمدة أسبوعينْ وقلبى يخفق بالأمل والخوف . . وحين توجهتُ إلى الطبيب الجرّاح لمعرفة النتيجة تكرر ما حدث فى أول تحليل ، وقرأتُ النتيجة فى وجه الطبيب قبل أن يصارحنى بها، ولم أَقُلْ له سوى : إنه سبحانه وتعالى قد قَدَّرَ لى هذا وما شاء فعل، ووجدتُ عبارة لأحد الصوفية الكبار تتردد بقوة فى أعماقى هى : ربما منع فأعطى ، وربما أعطى فمنع ! . .

ورجعتُ إلى البيت هادئًا ، فكان أول ما فعلتُهُ هو أنْ جلستُ مع زوجتى وشرحتُ لها كل شىء بصراحة تامة ، وطلبتُ منها أن تفكر جيدًا فى أمرها ، فأسمعتنى ، أكرمها الله ، من الكلمات الحانية ما أثلج صدرى وخفف عنى بعض الألم ، وصارحتُ شقيقى الأكبر الذى يعمل معى فى نفس المدينة بأمرى . . ووجدتُنى بعد قليل أخفف عنه ألمه وهَمَّه، وألوم نفسى أنى أثقلتُ عليه بما صارحتُهُ به .

ومضتْ حياتى مع زوجتى فى سلام ، إلى أن رجعنا لمصر بعد عاميْن ووجدتُنى مُحاصرًا بالأسئلة الصامتة فى عيون الأهل والإخوة والأخوات والأصهار عن سبب عدم حمل زوجتى وإنجابها حتى الآن . . ولم أستطع بالطبع مصارحة أحد من أهلى بالحقيقة . . ليس خجلاً منها ، وإنما إشفاقًا من وقعها عليهم بعد أن جربتُ ذلك من قبل مع شقيقى الأكبر . . ورجعنا بعد انتهاء الإجازة إلى مقر عملنا . . وأمضينا عاميْن آخريْن، ثم رجعنا إلى بلدنا مرة أخرى فى إجازة ـ وكان قد مضى على زواجنا حوالى سبع سنوات دون إنجاب . . فوجدتُنى فى وضع لا أُحْسَدُ عليه . . ووجدتُ التساؤلات التى كانت صامتة فى الزيارة السابقة قد أصبحتْ صريحة ، ووجدتُنى مُلزمًا بأن أشرح لكل فرد من الأهل والأصهار ما حدث بالضبط . . وما فعلتُ وما قاله الأطباء . . وكيف كانت نتائج التحاليل الأولية . . والنهائية . . إلخ . . وهو حديث ثقيل على النفس ومؤلم لصاحبه . . وحدث ما كنت أخشاه من ردود الأفعال التى تباينتْ بين الحزن والتعاطف . . والشماتة من البعض . . لا أدرى لماذا . . غير

أن هذه الردود لم تترك والحمد لله أى أثر على علاقة زوجتى بى . . وإنْ كانت قد شرختْ علاقتى أنا بالأهل كلهم للأسف الشديد . . ورجعتُ إلى غربتى وفى النفس مرارة وفى الحلق غُصَّة .

فإذا سألتَنى : ما هى المشكلة الآن . . أجبتُكَ : إنها تتمثل فى أننى قد أصبحتُ إنسانًا آخر مع كل من اضطرنى عن قصد أو سوء نية أن أعلن على الملأ شيئًا شديد الخصوصية بالنسبة لى ، وهو عدم قدرتى على الإنجاب لأسباب لا حيلة لى فيها ، وذلك بإلحاحه علىّ بالسؤال أو بإحراجى بالتساؤلات التى لا مفر من تقديم الإجابات عنها . . وأتمنى أن أرجع كما كنتُ مع الجميع . . لكننى لا أملك ذلك للأسف حتى الآن . . ولهذا فقد كتبتُ لكَ هذه الرسالة لكى أرجو من كل الأهل ـ أهلى وأهل الجميع ـ أن يرحموا كل زوجيْن يريدان أن يحتفظا لنفسيْهما بما يخصهما من أسرار لا ينعكس أثرها سوى عليهما وحدهما ، وأن يترفقوا بهما فى السؤال سواء بأسئلة العيون أو بالأسئلة الصريحة ، لأن السؤال غير اللائق أو الجارح لا ينمحى أثره أبدًا من نفس من يُوَجَّه إليه، على عكس ما يتصورون . . وفى النهاية فإنى أطمئنكَ أننى وزوجتى على أحسن حال، ونرعى الله فى عشرتنا معًا . . وقد أصبح بيتنا واحة للمحبة وراحة البال والاحترام . . وأكرمنا الله بالحج والعمرة عدة مرات .

وشكرًا لكَ أن أتحتَ لى هذه الفرصة لإخراج هذا البخار المكتوم من صدرى . .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

من أشق الأمور على الإنسان المهموم بأمره أن يجد نفسه مضطرًّا إلى التصريح بما يتحرج أن يعرفه عنه الآخرون ، أو بما كان يرجو أن يعفوه من الحديث عنه أو الإشارة إليه . . تلطفًا منهم وإدراكًا لحساسية الأمر وخصوصيته بالنسبة له .

ولكن ماذا نفعل يا صديقى مع مَن قد يدفعهم حرصهم علينا أو حبهم لنا فى بعض الأحيان إلى عدم الاكتفاء بملاحظة الحال بغير سؤال، والإلحاح علينا بالتساؤلات الصامتة أو الصريحة عما لا تكون إجابته إلا كشف أستارنا والحديث عما لا يسعدنا البوح به ؟

وماذا نفعل مع غيرهم من البشر الذين لا يدركون أين تقع أسئلتهم المؤلمة من القلوب الحزينة ؟!

لقد قال بعض الحكماء : إن من أدب السؤال ألا يسأل المرء صاحبه عما يعلم أنه يتحرج مِن التصريح به، أو تؤلمه مجرد الإشارة إليه، وأنَ مَن لا يلتزم بمثل هذا الأدب فى التعامل مع الآخرين إنما يضطرهم لمكابدة عناء الكذب لإخفاء مالا يفضلون أن يكون موضوعًا للنقاش مع الغير ، أو يضطرهم لمكابدة عناء البوح بما لا يريدون أن يطلع عليه غيرهم . . ولهذا فلقد نهانا الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن الفضول الذى يقتحم خصوصيات الآخرين ويهتك أستارهم ، وعن كثرة السؤال التى تفتح الأبواب لِنكْأ الجراح وإيلام المشاعر وإثارة المتاعب .

ولقد نزلت الآية الكريمة التى تقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾[1] فيمن كانوا يلحّون بالسؤال على رسول الله ﷺ عن أشياء لم يتنزل فيها أمر ونهى ، أو يلحون فى طلب تفصيل أمور أجملها القرآن وجعل فى إجمالها سعة للناس . . أو بالاستفسار عن أشياء لا ضرورة لكشفها ، لأن كشفها قد يؤذى السائل أو غيره من البشر . غير أن المفسرين يجعلون منها منهاجًا أخلاقيًا للتعامل بين البشر فى أمور الحياة الأخرى ، ويرون فى هذا المنهج دَرْءًا لشرور الفضول والتطفل على خصوصات الآخرين وأسرارهم .

والمثل الإنجليزى القديم يقول : «لاتسألنى فَأَكْذِبْكَ» . . أى لاتسلنى عما لاأحب البوْح به لكَ أو لغيركَ فتضطرنى للكذب !

وليس السؤال المحرج هو وحده السؤال الذى ينطق به اللسان ، لأن من أسئلة العيون الصامتة أيضًا مالايقل إحراجًا للمسئول عن السؤال الناطق . . لهذا فقد كان من حسن الكياسة دائمًا أن يكبح المرء لسانه عما لايجوز له السؤال عنه . . وعينه أيضًا عما لايجوز لها الإلحاح إليه .

والأمر معقود فى النهاية لحسن الإدراك والفهم اللذيْن ينبغى أن يتوافرا لدى المحيطين بالمرء من أهله وأصدقائه . . إذ ماذا يعنى سؤال زوجيْن مضى على زواجهما سبع سنوات دون حمل ولا إنجاب عن «أسباب» عدم إنجابهما سوى إيلام المسئول، ونكأ جراحه، ووضعه فى موضع

---

(١) سورة المائدة ، من الآية ١٠١ .

المطالب بتقديم تفسير لما لاحيلة له فيه ولاجريرة ؟ . . وماذا يغيّر مثل هذا السؤال الجارح من واقع الحال ؟ . . وأى عائد جِدِّى له سوى جرح مشاعر المقصود به وتذكيره بحرمانه الذى لاحيلة له فيه ولم يختره لنفسه بإرادته ؟ إننى معكَ ياصديقى تمامًا فى أنّ من واجب الجميع عدم الإلحاح بالسؤال على أى زوجين يرغبان فى أن يحتفظا لنفسيهما بمساحة من الخصوصية لايجوز حتى لأقرب الناس إليهما اقتحامها أو التطفل عليها، ومعكَ أيضًا فى أن من جراحات اللسان مالا التئام له فى بعض الأحيان . . على عكس جراحات «السنان» ـ أى السيوف ـ على حد تعبير الشاعر العربى . . لكنى أدعوكَ من ناحية أخرى إلى التخفف من بعض حساسيتكَ الزائدة تجاه هذا الأمر ، لأن مالا حيلة للمرء معه لا ذنب له عنه . . ولاعيب فيه .

ومادمتَ تحيا حياتكَ فى وئام ووفاق مع زوجتكَ ويرعى كل منكما الله سبحانه وتعالى فى عشرته للآخر . . فلتتجاوز عن مثل هذا الفضول الذى كَدَّرَ صَفْوَكَ فى بعض الأوقات ، ولتلتمس لأصحابه بعض العذر فيه باهتمامهم بأمركَ وحبهم لكَ وحرصهم عليكَ . . حتى وإن أساء مثل هذا الاهتمام التعبير عن نفسه بالإلحاح عليك بالتساؤلات المحرجة . . فمثل هذا الفضول لن يستمر ولن يتواصل ، ولسوف يعرف أصحابه الآن أنه لا عائد له سوى تكدير القلوب المحرومة ، فيتعلمون درس التجربة . . ويتجنبون العودة إليه مرة أخرى .

ولقد أشرتَ إلى الكلمة الحكيمة التى ترددتْ فى أعماقك بقوة حين

علمت بنتيجة الفحص الجراحى : « ربما أعطاكَ فمنعكَ، وربما منعكَ فأعطاك»، وهى من الحكم المعروفة لابن عطاء الله السكندرى . . تاج الدين . . وترجمان العارفين . . الجذامى نسبًا . . المالكى مذهبًا . . السكندرى دارًا . . القاهرى مزارًا . . الصوفى حقيقة . . الشاذلى طريقة . . أعجوبة زمانه . . ونخبة عصره وأوانه . . المتوفى سنة تسع وسبعمائة هجرية كما وصفه «ابن عجيبة» . . وقد قال «النَّفَّرِى الرندى» فى شرحه لهذه الحكمة التى تحمل رقم ٨٣ فى سلسلة الحكم العطائية : ربما أعطاكَ الله سبحانه وتعالى ما تميل إليه نفسكَ ، فمنعكَ التوفيق والطاعة والإقبال عليه . . وربما منعكَ منه أو من بعضه فأعطاكَ التوفيق والرضا والقبول . . وهكذا فقد يكون المنع فى حقيقته عطاء ، والعطاء فى جوهره منعًا .

فاسعد بحياتكَ الهانئة وزوجتكَ الفاضلة الوفية ، واشكر للخالق الكريم عطاءه . . وتجاوز عمن أساء إليكَ بغير قصد . . والسلام .

* * *

وَطِيسُ المعرَكـة

أنا رجل فى الخامسة والأربعين من عمرى . . أشغل وظيفة مرموقة أدبيًّا وماديًّا . . ومتزوج منذ عشرين عامًا ولى بنت وولد فى سن الشباب . . وزوجتى تصغرنى بأربع سنوات ، وهى متدينة إلى أقصى الحدود ، وطيبة الخلق ، وجامعية لا تعمل ، وعلى قدر من الجمال والرقة تحسدها عليه الكثيرات . كما أنها ربة بيت من الطراز الأول من حيث النظام والنظافة والدقة فى تناول جميع الأمور حتى البسيط منها . . وهى روتينية إلى أقصى الحدود أيضًا ، وتخفى مشاعرها السعيدة والحزينة على السواء ولا تعبر عنها . . وقد تزوجنا بعد قصة حب كبيرة ، ونعيش والحمد لله حياة طبيعية سعيدة لا مشاكل فيها فى الظاهر . . لكنى داخليًّا أعيش فى صراع نفسى عنيف ، ذلك أن زوجتى مشغولة عنى دائمًا وليس لى مكان فى جدول أعمالها اليومى الذى ينحصر دائمًا فى الاهتمام بالبيت والأولاد . . وأنا رجل رومانسى أعشق الحب والحنان ، وأحب أن أشعر بأننى موضع الاهتمام والرغبة من الطرف الآخر لأننى

أقـدم كـل الحب والاهتمـام وكـل حياتـى لبيتى وزوجتـى وأولادى .

وفى السنوات الأخيرة . . ومع تزايد ضغوط العمل والحياة بصفة عامة . . أصبحتُ فى أشد الحاجة لأن أرجع من عملى الذى يستغرق منى ١٢ ساعة يوميًّا ، لأجد فى انتظارى زوجة حنونًا تستوعبنى وتحتوينى فى الساعات الباقية من اليوم . . لكننى أجد ـ على العكس من ذلك ـ زوجتى تنتظرنى بقائمة طويلة من المشاكل اليومية بينها وبين الأولاد ، وبين الأولاد بعضهم البعض ، والمشاكل الخاصة بشئون البيت والسكن والكهرباء أو السباكة . . إلخ ، فحتى لو تعطل المصعد فهذه مشكلة أنا مسئول عنها . . وهكذا فإنى لا أسمع منها بعد عودتى للبيت سوى أنها قد قضت يومها الطويل وهى فى حرب حامية الوطيس لا تنتهى أبدًا . . فماذا يمكن أن أتوقع من زوجة قضتْ يومها فى حرب حامية سوى النوم والإعراض عنى ، والتعلل بإنهاكها طوال النهار فى نظافة المنزل و إعداد الطعام وتربية الأولاد . . إلخ ؟!

إننى لا أنكر على زوجتى جهدها المشكور فى بيتها ومع أولادها . . لكنى فقط أتساءل : وأين أنا من هذه الأولويات ومن جدول الأعمال اليومى ؟ . . إننى رجل متدين أعرف حدود دينى ، وقد أديتُ فريضة الحج مع زوجتى عدة مرات ، وأحب زوجتى ولا أرفض لها طلبًا، بل إننى مُتَفانٍ فى إجابة وتلبية كل أحلامها هى والأولاد ، والجميع يشهدون لى بذلك، وبأننى رجل بيت من الطراز الأول . .

وحتى لا تسيء الظن بى وبالمرحلة من العمر التى أمر بها الآن وتتصور أنها مراهَقة متأخرة أو أزمة منتصف العمر ، فإنى أقول لك: إننى ـ والحمد لله ـ أدير مؤسسة عالمية كبيرة ، وسافرتُ إلى جميع دول العالم، ولدىَّ من الخبرات ما يعيننى على التمييز بين الأشياء . . لكنى فقط قد تعبتُ من العطاء دون مقابل من الطرف الآخر حتى فى حقوقى الزوجية المشروعة . كما أننى رجل يبغض الحرام ويأباه لنفسه ، ولهذا فإنى أفكر جديًّا فى الارتباط بزوجة ثانية لأجد لديها ما ينقصنى من المشاعر والحنان الذى أفتقده منذ سنوات طويلة ، ومعى فى العمل زميلات يُظهرن لى الحب والحنان والاهتمام والرقة فى التعامل معى . . فما رأى الدين فى هذه المشكلة ؟ . . وهل ما أفتقده الآن مع زوجتى يجيز لى الزواج من غيرها؟ . .

لقد حاولتُ مرارًا لَفْتَ نظر زوجتى لهذه المشكلة التى لا تبدى أى اهتمام بها ، وأبلغتُها صراحة إنها بطريقتها هذه فى التعامل معى سوف تدفعنى للزواج من أخرى لكى أحصل على الحنان والحب اللذيْن أحتاج إليهما ، فكانت تعدنى بأنها ستكون كما أريد منها . . ثم لا تفى بوعدها أبدًا . . فهل إذا أراد الرجل أن يعصم نفسه من السقوط فى هاوية الحرام وتزوج بأخرى لتلبية احتياجاته العاطفية والنفسية يكون ظالمًا لزوجته الأولى؟ . .

إننى أرجو أن تلفت نظر زوجتى ـ وهى من قارئاتك المستديمات ـ إلى أن تتقى الله فى زوجها لكيلا يقع مالاتحمد عقباه . . وتندم حين لا ينفع

الندم . . كما أرجو أن تلفت نظر الزوجات إلى أهمية أن يضعن أزواجهن في جدول أعمالهن اليومي ، ويجعلن لهم نصيبًا من أوقاتهن واهتمامهن حتى لا يشعر الأزواج بالإحباط والرغبة في الاقتران بالأخريات أو التطلع إليهن .

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

مشكلة بعض الزوجات هي أنهن قد يبدأن ـ بعد أن يكبر الأبناء وتزداد مشاكلهم وصعوبة رعايتهم ـ في التعامل مع أزواجهن «كآباء» لهؤلاء الأبناء و«أرباب» للأسر التي تجمع بينهم ، أكثر من تعاملهن معهم «كأزواج» لهؤلاء الزوجات . . ويتصورون أن ما يَخُضْنَهُ بالفعل من معركة يومية لأداء الواجبات المنزلية وإدارة شئون الأسرة ورعاية الأبناء يكفي في نظر أزواجهن لالتماس العذر لهن في نضوب مَعِين العطاء النفسي والعاطفي للأزواج عند عودتهم من الخارج إلى أرض المعركة! . وهذا خطأ كبير في التقدير لا يضارعه إلا خطأ بعض الأزواج الذين يتوقعون من زوجاتهم أن تكون لهن أذرع الأخطبوط الثماني ، التي تلبي كل المطالب والاحتياجات في كل الاتجاهات بغير كلل ولا ملل . . آناء الليل وأطراف النهار .

والحقيقة التي تغيب عن بعض الزوجات هو أن الزوج مهما تقدم به العمر وكثر الأبناء وازدادتْ متاعبهم، فإنه يطلب من شريكة حياته أن تكون «زوجته» في المقام الأول قبل أن تكون أُمًّا لأبنائه وربة ناجحة لبيته

وأسرته . وأنه مهما بلغ به الرضا عن اجتهادها وإخلاصها وتفانيها فى خدمة بيته وأسرته وأبنائه ، فإن ذلك لا يعوضه عما يستشعره من تراجع أهميته لدى زوجته كزوج لها ، ولا عما يستشعره من نقص من جانبها فى تلبية احتياجاته النفسية والعاطفية لديها . . ولهذا فهو قد يشعر بالرضا عن جهدها مع أبنائها وفى بيتها . . بل وربما بالفخر أيضًا بذلك . . لكن ذلك كله لا يشفع لها عنده فى تراجع ترتيبه فى قائمة أولوياتها لحساب هؤلاء الأبناء الأعزاء الذين لا مراء فى حبه لهم وتفانيه فى إسعادهم، ولا فى تغافلها عن مشاركته اهتماماته الشخصية والعاطفية ، وهذه هى المعادلة الصعبة التى تحتاج إلى فهم حكيم لنفسية الرجل ، وقَدْرٍ عالٍ من ذكاء المرأة . فأنجح الزوجات وأكثرهن إسعادًا لأزواجهن ولأنفسهن هن اللاتى يُؤمِنَّ بأن دور الزوجة لايتوقف فى حياة الرجل مهما بلغ بها وبه العمر ، ومَن لا ينسين أبدًا فى غمرة انشغالهن بمعركة البيت والأبناء اليومية أنهن «زوجات» لأزواجهن ، وأن أزواجهن لا يسعدهم أبدًا أن يشعروا بأن ترتيبهم قد تأخر فى قائمة أولوياتهن ولو كان من يتقدمهم فيها هم فلذات الأكباد أنفسهم .

والحق أن هذه المعادلة ليست مستحيلة . . وإنما هى شبيهة بالمعادلة الأخرى التى يواجهها الرجال لإشعار زوجاتهم بأنهن على رأس أولوياتهم فى الحياة قبل العمل والطموح وحتى الأبناء أيضًا . . وإنما يتطلب الأمر فقط بعض الفهم والإدراك والحرص على عدم تجاهل اللفتات الصغيرة ، وبذل الجهد لإرضاء الطرف الآخر ووضع اعتباراته موضع الاهتمام . .

وأن يسلم الزوج بأن انشغاله بطموحه وعمله ـ وإن كان لمصلحة زوجته وأبنائه فى النهاية ـ إلا أنه لا يشفع لدى هذه الزوجة نفسها فى إهماله لها وانصرافه عنها ، وأن تسلم الزوجة بأن عذرها فى إهمال الجانب الشخصى فى التعامل مع زوجها بسبب استغراقها فى رعاية أبنائه وبيته و إدارة شئون حياته ، لا محل له من الإعراب عنده . . مهما يكن تقديره لعنائها وحربها اليومية فى بيتها .

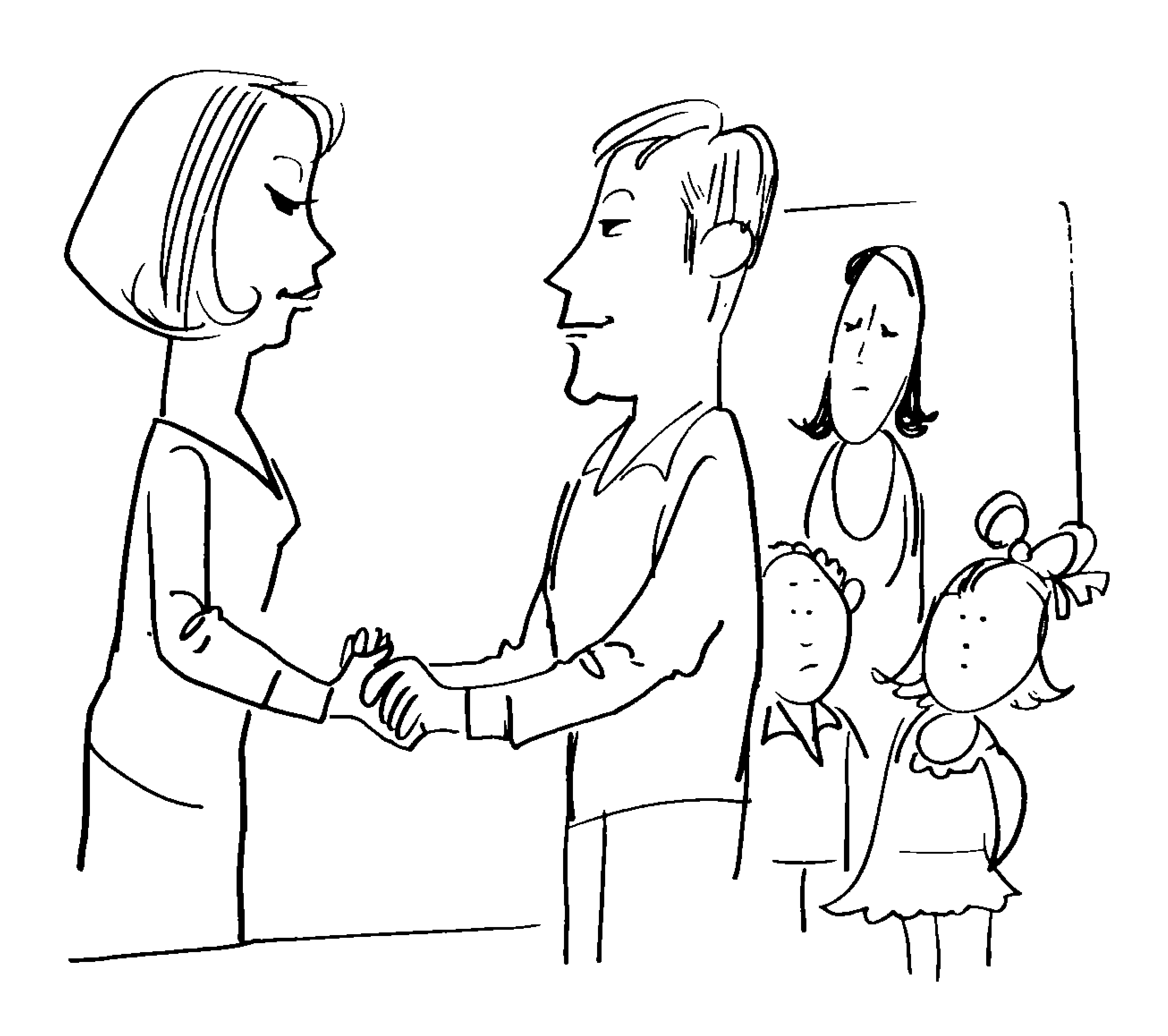
فأما تساؤلكَ : هل يجيز لكَ انصراف زوجتكَ عنكَ إلى حربها اليومية الزواج من أخرى ؟ . . فالجواب عليه معروف ، وهو أن حرمان أحد الطرفين من تلبية احتياجاته إذا طال واستمر وفشلتْ كل محاولات الإصلاح إلى حد يشعره بالخوف على نفسه من الفتنة ، فإنه يبيح له أن يعصم نفسه بالزواج ، فيجيز للزوجة أن تطلب الطلاق وتتزوج من غير زوجها ، ويجيز للزوج أن يتزوج على زوجته إذا قبلتْ بذلك ، أو يسرحها بإحسان ويتزوج غيرها . لكن الأمر لم يصل ـ والحمد لله ـ إلى هذا الحد ولن يصل إليه إن شاء الله . . وما أحسب إلا أن زوجتكَ الطيبة المتدينة المتفانية فى خدمة أبنائها وبيتها ، لم تستوعب فقط خطورة المشكلة وجديتها بالنسبة لك . . وكل رجائى لها هو ألا تتعامل مع «إنذاركَ» لها بالزواج من أخرى كما تتعامل بعض الزوجات مع الإنذارات المماثلة بالاطمئنان الغافل إلى عدم جديتها ، إلى أن يَفُقْنَ ذات يوم عليها وقد تحولتْ إلى أمر واقع . . كما أرجو منها ومن غيرها ألا يتعاملن مع مثل هذه الإنذارات بالاستخفاف أو الإيمان باستحالة تنفيذها أو بالتحدى

للطرف الآخر أن يقدم على تنفيذها إن كان حقًّا من الصادقين ، لأن معظم النار من مستصغر الشرر. . ولا داعى لتكرار قصة أهل إقليم لاقونيا مع «فيليب المقدونى» حين أرسل إلى أعدائه فى الإقليم رسالة يقول لهم فيها : «إذا استوليتُ على لاقونيا فسوف أسحق أهلها». . وبدلاً من أن يتعاملوا مع إنذاره بجدية أو يتجنبوا على الأقل استفزازه، أجابوه برسالة تتضمن كلمة واحدة هى : إذا !

فكان هذا الرد سببًا أساسيًّا فى تصميم فيليب على الاستيلاء على لاقونيا وتشريد أهلها ! !

وإذا كان الأمر كذلك ، فليُشعِر إذن كل زوج زوجته بتقديره لجهدها فى رعايته ورعاية أبنائه وبيته ، ويشاركها بعض «الأنين» من باب التعاطف والتقدير من هذا العناء اليومى. . ثم يتلطف بعد ذلك فى التماس المشاركة والحنان لديها. . ولتُشعِر كل زوجة زوجها بأنه كان وما زال وسوف يظل إلى نهاية العمر أول الأولويات وأهم الاهتمامات لديها على الرغم من كفاحها «البطولى» فى إدارة حياته وشئون بيته وأبنائه. . وكفى الله المؤمنين شر القتال . . والإنذارات المقدونية ! !

* * *



المقارنة العادلة

قرأتُ رسالة « وطيس المعركة » للرجل الفاضل الذى يشكو من انشغال زوجته عنه بأبنائهما ، ويفكر فى الارتباط بزوجة أخرى لهذا السبب وحده بالرغم من حبه لزوجته واعترافه لها بفضائلها ومزاياها الأخرى . . ولقد نكأتْ هذه الرسالة جرحًا شخصيًّا غائرًا عندى ، فرأيتُ أن أحكى له قصتى لعله يستفيد بها فى اتخاذ القرار السليم . .

فأنا رجل فى مثل عمره . . وأعمل عملاً مرموقًا مثله ، ولى زوجة فاضلة ـ كزوجته ـ كانت لى دائمًا الزوجة والأم والحبيبة والصديقة . . وقد وهبنى الله منها زهرتيْن جميلتين هما ولد وبنت فى سن أبنائه . . ومنذ فترة من الزمن بدأتُ أشعر بما يشعر به هذا القارىء الفاضل الآن من افتقادى لمسات الحب والحنان والدفء العاطفى من جانب زوجتى بسبب استغراقها فى رعاية الأبناء والاهتمام بأمرهم ، ، فأحسستُ بمثل ما أحس به كاتب رسالة « وطيس المعركة » ، وجال بخاطرى ما يجول بخاطره الآن .

وقررتُ الارتباط بأخرى فى لحظة من لحظات الضعف التى نشعر بها كرجال فى هذه المرحلة من العمر . . وارتبطتُ بإحدى زميلاتى فى العمل كانت تُظهر لى الحب والحنان والاهتمام وتتعامل معى برقة ، فرحتُ أقارن بين اهتمام هذه الزميلة بى ، وانشغال زوجتى عنى بأولادنا . . بين رقة الأخرى واهتمامها باللفتات العاطفية الصغيرة فى التعامل معى ، وتجاهل زوجتى لى لإرهاقها فى شئون الأبناء . . بين حديث الأخرى الحنون الرقيق معى ، وحديث زوجتى « العملى » المقتضب الذى لا يتجاوز غالبًا مطالب البيت والأبناء ومشاكل الأسرة . . حتى اقتنعتُ تمامًا بأننى «مظلوم » مع زوجتى ، ومن حقى أن أتزوج بزوجة لا يشغلها عنى شىء، ولا تنسى لغة العاطفة فى التعامل معى .

وتزوجت زميلتى . . واتفقت معها على أن تحتفظ بسرية زواجنا لفترة فى البداية خاصة فى مجال العمل . . لكن زوجتى الجديدة لم تتوانَ عن إظهار هذه العلاقة للآخرين فى كل مناسبة تجمعنا مع زملاء العمل ، حتى ثارتْ حولنا الأقاويل . . ومع ذلك فلقد شعرتُ بأننى قد حصلتُ على السعادة الصافية التى كنتُ فى حاجة إليها ، وبسبب استغراقى فى هذه السعادة تضاءل نصيب زوجتى وأولادى من وقتى ومالى . . لكن هذه السعادة الصافية الخالية من كل الشوائب لم تدم أكثر من أيام لمستُ بعدها مدى حقد وكراهية زوجتى الثانية ليس فقط لأسرتى الأولى ، بل ولكل أسرة أخرى مستقرة وتنعم بسعادتها علنًا وليس فى السر . . وتبدّل الحب والاهتمام والحنان الذى اجتذبنى إليها ورجح كفتها عند المقارنة إلى

طموحات شخصية ومطالب زائدة عن الحد على حساب الزوجة الأولى وأبنائها ، وبدأتْ الخلافات ـ تنشب بيننا على أتفه الأسباب . . وتبدلتْ السعادة الصافية ـ التى خُيِّلَ إلىّ أننى فزتُ بها ـ إلى شقاء وعذاب ضمير من ناحيتى لإحساسى بالتفريط فى حقوق زوجتى وأبنائى . . وخلال هذه المعاناة صدر القرار بنقلى فى عملى إلى دولة خارجية فى مركز أكبر يتطلب انتقال أسرتى معى ، وكان الطبيعى أن تكون زوجتى الأولى وأبنائى هم الأسرة التى تصاحبنى إلى مقر عملى الجديد . . لكن زوجتى الثانية فعلت كل شىء لإقناعى بترك أسرتى فى مصر كما هى واصطحابى معها بدلاً منها ، وتحت ضغط إلحاحها وافقتُ على ذلك ، وشجعنى عليه خوفى على أولادى من أن يتعرضوا للانحراف فى الدولة الأجنبية التى انتقلتُ إليها .

ونفذتُ النقل . . وفوجىء زملائى فى العمل، بل وحتى رؤسائى فيه، بأن هذه الزميلة سوف تصاحبنى إلى مقر عملى الجديد . . وانكشف بذلك أمر زواجنا للجميع ، وسافرنا معًا ، وبدأنا حياتنا فى هذه الدولة . . فإذا بزوجتى الثانية الرقيقة الحنون تتغير تغيرًا كاملًا هناك وتحاول أن تستغل قوانين ذلك البلد الأجنبى بطريق مباشر ـ وغير مباشر ـ لإرغامى على التخلص من زوجتى الأولى وأولادى الموجودين فى بلدنا الأم . . ولم تمض أسابيع على سفرنا حتى أصبحتْ تمثل ضغطًا نفسيًّا وعصبيًّا علىّ لأقصى درجة ، أضيف إلى إحساسى بالغربة وافتقادى أولادى ، حتى رحتُ ألفت نظرها إلى ما أشعر به من هموم الغربة لكى

ترأف بحالى وتُظهر لى بعض ما كانت تُظهره نحوى من حنان واهتمام فى أوقات الشدة . . لكن ذلك كان يزيد من نار الحقد والغيرة داخلها إلى مالا نهاية فشعرت بفداحة خطئى فى حق زوجتى الأولى وأبنائى فى الارتباط بزوجة أخرى على حسابهم . . وفى اصطحابها معى إلى مقر عملى الجديد دونهم .

وإننى أروى قصتى هذه لكاتب رسالة « وطيس المعركة » لكى أناشده ألا يكرر خطئى الذى أندم عليه الآن أشد الندم ، ولأقول له : إن السعادة التى سينالها مع أخرى لن تطول ولن تساوى شيئًا أمام بُعده عن زوجته التى يحبها وأولاده الذين يحتاجون إليه . . وأحذره من أن يخدعه لمعان الماء على سطح البئر اللعينة التى سقطتُ فيها ، لأن تحت هذا اللمعان ـ الذى يوحى كذباً بالصفاء ـ أكدار وشوائب كثيرة . . كثيرة !

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

نحن لا نتعلم الحكمة بغير ثمن يا صديقى ، وإنما لابد أن ندفع دائمًا ثمن أخطائنا من حياتنا وصحتنا وصفاء أوقاتنا . . وإذا كان العقلاء من البشر هم الذين يستفيدون من تجارب الآخرين فى تجنب الشقاء وعدم تكرار الأخطاء التى وقع فيها غيرهم ـ كما تريد صادقًا ومشكورًا لكاتب رسالة « وطيس المعركة » أن يفعل ـ فإنه يبقى هناك دائمًا مَن لا يرون الخطر الذى يسعون إليه حثيثًا إلا إذا سقطوا فى بئره ، ومَن لا يصدقون تحذيرات المخلصين لهم من جمر النار الذى تقترب أيديهم منه

إلا إذا مسّوه بأصابعهم واكتووا به ، وهذا هو حالنا نحن البشر منذ قديم الأزل .

ولقد أثارتْ رسالتكَ هذه تأملات عديدة لديَّ ، لكنى توقفتُ خلالها أمام هذا الخطأ القديم فى التفكير الذى طالما أورد الإنسان موارد الشقاء فى مثل هذه الظروف الشخصية . . وهو خطأ عقد المقارنة غير العادلة فى ذهنه بين اثنينْ غير متماثلين ، واستخلاص النتائج الخاطئة بالضرورة منها .

ولقد نبهنا المفكر الفرنسى الكبير « رجاء جارودى » إلى أن المقارنة العادلة إنما تكون بين « مثال » و «مثال»، أو بين « حقيقة » و «حقيقة»، وليست بين « مثال » « وحقيقة » أو « واقع » ، كما فعلت أنتَ حين عقدتَ تلكَ المقارنة الظالمة فى ذهنكَ بين « رقة » فتاتكَ وزميلتكَ فى العمل وحنانها بكَ واهتمامها بأمركَ ، وبين انشغال زوجتك الأولى عنكَ بأبنائها وشئون بيتكَ وأسرتكَ . . واهتمام فتاتكَ خلال مرحلة الارتباط الرومانسى الخالية من مسئوليات الحياة بلغة العاطفة واللفتات الصغيرة فى تعاملها معكَ وبين لغة الحياة العملية التى تستخدمها معكَ زوجتكَ فى الحديث عن شئون الأبناء ومشكلات الحياة . . إلخ . . ومع أن المطلوب دائماً هو ألا تغفل الزوجة لغة العاطفة فى تعاملها مع زوجها مهما يبلغ من استغراقها فى شئون الحياة العملية وهموم الأبناء، إلا أن المقارنة تبقى فى النهاية غير عادلة، لأنها مقارنة بين « مثال » عاطفى خلال فترة الحب الخالية من الهموم العملية ، وبين « واقع » عملى تختلط فيه

العاطفة بهموم الحياة والأبناء ومشكلاتهم وعناء رعايتهم ، ولهذا فلابد أن تكون نتيجة هذه المقارنه الظالمة لمصلحة « المثال » على حساب « الحقيقة» أو « الواقع » . .

ولو أردتَ الإنصاف لعقدت الآن هذه المقارنة نفسها ، ولكن بين متماثليْن هما « واقع » زوجتكَ الأولى، و « واقع » زوجتكَ الثانية، التى تقول أنتَ فى رسالتكَ : إنها قد تكشفتْ لكَ الآن عن حقد وكره عميقيْن ـ ليس فقط لأسرتك ، ولكن لكل أسرة تنعم بالاستقرار والسعادة فى حياتها ـ وطموحات شخصية زائدة ومطالب مادية لا نهاية لها ، على حساب زوجتك الأولى وأبنائكَ ، حتى أصبحتْ تمثل بالنسبة لكَ ضغطًا نفسيًّا وعصبيًّا شديدًا لا يترفق بك ، وإنما يضاعف من عناء حياتكَ فى الغربة ، وافتقادكَ لأسرتكَ وأبنائكَ .

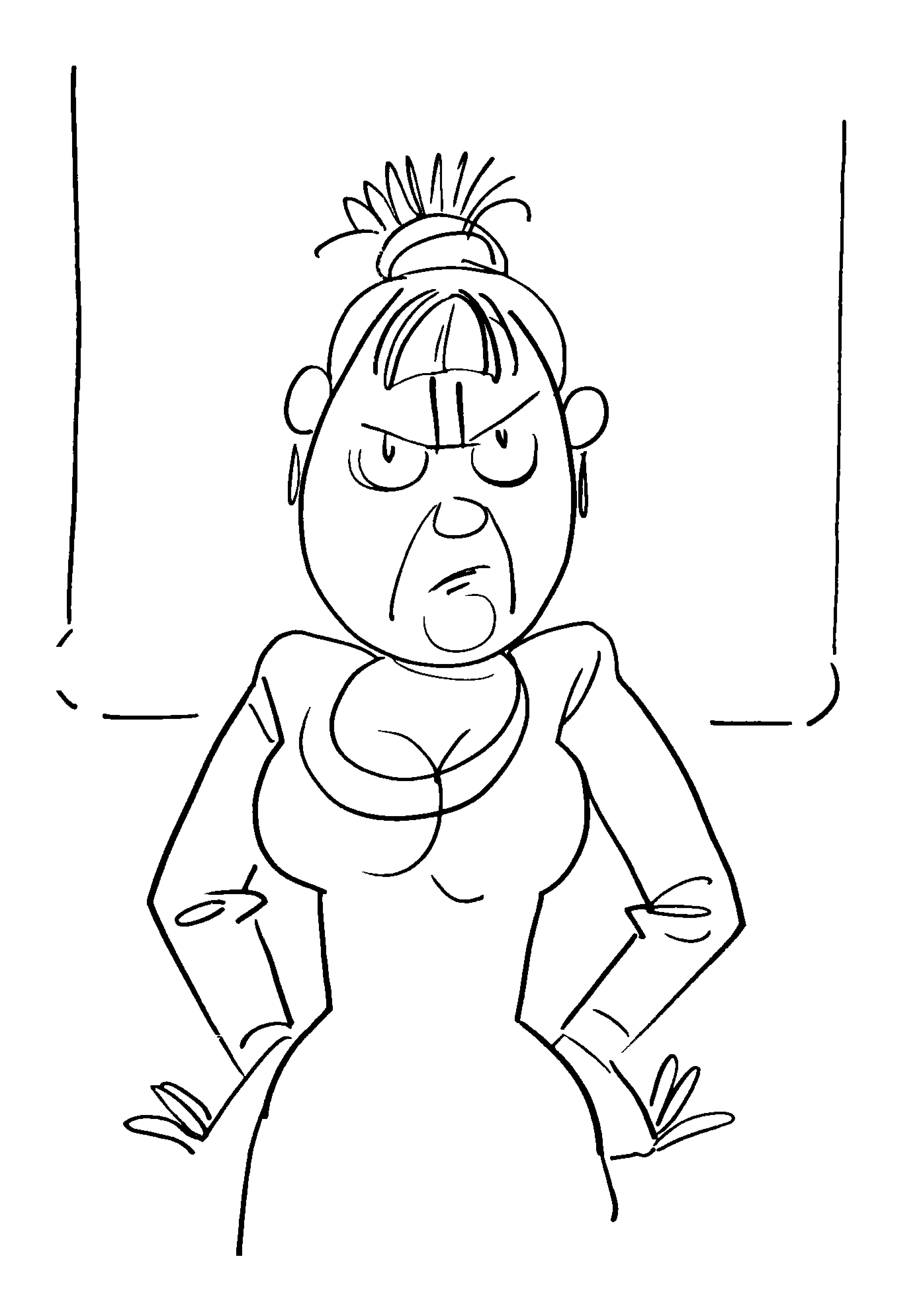
فلمن تكون المقارنة الصحيحة ـ لا الظالمة ـ هذه المرة ؟ . . وماذا تنتظر لكى تصحح خطأكَ فى حق زوجتكَ الأولى وأبنائكَ الذى تندم عليه الآن أشد الندم ؟

إننى أخشى أن يكون ندمكَ الحالى من نوع ندم « الرشيد » على حِنْثِهِ بقسمه لصديقه ووزيره «جعفر البرمكى»، ألا يناله منه سوء مهما يحدث بينهما فى المستقبل . . فلما وقعت نكبة البرامكة وسَجَنَ الرشيد صديقه السابق وصادر أمواله وأموال أسرته ، تذكر ذات يوم هذا القسم . . فندم على حنثه به أشد الندم . . وقرر أن يكفر عن ذلك بالحج ماشيًا إلى بيت الله الحرام . . وقام بهذه الرحلة الشاقة بالفعل وتكبد خلالها مشقات

كثيرة ، وتكبدتْ الدولة نفقات أكبر ، حيث أقيمتْ له على طول الطريق من بغداد إلى مكة الاستراحات الوثيرة . . وبالرغم من كل ذلك فإنه لم يفكر لحظة واحدة فى أن يكون تكفيره عن حنثه بهذا القسم بالإفراج عن وزيره وصديقه السابق وردّ بعض أمواله إليه . . فبقى فى سجنه حتى مات فى سن السبعين . . وهكذا ، فقد يندم الإنسان بالفعل على أخطائه ويكفِّر عنها ، ولكن فى الاتجاه الآخر الذى لا يعيد لضحاياه حقوقهم لديه أو يداوى جراحهم منه .

فهل ندمكَ من هذا النوع يا سيدى ؟ . . وهل تتصور أن هناك خطأ وقع فيه الإنسان ويمكن أن يصححه بغير خسائر مادية أو معنوية يتكبدها ويقبل بها العقلاء كثمن عادل لتصحيح الأخطاء والعودة إلى الطريق الصحيح ؟ !

****



الشَّخصِيةُ البَاهتَة

أنا سيدة فى السابعة والعشرين من عمرى . . نشأت فى أسرة تفضل الذكور على البنات ، فشاءتْ إرادة الله لها أن تكون كل ذريتها منهن . . وكنتُ الابنة الوسطى بين ثلاث بنات . . ومنذ طفولتى شعرتُ بالتفرقة فى معاملة أبى وأمى لى بالمقارنة بمعاملتهما لشقيقتى الكبرى والصغرى ، فكل منهما أكثر جمالاً منى . . وعلى مدى سنوات الطفولة وجدتُنى الكَمَّ المهمل الذى لا يميزه شىء بالنسبة للأختين ، فالكبرى هى الجميلة والعاقلة ، وموضع سر أمها ، وموضع فخر أبيها الذى يداعبها فى كل لحظة ويتنبأ لها أمام الضيوف بالمستقبل السعيد وينوّه بعبقريتها المبكرة . . والصغرى هى « اللذيذة » الشقية التى تحظى بتدليل الأبوين وحبهما الزائد ، والتى يضحكان من قلبيْهما على كل تصرفاتها وأفعالها ، وينوّهان بموهبتها فى الغناء بصوت جميل فى المناسبات العائلية . . أما أنا فشخصية باهتة بلا لون ولا طعم ولا موهبة فى شىء ، وليست لى رجاحة عقل أختى الكبرى ولا خفة دم الصغرى ، ولهذا فلا يتوقف أبى وأمى طويلاً أمامى ولا يجدان فىّ ما ينوّهان به أمام الأهل والأقارب .

ولقد حاولتُ التغلب على ما استشعرتُه من إهمال وتجاهل من جانب أبى وأمى بالتفوق فى الدراسة ، لكن آثار التفرقة فى المعاملة قد انعكست علىّ فى شىء آخر خطير أرجو ألا تحتقرنى حين تعرفه ، وهو أننى أصبحتُ أتمنى دائمًا الحصول على ما فى يد الغير ، وخاصة أختى الكبرى والصغرى . . فأنا أريد الحصول على ما فى حوزتهما ولو كان عندى مثله ، وإذا اشترتْ أمى لنا أحذية من محل واحد وبسعر واحد شعرتُ بأن حذاء أختى الكبرى أفضل من حذائى ، وأظل وراءها حتى تبادله بحذائى أو تتنازل عنه لى ضيقًا بإلحاحى عليها . . وهكذا أيضًا بالنسبة للفساتين والحقائب وكل شىء . . ولقد ظننتُ أن هذه الآفة سوف تذهب إلى حال سبيلها مع التقدم فى العمر ، لكنى وجدتُ الأمر يزداد سوءًا مع بلوغى سن الشباب، فلقد خطبتْ أختى الكبرى إلى شاب تحبه ويحبها ، ووجدتُ نفسى بغير وعى أبذل كل جهدى لاجتذاب اهتمامه إلىّ وأفعل كل شىء لكى أبدو ظريفة أكثر من العادة معه مما أثار غيرة أختى وغضبها ، وواجهتنى بذلك وعنفتْنى ، وتضامنت معها أمى وأسمعتْنى كلامًا قاسيًا . . فتعمدتُ بعد ذلك تجاهله ومعاملته بتحفظ .

وبعد زواج أختى توقفتُ عن استثارة غيرتها ونسيت هذا الأمر ، لكنى وجدتُنى أكرره مع زميلة لى بالكلية التى التحقتُ بها . . ففى السنة النهائية من دراستى وقع اختيارى على زميل لى وسيم وعلى خُلُق فركزتُ عليه اهتمامى لغير سبب سوى أنه مرتبط عاطفيًّا بزميلة من معارفى ، فتعاملتُ معه برقة مفتعلة ، وأظهرتُ له إعجابى به حتى لَفَتُّ نظره إلىّ

. . وأثرتُ غيرة زميلتنا وواصلتُ الاهتمام بهذا الزميل ، وانتهزتُ فرصة خلاف عابر وقع بينه وبينها فاستحوذتُ عليه . . ووضعتُ نصب عينى أن أتزوجه بدلاً من زميلتى . . وواصلتُ السعى إلى هدفى حتى سقط بالفعل فى شباكى واعترف لى بحبه ، وطلب منى الزواج .

وبعد عامين من تخرجنا تزوجنا ، وأنجبنا طفلاً . . وخلال ذلك خُطبتْ أختى الصغرى لشاب وسيم يعمل عملاً مرموقًا ويحبها بصدق وتحبه ، فإذا بالشيطان القديم يستيقظ فى أعماقى . . وإذا بى أجدنى أتعامل معه برقة زائدة ومفتعلة ، وأظهر له اهتمامى الكبير به حتى أثار ذلك انتباه زوجى وطلب منى التحفظ فى تعاملى معه ، فافتعلتُ الغضب الشديد عليه لشكّه فى أخلاقى ، وتصادمنا تصادمًا عنيفًا تخاصمنا على إثره لأكثر من شهر . . وحاولتْ أمى التدخل بيننا فلم أستطع أن أصارحها بالسبب الحقيقى للخلاف ، ولم يستطع هو كذلك أن يفعل . . وراح كل منا يتحدث عن أسباب واهية للخلاف ، وانتهى الأمر بالصلح فوق السطح ، أما فى الأعماق فمازالت الرواسب قائمة .

لقد امتنعتُ عن الوجود فى بيت العائلة خلال زيارات خطيب أختى الصغرى له ، وأعرف جيدًا أننى مخطئة ، وألوم نفسى حين أكون وحيدة . . لكنى أخفف عن نفسى بقولى : إنى ضحية لتفرقة أبى وأمى فى المعاملة بينى وبين أختى الصغرى والكبرى . . وأريد أن أتخلص من هذه الآفة لكى تهنأ لى الحياة مع زوجى ومع أسرتى ، فبماذا تنصحنى أن

أفعل ؟ . . مع رجائى لك أن تترفق بى لأنى معترفة بخطئى وأريد أن أصلح من نفسى .

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

من أسهل الأشياء أن يُرجع الإنسان أسباب تصرفاته اللاأخلاقية إلى عوامل وظـروف تأثر بها فى طفولته ، فيعتبر نفسه بذلك ضحية للآخرين وليس جانيًا على أحد ، ويعفى ذاته من كل لوم مكتفيًا بلوم الآخرين ، ويواصل أخطاءه « المبَررة » ـ من وجهة نظره ـ إلى مالا نهاية .

غير أن الأمر يختلف عن ذلك كثيرًا يا سيدتى . . فعوامل النشأة والظروف العائلية قد تصلح لتفسير بعض تصرفاتنا واختيارتنا فى الحياة ، لكنها لا تكفى وحدها أبدًا لأن تكون مبررًا منطقيًّا لارتكاب الأخطاء كما لو كانت سلوكًا قهريًّا لاحيلة لنا فى مقاومته أو الرجوع عنه ، بل إن الوعى بالدوافع النفسية القديمة لتصرفاتنا غير السوية هو فى حد ذاته دليل كاف على أننا نرتكب ما نفعله من سلوك وأفعال ونحن ندرك جيدًا خطأ ما نفعل ولا أخلاقيته . . وهذا هو الفارق بين الفعل الإرادى الذى نفعله بإرادتنا وندرك جيدًا أسبابه ، والفعل القهرى الذى نرتكبه بغير أن ندرك دوافعه لأنها كامنة فى أعماق العقل الباطن لدينا ولا ننجح غالبًا فى إدراكها ، إلا من خلال التحليل النفسى المنتظم أو الاستبصار الذاتى المجهِد الذى يحاول المرء فيه اعتصار ذهنه لمحاولة استبصار أو اكتشاف دوافع فعل قهرى يفعله لا إراديّا ولا يجد له تفسيرًا منطقيّا ، ويؤدى ظهور

هذه الدوافع على سطح العقل الواعى إلى أن تفقد قدرتها على دفعنا قهريًّا لارتكاب ما ننكره على أنفسنا من أفعال .

ولهذا فإن أسباب آفتكِ الحقيقية ليست فيما تعتبرينه تفرقة فى المعاملة بينكِ وبين أختيْكِ من جانب أبيكِ وأمكِ ، وإنما فى إحساسكِ الذاتى بالنقص تجاههما لتصورك الخاطىء أنكِ لا تتمتعين بما تتمتعان به من سمات شخصية ومزايا . . كما أن آفتكِ الحقيقية أيضًا هى رغبتكِ الداخلية فى إشعارهما وإشعار الآخرين بأنكِ لستِ أقل منهما جاذبية وقدرة على التأثير فى الغير ، إنْ لم تتفوقى عليهما فى ذلك .

وحالتكِ ـ على أية حال ـ ليست نادرة الوجود ، وإنما تعرفها بعض الأسر كثيرة الأبناء ، حيث يشعر أحيانًا الابن الأوسط بافتقاره لما يتمتع به الابن الأكبر من احترام الأبويْن باعتباره أكبر الأبناء وأكثرهم جدية غالبًا ، ولما يتمتع به الابن الاصغر من تدليل وحنان باعتباره آخر العنقود، فيدفع هذا الاحساس الابن الأوسط أحيانًا إلى محاولة إشعار الآخرين بوجوده ، وأنه لا يقل فى مزاياه عن الأخويْن الآخريْن . . وقد يتخذ التعبير عن هذه الرغبة لديه أشكالاً سوية كإثبات الذات عن طريق التفوق الدراسى مثلاً . . وقد يتخذ أشكالاً أخرى غير سوية كارتكاب الأخطاء التى تنقله من هامش الدائرة إلى بؤرتها ، ولو كان ذلك بإحساس بالسخط عليه وليس الإعجاب به .

وسن الواضح أنكِ قد اخترتِ محاولة انتزاع ما فى أيدى أختيْكِ سبيلاً لإشعار نفسكِ بالجدارة والاستحقاق مثلهما ، وأن هذه الآفة قد تطورت

لديكِ فى سن الشباب إلى ما يشبه الرغبة فى الانتقام المعنوى منهما بمحاولة اجتذاب خطيب كل منهما إليكِ لإشعارهما أنكِ لا تقلين عنهما جمالاً وجاذبية . . ثم بَلغتْ هذه الآفة ذروتها لديكِ فى تطلعكِ للفتى الذى ارتبطتْ به زميلتكِ بالكلية ، وانتزاعه منها لنفسكِ . .

فما الذى تريدين أن تثبتيه لنفسكِ يا سيدتى بعد كل ذلك ؟ !

هل تريدين اعترافًا متأخرًا من أبويْكِ بأنكِ كنتِ تستحقين الفخر والاعتزاز بكِ مثل أختيْكِ ؟! وهل ترين نفسكِ جديرة بذلك الآن بعد هذه الأخطاء المدمرة ؟ !

أم هل تريدين اعترافًا آخر من أختيْك بأنكِ لا تقلين عنهما جمالاً وجاذبية وقدرة على التأثير فى الرجال ؟ !

إن مجرد فهمكِ لدوافع ما تفعلين يكفى وحده لأن تمتنعى عن التطلع لما فى أيدى شقيقتيْك وأيدى الغير .

ولئن لم تبادرى بالندم على ما فعلتِ والاقتناع بأنكِ لستِ فى حاجة إلى أى إثبات آخر لميزاتكِ وسماتكِ الشخصية ، فسوف تعرضين حياتك الزوجية للقلاقل والاضطرابات ، ولسوف تحكمين على نفسك بالجحيم الأبدى . . وهو جحيم التطلع الدائم لما فى يد الغير ومحاولة الحصول عليه بلا طائل . . ذلك أنه إذا كان الزهد كما يقول أقطاب الصوفية ـ هو خلو القلب مما خلت منه اليد ، فإن الرضا والسعادة الداخلية والتعفف هى فى خُلُوّ القلب مما فى أيدى الآخرين .

***

العَاطِفَةُ الحـارّة

كتبتُ إليكَ أكثر من مرة بغير أن أتلقى ردًّا . . ولهذا فلسوف ألخص لكَ مشكلتى راجيًا المساعدة فى حلها . . فأنا رجل فى الخامسة والخمسين من عمرى ، لكنى أبدو للآخرين أصغر من سنى الحقيقية بكثير . . وأعمل عملاً مرموقًا ، وقد تزوجتُ منذ ثلاثين سنة زواجًا عائليًّا ، وأنجبت أبناء بلغوا الآن سن الشباب ، وتخرج أكثرهم فى كلياتهم . . ولقد عشتُ مع زوجتى حياة عادية بلا مشاكل حادة ولا عاطفة حارة فى نفس الوقت ، وإنما كان زواجنا ـ بصفة عامة ـ تقليديًّا وخاليًا من الإثارة العاطفية الملتهبة .

ومنذ سنوات تعرفت بامرأة مطلقة بدون أبناء استرحت إليها كثيرًا . وشعرت بدبيب العاطفة الحارة التى أفتقدها فى حياتى الزوجية . . واستمرتْ علاقتى معها عامًا كاملاً تقاربْنا خلاله كثيرًا ، ثم تزوجنا فى السر وبغير إبلاغ زوجتى بهذا الزواج أو إعلانه فى مجتمع العمل الذى نعمل فيه معًا . ولأن لها مسكنها المستقل ، فقد رحتُ أتردد عليها فى

مواعيد منتظمة ، وأنجبت منها طفليْن . . ولم تشعر زوجتى بأى تغير فى حياتى معها . . ثم واتتنى الفرصة للعمل فى الخارج لمدة سنة ، فسعدت بها لتحسين أحوالى المادية . . ولما حان وقت السفر ودعتنى زوجتى الأولى والأبناء بالدموع ، وكذلك فعلت الزوجة الثانية ، وكانت دموعها أكثر غزارة من زوجتى الأولى حتى كدتُ أضعف وأتراجع عن السفر .

وسافرت وحيدًا إلى مقر عملى ، وقضيت عام الغربة وحيدًا . . ثم رجعتُ مشتاقًا إلى أسرتى الأولى وزوجتى الثانية بوجه خاص ، فإذا بى أكتشف أن لها علاقة مع زميل آخر لنا فى العمل . . وتأكدتُ من هذه العلاقة الآثمة بنفسى ورأيت بعينيّ ما أكّدَ لى خيانتها ، فذهلت ذهولاً شديدًا وأحسست بطعنة خنجر فى صدرى . . وطلقتُها وأنا أشعر بالمهانة والغدر وجرح غائر فى كرامتى وقلبى .

وأخذت منها الطفلين واصطحبتهما إلى بيتى الأصلى ليعيشا معى ومع إخوتهما فيه ، فكانت الواقعة الكبرى! . . إذ كانت زوجتى الأولى - حتى هذه اللحظة - لا تعلم بأمر زواجى الثانى ولا بأن لى ابنيْن آخريْن عدا أبنائى منها . . وانفجر بركان الغضب الهائل فى وجهى ، وبدلاً من أن تساعدنى على تجاوز المحنة وتتقبل وجود الطفليْن فى حياتنا ، كثرتْ المشاكل بيننا وتفاقمتْ إلى أن بلغت حدًّا لم أجد معه مفرًّا من إرجاع الطفلين إلى حضانة أمهما .

واستمرت المشاكل قائمة بينى وبين زوجتى الأولى طوال الفترة الماضية

بسبب هذا الزواج ، مع التأنيب المستمر من جانبها والمعاملة الجافة والاتهام المتكرر لى بالخيانة . . فأضيق بما ألقاه منها وأجد نفسى أتجه بغير وعى إلى من خانتنى ولوثتْ شرفى فأجد عندها ـ للأسف ـ الراحة والمعاملة الناعمة واحتواء مشاكلى . . لكنى ما إن أغادر بيتها حتى أشعر بالذل والمهانة لعودتى إليها بالرغم مما فعلتْ بى وخيانتها لى خلال سفرى . ونتيجة لموقف زوجتى الأولى منى فقد أعدتُ زوجتى الثانية إلى عصمتى مرتيْن ، لكنى طلقتها فى كل مرة بعد الزواج بأيام لعجزى عن تجاوز خيانتها لى والصفح عنها .

وأنا الآن فى حيرة من أمرى وأريد مَن يساعدنى على الابتعاد عن هذه السيدة التى تجتذبنى إليها بمعاملتها الناعمة لى ، وزوجتى الأولى لا تساعدنى على ذلك بجفائها معى واتهامها المستمر لى بالخيانة . . ولقد أديتُ فريضة الحج لكى يعيننى الله على البُعد عن تلك السيدة . . لكنى أجد نفسى ـ بالرغم من ذلك ـ مسيَّرًا ولست سائرًا إليها . فهل أجد بين قارئاتك مَن رحل عنها زوجها بغير أن تنجب أو طُلقتْ لعدم الإنجاب ، ويكون لها مسكنها المستقل لأجد لديها راحتى المفقودة مع زوجتى الأولى . . وبُعدى المأمول عن تلك السيدة !

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

للفيلسوف الصينى « كونفوشيوس » كلمة حكيمة يقول فيها : «حين يخطىء الإنسان ثم لا يصحح خطأه ، فإنه يخطىء مرة ثانية » . . أما

حين يخطىء الإنسان ويدركُ خطأه فيرغب فى إصلاحه بارتكاب خطأ آخر ، فإنه ـ فى رأيى ـ يخطىء خطأ أشد ضراوة من خطئة الأول !

وأنتَ يا سيدى تريد حل مشكلتكَ ـ التى أوقعت فيها نفسكَ حين تزوجت من أخرى سرًّا وأنجبتَ منها ولديْن ـ بارتكاب خطأ ثان وهو الزواج من مطلقة لعدم الإنجاب ، أو أرملة بدون أبناء ولها مسكن مستقل ! فهل هكذا يستفيد الإنسان من درس تجربته ويصلح من أخطائه ؟ !

إنكَ ترغب فى هذا الزواج الثالث بدعوى أن زوجتك الأولى لم تتقبل وجود طفليْكَ من الأخرى التى تزوجتْها سرًّا فى حياتها . . ولم تنسَ غدركَ بها وخيانتكَ لها بهذا الزواج السرى . . وتُكثر من لومكَ واتهامكَ بالغدر والخيانة ، وقد جربتَ من قبل العودة إلى زوجتكَ الثانية فلم تطق الصبر على الحياة معها بضعة أيام لأن جرح خيانتها لكَ مازال حيًّا فى قلبك . . فلماذا تضاعف من مشاكلكَ ومتاعبكَ بمثل هذا الزواج الثالث ؟ ! ولماذا لا تصبر على زوجتكَ الأولى إلى أن تهدأ جراحها وتتخفف من جرح إحساسها بغدركَ لها فتتقبل وجود هذيْن الطفلين فى حياتها . . أو تسلم أنتَ ببقائهما مع أمهما مع استمرار مسئوليتكَ المادية والأدبية عنهما ؟ !

إن كل إنسان له قدرته على الاحتمال التى لا يستطيع مهما أراد أن يتجاوزها . . وأنتَ قد صدمتَ زوجتكَ التى عاشرتكَ ثلاثين عامًا

وأنجبتْ لكَ أبناءً بلغوا سن الشباب صدمة العمر حين رجعتَ إليها ذات يوم وفى يدك طفلان تزف إليها « البشرى » بأنهما أخَوَان مجهولان لأبنائكَ منها . فكيف تعجب لانفجارها بالغضب ضدكَ وجفائها ولومها المستمر لكَ لبعض الوقت ؟

. . ولماذا لا تعينها أنتَ على الصفح وتجاوز ما حدث بإظهار الندم الصادق على غدركَ بها ، والسعى بإخلاص لاستعادة ثقتها المفقودة فيك؟

إن مَن يخطىء لا يحق له الشكوى من لوم الآخرين له على خطئه فى حقهم . وإنما عليه أن يتقبل هذا اللوم بصدر رحب ويتصبّر عليه إلى أن يصفح عنه مَن أخطأ فى حقه . ولهذا فلا عجب فى أنكَ تجد لدى زوجتكَ الأولى اللوم والعتاب ، فى حين تجد لدى الأخرى التى خانتكَ فى سفركَ « الراحة » ونعومة المعاملة . . لأنكَ المخطىء فى حق زوجتك الأولى وليست هى ، ولأن الثانية هى المخطئة فى حقكَ ولستَ أنتَ . . وكل مخطىء ينبغى له الاعتذار لمن أخطأ فى حقه ، ومن واجبه أن يخطب وده لكى يصفح عنه .

فلماذا لا تفعل أنت مع زوجتكَ الأولى ما تفعله الثانية معكَ لكى تعينها على الصفح والنسيان ؟ . . ولماذا لا تساعدكَ بالفعل زوجتك الأولى على عدم التخبط بين الثانية التى تجتذبكَ إليها بنعومة المعاملة والعاطفة الساخنة المزيفة ، والتفكير فى زواج ثالث هربًا من إحساسكَ بالمذلة والمهانة بعد كل عودة لهذه المرأة ؟

لا شك أن زوجتكَ الأولى تستطيع بحكمتها وحرصها على سعادة أبنائها واستقرار حياتهم العائلية أن تفتح لكَ باب الصفح والغفران ، وأنْ تتجاوز عما حدث منكَ فى حقها ، وتبدأ معكَ صفحة جديدة لا تشير فيها إلى الماضى ، الذى لا يمكن تغييره ولا جدوى من إثارته سوى نكأ الجراح ، بدلاً من إعانتها على البُرْء والشفاء . . أما حكاية « العاطفة الساخنة » هذه فلا داعى للبحث عنها من جديد بعد أن اكتويت بنارها مع الثانية ، ودفعتَ ثمناً مؤلماً لاستمتاعكَ بها خارج نطاق حياتكَ العائلية المحترمة . . لبعض الوقت !

* * *

العِبَارةُ القَاتِلَة

قرأتُ رسالة « العاطفة الحارة » للقارىء الذى قال : إنه كان يفتقد حرارة العواطف مع زوجته ، فاستسلم لتأثير زميلة له بالمكتب ـ أبَدتْ نحوه اهتمامًا وحنانًا ـ وتزوجها ، فتكشفتْ له عن شخصية أخرى . . وأرجو أن تسمح لى بأن أقص عليك قصتى التى تختلف تمامًا عن هذه القصة .

فلقد تزوجت منذ سنوات بعيدة من فتاة لم تحصل حتى على الشهادة الابتدائية التى يحصل عليها الصغار ، وخُيِّل إِلَىّ وقتها أننى أستطيع أن أجعل منها زوجة متفتحة . . وخلال السنوات العشر الأولى من الزواج أنجبتُ منها خمسة أبناء تعلموا جميعًا تعليماً عاليًا والحمد لله . . وأصبح منهم الآن المهندس والطبيب والمحاسب والمدير المساعد . . إلخ ، وبدلاً من أن تحمد الله على نعمته وتقدر لى كفاحى فى تربية أبنائى على الدين والأخلاق وتَقَوَى الله ، فقد أخذها الغرور والغطرسة وأصبحت تسخط على كل شىء ، وتحرض الأبناء ضدى بدعوى أننى أسىء معاملتها . .

وزادت حياتى معها جحيماً ، فاستعنت بالصلاة والصبر إلى أن يقضى الله أمرًا كان مفعولاً ، وذلك حرصًا على سمعتى وسمعة أبنائى بين الجيران .

إلى أن كان يوم كنا نجلس فيه أمام التليفزيون نشاهد برنامجًا دينيًّا ، فاستمعنا إلى فضيلة الشيخ « عطية صقر » يقول فى البرنامج (ما معناه) : إن الزوجة الصالحة تدخل الجنة بطاعة زوجها . . فإذا بها تقول ـ ودون أن أسألها عن رأيها فيما سمعناه ـ إنه إذا كان دخول الجنة يتوقف على طاعة الزوج فلستُ أريد دخولها ! . . فكان لهذه العبارة القاتلة منها أثر سيىء للغاية فى نفسى ، وما كان منى إلا أن حرمتُها على نفسى تحريماً أبديًّا ، وأفهمتُها أنها حرة : لها أن تترك البيت إذا شاءت، ولها أن تبقى فيه حيث أنه لا مأوى آخر لها .

وفكرت فى أمرى وماذا أفعل بحياتى ، ففكرتُ فى أن ألتحق بإحدى دور الضيافة للإقامة فيها ، ثم عدلتُ عن هذا التفكير وفكرتُ فى البحث عن زوجة مناسبة لى فى السن تكون أرملة وتعيش وحيدة ، وترغب فى أن تؤنس وحدتها بمَن يتحمل عنها أو معها تكاليف الحياة . . وإنى أشعر بالخجل من هذا المطلب الذى أتقدم إليك به على الرغم من شدة حاجتى إليه ، فهل تعيننى على تحقيقه (علماً بأننى قد تخطيتُ الخامسة والسبعين من عمرى) ؟!

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

يا سيدى هَوِّن على نفسك ، فلقد قلتَ فى رسالتكَ إنكَ قد تزوجتَ من «فتاة» لم تحصل حتى على الشهادة الابتدائية التى يحصل عليها الصغار ، ويبدو أنها لم تعوض نقص تعليمها بخبرة الحياة والحكمة الفطرية التى يهبها الله لمن يشاء . . فلماذا تعاقبها إذن على جهلها ـ بالقياس بعلمك وحكمتك ؟ . . ولماذا لا تتجاوز عن الأمر كله لكيلا تعرّض حياتكَ العائلية للقلاقل والاضطراب وأنتَ فى سن الجلال والاحترام ؟

إنك تقول : إنكَ قد تجاوزت الخامسة والسبعين من العمر . . ومعنى ذلك أن زوجتك لابد أن تكون قد تجاوزت الآن الستين أو الخامسة والستين على أقل تقدير ، وبالتالى فقد عاشرتها مالا يقل عن أربعين عامًا ، أفلا يشفع لها ذلك فى أن تتجاوز عن هذه العبارة السخيفة التى أطلقتْهَا فى لحظة حمق وجهل ؟! . . أو تكتفى بما عاقبتَها به فى حينه من قطيعة وتنسى الأمر كله ؟!

إن الإقدام على الزواج فى هذه المرحلة من العمر سوف يعرّض زوجتك لمحنة قاسية وسيعرّض أبناءك الكبار كذلك لحرج عائلى بالغ . . بل وسوف يعرّضك أنتَ قبل الجميع لما لا تحتمله من اضطرابات وعناء . . فلماذا كل هذا العناء يا سيدى ؟ . . ولماذا لا تحتمل شريكة العمر إلى النهاية وترجو أجر الصابرين ممن لا تضيع عنده الأجور ؟

أمـا عـن تحريمهـا على نفسكَ ، ففى صحيح مسلم عن « ابن عباس » أنه قال : إذا حرّم الرجـل امرأتـه فهى يَمينٌ يُكفِّرها ، وفى رواية أخرى أن رجلاً جاءه وقال له : إنى جعلتُ امرأتى عَلَيّ حرامًا ، فقال له ابن عباس : كذبْت ، ليستْ عليكَ بحرام ، ثم تـلا قولـه تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ۚ ﴾(١) .

صدق الله العظيم .

وبهذا فإن عليك كفارة يمين لكى تعدل عن هذا التحريم ، وهى كما تعلم إطعام عشرة مساكين إذا كنتَ قادرًا ، أو صيام ثلاثة أيام إذا لم تكن كذلك .

فكَفِّرْ عن يمينكَ . . وعِشْ أيامكَ فى سلام ولا داعى للمشاكل !

***

---

(١) سورة التحريم ، الآية ١ ، ومن الآية ٢ .

عُشُّ الطَّائِر

أنا شاب فى العشرينيات من عمرى . . شاء لى القدر أن أحب فتاة وأنا طالب فى نهاية المرحلة الثانوية . . واستمر الحب قويًّا بيننا حتى بلغتُ عامى الجامعى الثانى ، ثم شعرتُ بأن فتاتى هذه سوف تخرج من حياتى إلى الأبد وسوف تتزوج غيرى بضغط شديد من أهلها ، وبضغط أشد من ظروفها الاجتماعية القاسية . . فلم أُطِق صبرًا . . وتوجهتُ بلا تردد إلى أهلها ، وطلبتُ يدها على الرغم من اعتراض أهلى على ذلك . . وتمسكتْ بى فتاتى ، فاستجاب أهلها لنا ووافقوا على زواجنا . . ولأننى أعمل فى محل تجارى بعد الدراسة يملكه أحد أقاربى ، فلقد اعتمدتُ على نفسى فى تقديم شبكة متواضعة ، واستأجرتُ فى مدينتنا بالأقاليم شقة صغيرة من غرفة وصالة ، وتم عقد القران والزواج خلال شهر واحد .

وغادرتُ بيت أبى وبدأتُ حياتى الزوجية مع الفتاة التى أحببتُها وأحبَتْنى منذ ٤ سنوات . وبعد شهر واحد من زواجنا جاء أبى وتحدث

إلىّ بلطف ، ودعانى للعودة إلى بيته ومعى زوجتى . . واستجبت لرغبة أبى ، وتركت الشقة والعمل أيضًا استجابة لرغبة أبى ، وليتنى لم أفعل . . فلقد بدأتْ المشاكل من جانب شقيقاتى .

وشاءت إرادة الله خلال ذلك أن تحمل زوجتى على غير رغبة منى أو منها ، فازداد الموقف تعقيدًا . . وبالرغم من أن أبى وأمى قد أحبّا زوجتى ، إلا أن كثرة المشاكل قد جعلت أبى يضيق بى ذرعًا فى النهاية ويطردنى من رحمته وبيته أنا وزوجتى بغير أن يعطينا شيئًا مما جهزتهُ زوجتى للزواج . . وفى يوم مشئوم غادرتُ أنا وزوجتى بيت أهلى لا نملك إلا ما نرتديه من ملابس ، وتركنا وراءنا غرفة نوم كاملة قديمة كنت قد أحضرتها ، والغسالة والبوتاجاز والكاسيت وملابسى وملابس زوجتى ، ونصحنى أحد الخيرين بأن أترك كل شىء إلى أن تهدأ الأمور ، ففعلتُ ذلك . . ونزحتُ عنَ بلدتى بالشرقية إلى القاهرة موطن زوجتى ، وواجهنا الحياة معًا بلا سكن ولا عمل ولا مال ولا شىء سوى ما يجمع بيننا من حب ورغبة فى أن يسعد كلٌ منّا الآخر .

ومضت علينا أيام قاسية ، لكنى لم أفقد صبرى ولا إيمانى بحقى فى الحياة ، وأقسمت أمام الله أن أحافظ على زوجتى ، وأن نعتمد على أنفسنا وألا نحتاج إلى أحد ، وأن أكمل تعليمى مهما واجهنا من صعاب . . إلى أن يأتى اليوم الذى يقتنع فيه أبى بأن زواجى لم يضرّ بى ولم يؤثر على تعليمى كما كان يتخوف .

وبعد أيام مريرة استطعت تأجير غرفة ـ أو «عشة» بمعنى أصح

بالقليوبية على مشارف القاهرة ووفقَنا الله إلى العمل أنا وزوجتى فى محل للحلويات والأطعمة فى الهرم ، فأصبحنا نذهب إليه سويًّا فى الصباح ونرجع منه معًا فى المساء إلى غرفتنا أو « عشتنا » ، فنسعد بقضاء ساعة هادئة فى الحديث معًا ، ونتناول طعام العشاء فى سكينة ، ثم نستسلم لنوم ثقيل يزيح عنا شقاء اليوم الطويل فى العمل وركوب المواصلات .

ولعلكَ تعتقد يا سيدى أننى أكتب إليكَ رسالتى هذه لأننى محتاج إلى معونة مادية . . لا والله . . فلقد كتبتُ إليك لأننى أحتاج فقط لأن تقف إلى جانبى فى العثور على غرفة بأية منطقة بالهرم بالإيجار وبدون مقدم ، لأن المسافة بين المكان الذى أقيم فيه والعمل طويلة جدًّا ومرهقة للغاية ، لأن المنطقة التى نسكن فيها حاليًّا أيضًا مليئة بالعاطلين ومعروفة بعدم الاستقرار ، فهل تساعدنى فى ذلك ؟ . . وهل تستجيب لرغبتى فلا تشير إلى اسمى أو عنوان العمل فى هذه الرسالة لكيلا أرى نظرة شماتة فى عين أحد ؟

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

الأصل فى تعبير « عش الزوجية » الذى نستخدمه كثيرًا فى الإشارة إلى البيوت الصغيرة الجديدة ، أنه تشبيه لها بعش الطائر الذى يبنيه مع وَليفِه قشه قشة ، ثم يهجعان إليه فى النهاية ويشعران فيه بسكينة القلب والأمان .

ومن طبيعة هذا العش أن يتم بناؤه ببطء وبالتعاون المشترك بين

الأليفيْن اللذيْن اختار كل منهما الآخر ليخصه بمودته ويحيا إلى جواره ، كما أن من طبيعته أيضًا أن يكون دافئًا بالعطف والحب والمشاركة ، و إلا فلن يفقس البيض داخله و يفرخ أفراخه الصغيرة الحبيبة .

ومن البيوت الزوجية ما ينطبق عليها هذا التعبير المجازى بمعناه الصحيح مهما كان تواضعها وبساطتها ، ومنها مالا يستحق وصفه به مهما كانت رياشها ورفاهيتها .

ولا شك أن هذا التعبير الشاعرى ينطبق بمعناه الصحيح على المكان العارى الذى يحتويكَ الآن أنت وزوجتكَ ، وسوف ينطبق أيضًا على أى مكان آخر تنتقلان إليه ، ما ظل الحب والعطف متبادليْن بينكما على النحو السليم .

لقد اخترتَ أيها الشاب حياتكَ وتحملتَ تبعات اختياركَ ، ولاشك أن أبويْكَ كانا يفضّلان لكَ أن تنهى دراستكَ وتستقر فى عمل مأمون أولاً قبل أن تتحمل مسئولية زوجة وأسرة صغيرة جديدة . . لكن ما جرى قد جرى ، ولا مفر الآن من مواجهة الواقع والتعامل معه بشجاعة . .

فإذا كان لى أن أطلب منكَ شيئًا فهو ألا تقطع أنتَ ما بينكَ وبين أبويْكَ و إخوتكَ حتى ولو كانوا قد باعدوك . . فلكل طرف رؤيته فى جوانب المشكلة ومبرراته التى لا تخلو من منطق لموقفه منها . غير أن العلاقات العائلية ينبغى لها أن تكون فوق الخلافات الطارئة مهما بلغتْ

مرارتها فى بعض الأحيان ، ولابد لما انقطع بينكَ وبين أبويْكَ وذويكَ أن يتصل من جديد ذات يوم قريب . وخير ما تُسعد به أبويْكَ هو أن تحقق بالفعل ما عاهدتَ نفسكَ عليه حين خرجتَ لمواجهة الحياة مع زوجتكَ عقب مغادرتكَ أو طردكَ من جنة الأهل ، وهو أن تستكمل مشوار تعليمكَ ، وتحقق نجاحكَ فى الحياة العملية ، وتعتمد على نفسكَ فى بناء حياتكَ ، فترجع إلى أهلكَ فائزًا منتصرًا ولستَ منهزمًا كسيرًا .

والحق أن أبويْكَ هما أول مَن يسعدان بنجاحكَ فى دراستكَ وحياتكَ، وبسعادتكَ مع زوجتكَ حتى ولو كانا قد اعترضا على زواجكَ المبكر . . فالآباء والأمهات قد يعترضون على اختيار الأبناء إشفاقًا عليهم من التعاسة والفشل . . لكنهم هم أنفسهم أول مَن يسعدون فى أعماقهم إذا أثبتتْ لهم تجربة الأيام خطأ توقعاتهم . . ومعارضتهم لمثل هذا الزواج ليست سوى إشفاق مغالى فيه ـ فى بعض الأحيان ـ على الأبناء من المعاناة والانهزام فى معركة الحياة التى خاضوها قبل أن يستعدوا لها الاستعداد الكافى . .

ومن واجب الأبناء أن يقنعوا الآباء والأمهات بسعادتهم وبصواب اختياراتهم ، وبأنّ هذه الاختيارات نفسها كانت قوة دفع لهم إلى الأمام ولم تكن كما تخوّفوا قوة جذب إلى الوراء . . وهذا هو التحدى الذى يواجهكَ الآن أنتَ وزوجتكَ الشابة . . والواضح أنكما قد قبلتُما به وتتحملان تبعاته بصبر وكفاح ، فواصلا حياتكما وكفاحكما ، وتمسكا

بحياتكما وسعادتكما وحبكما ، ودافعا عن كل ذلك ضد قوى القبح واليأس والانهزام . . وتفضل بزيارتى أو الاتصال بى لتدبير ما طلبتَ . . والله المستعان على كل أمر عسير .

***

النُّقطَـةُ السَّـوْدَاء

أنا زوجة رجل معروف وله مكانته فى المجتمع وسمعته الطيبة وتدينه المشهود له به . . وقد رزقنا الله سبحانه وتعالى البنين والبنات ، ومضت رحلة العمر بخيرها وشرها، وكبر الأبناء وتزوجوا ، وأصبح لنا الآن ٤ أحفاد نسعد بهم ونشعر بامتدادنا فيهم . . ولقد تغير كل شىء تقريبًا فى الحياة منذ تزوجتُ قبل ثلاثين عامًا إلا شيئًا واحدًا لم يتغير فى زوجى ، وهو النقطة السوداء الوحيدة فى شخصيته التى لم أجد لها دواء ولا شفاء حتى الآن .

فمنذ سنوات زواجنا الأولى اكتشفتُ فيه أسوأ ما يمكن أن يبتلى به إنسان من مرض ، وهو داء الخيانة مع الشغالات . . وحين اكتشفتُ ذلك أصررتُ على الطلاق أكثر من مرة ، وفى كل مرة كان يستعطفنى أن أصفح عنه وأتجاوز عما حدث ، ويعتذر عنه بأنه لم يكن فى وعيه أو بأنه من طيش الشباب . . . إلخ . . وكنتُ أصفح فى النهاية وأصبر من أجل

أطفالى . . وبعد وفاة أبى ووفاة والدَىْ زوجى اللذيْن كنتُ أشكو لهما مما يفعل بى زوجى فيخففان عنى ، سلمتُ بأن هذا هو قدرى فى الحياة ، واتجهتُ لربى وتركتُ عملى . . وتفرغتُ لتربية أبنائى والعناية بزوجى . . وكنتُ امرأة شديدة الجمال والإثارة ، وربة بيت من الطراز الأول ، وأُمًّا تحنو على أبنائها ، وزوجة لا تحتمل أى شىء يمس أسرتها . . كما حرصتُ على أن أفعل كل شىء يرضى زوجى ، وأن أشبع رغباته هو وأكبت رغباتى ، فأفاجأ بعد كل ذلك بالشغالة التى تعمل عندى تجىء إلىّ وترجونى ألا أتركها فى البيت وحدها مع زوجى فى أى وقت من الأوقات لأنه يفعل أشياء لا يرضى عنها الله ! . . فأكاد أصرخ حين أسمع ذلك ، وأسأل نفسى : ماذا يدعوه إلى مطاردة الشغالات صغيرات السن ، وأنا أقدم اه كل ما يطلبه الرجل من امرأة؟ . . ثم أضطر فى النهاية إلى الاستغناء عن خدمات هذه الشغالة وقطع رزقها ، وتعويضها ماديًا عن ذلك .

ومع تكرار هذه النقطة السوداء ماتت بداخلى أشياء كثيرة كالغِيرة والكرامة الشخصية والثقة بالنفس ، وأصبح كل ما يشغلنى الآن هو حسن الختام . . وأتساءل بإشفاق : كيف سيواجه زوجى ربه بكل هذه الخطايا وهو الذى يؤدى الفرائض الدينية فى العمرة ، ثم يرجع بعد ذلك إلى هذه الأفعال المخزية ؟!

إن زوجى ـ بالرغم مما بلغ من العمر والمكانة ـ مازال يطارد كل شغالة تعمل عندى ، ولا يتورع عن مغازلة صديقاتى وزميلاتى فى العمل ـ

ومعظمهن صغيرات السن ـ حتى إنه لم يَدَعْ فتاة عمرها ١٥ سنة بدون أن يتحرش بها ويغازلها . . ولقد لجأتُ إلى الطبيب النفسى منذ عدة سنوات وشكوتُ له مما أعانيه، فطلب أن يلتقى بزوجى ويتحدث معه، فلما عرضتُ ذلك عليه رفض بإصرار الذهاب معى إلى الطبيب واستاء كثيرًا لمجرد تفكيرى فى ذلك .

والآن يا سيدى ـ وبعد أن تزوج الأبناء واستقروا فى بيوتهم الصغيرة ـ لم أعد قادرة على مواصلة التحمل والصبر على أفعال زوجى هذه . . إننى مازلت ربة البيت التى لا يأكل زوجها إلا من صنع يديها، والزوجة المحجبة خارج البيت والتى تهتم بنفسها وزينتها داخله، وتدعو لزوجها بالهداية فى كل صلاة . . لكننى فقدتُ آخر قطرة من قدرتى على الصبر والاحتمال بعد آخر حادث مخجل لزوجى مع آخر شغالة عملتْ عندى ، وكان ذلك منذ بضعة أسابيع فقط ، فقد جاءتنى الفتاة الصغيرة باكية وقد جمعت أشياءها لتستأذننى فى الرحيل بسبب ما تعرضتْ له من مضايقات زوجى، وبسبب تحرّشه بها فى كل مرة تُقدم إليه فيها شيئًا . . ولقد أثار أحزانى أننى وجدتُ هذه الفتاة الصغيرة تشعر بالإشفاق علىّ ولا تصدق ما يحدث ! وتقول لى إننى لا أستحق ذلك من زوجى . . وهنا فاض بى الكيل نهائيا وفكرتُ جديا فى طلب الطلاق لأن أبنائى قد كبروا الآن ولم يعد لَدَىَّ ما يدعونى للاحتمال من أجلهم، لكنى تحيرتُ فيما سأقوله للأبناء عن سبب طلبى للطلاق وتمسكى به وقد بلغتُ أنا ووالدهم هذه المرحلة من العمر . . إننى لم أخبر زوجى حتى الآن بعلمى

بواقعته الأخيرة مع الشغالة الصغيرة، وأفكر جديا فى هجر البيت أو طلب الطلاق والإصرار عليه. . فبماذا تنصحنى أن أفعل بعد أن تكاثرتْ علىّ الآلام الجسدية فى الظهر والساق والذراع ، وارتفع ضغطى بسبب ما أعانيه من هذه الأفعال المخزية ؟!

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

الهَوَسُ بالفتيات صغيرات السن ومطاردة الشغالات، نوع من الانحراف النفسى المؤكد الذى يستعصى على العلاج بالجهود الشخصية، ويتطلب علاجًا نفسيّا منتظمًا ، وإلا تفاقمتْ أخطاره وعَرَّضَ صاحبه للوقوع ذات يوم تحت طائلة القانون متهمًا بارتكاب جريمة الاعتداء على قاصر أو التحرش بها. . غير أن آفة معظم مَن يعانون هذا الانحراف النفسى هى أنهم يجدون صعوبة شديدة فى الاعتراف لأنفسهم بأنهم مرضى ويحتاجون للعلاج ، ويفضلون دائمًا التهرب من مواجهة هذه الحقيقة، والتماس الأعذار المختلفة لأنفسهم فى كل مرة يفتضح فيها أمرهم ، كما أن الآخرين قد يجدون أيضًا صعوبة مماثلة فى تصديق صدور هذه الأفعال المخزية عنهم ، لتناقضها الشديد بين المظهر الوقور لهم وحقيقة ما يصدر عنهم فى الخفاء من تصرفات مخجلة .

ولهذا فإننى أرى لكِ أن تواجهى زوجكِ بما علمتِ عن واقعته الأخيرة مع الشغالة الصغيرة، وأن تخيِّريه بحزم نهائى هذه المرة بين الرضوخ

للحقيقة والاعتراف بحاجته إلى العلاج النفسى ، وبين الانفصال عنه ، مع ما سوف يترتب عليه من آثار عائلية وخيمة وإزعاج للأبناء وإثارة للتساؤلات المؤلمة فى الأوساط العالية المحيطة بكم . . وإنْ كنتُ أتعجب يا سيدتى مما كان يدعوكِ للاستعانة دائماً بهؤلاء الشغالات الصغيرات فى بيتكِ وقد علمتِ عن زوجكِ منذ زمن طويل ضعفه المخزى مع الفتيات وتحرشه بهن ومطاردته لهن . . إن كثيرات من الزوجات اللاتى عرفن عن أزواجهن مثل هذا الضعف الأخلاقى وهذا الميل المنحرف للتحرش بالصغيرات، قد حَرَّمْنَ بيوتهن - كإجراء وقائى - على مثيلات هؤلاء الفتيات، وتكبدن فى سبيل ذلك العناء راضيات به ، بدلاً من إتاحة الفرص لأزواجهن للاستجابة لهذا الهوس الذى قد يصل ببعضهم إلى ما يسميه علماء النفس «الرغبة القهرية» فى ممارسة ما يعرفون جيدًا أنه يتناقض مع كل القيم والأخلاقيات، ومع حرصهم على سمعتهم ومكانتهم العائلية بين الأبناء وفى المجتمع .

إننى أعرف أن ذلك ليس حلاً جذريّا للمشكلة، لكنه - على الأقل - خطوة لتضييق فرص الخطأ أمام زوجكِ ، ولتفادى أسباب المشاكل التى عانيتِ منها الكثير والكثير .

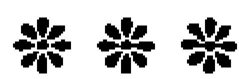
ولقد قلتُ مرارًا : إن الوسيلة الوحيدة للتعامل مع الأزواج الذين يدمنون الاستجابة لنزواتهم وأهوائهم - إذا دعت الضرورة الزوجة إلى الحفاظ على حياتها الزوجية بسبب مصلحة الأبناء والاعتبارات الأخرى - هى أن تحاول الزوجة بقدر الإمكان تضييق فرص الخطأ أمام زوجها، وأن

تنصرف بعد ذلك إلى العناية بأبنائها وأسرتها ونفسها مُحاوِلةً حماية معنوياتها وحالتها النفسية من التأثر بهذه الخيانات المخجلة . . ولا غرابة فى ذلك لأن الخطأ إنما يعيب مرتكبه أولاً وأخيرًا، وليس ضحيته . . وقد يكون من الصحة النفسية فى بعض الأحيان ألا يدمى الإنسان رأسه بنطح الصخر محاولاً علاجه، مع التمسك بالأمل فى أن يعالج الزمن ما عجز هو عن علاجه ، وفى أن يثوب المخطىء إلى رشده ذات يوم ويدرك كم أَدْمَى قلوب من أحبوه وأخلصوا له بمثل هذا العبث الطائش !

إن الخيانة شىء مؤلم للنفس حقّا يا سيدتى . . وهى تصبح أكثر إيلامًا حين تجىء فى سن الجلال والاحترام وبلا أى مبرر سوى الاستجابة لأهواء النفس ونزواتها وبحثها العابث عن المتعة العابرة . . فقولى لزوجكِ يا سيدتى كل ذلك ، وحاولى إزالة الغشاوة عن عينيه ليرى فداحة الجُرم الذى يرتكبه فى حق ربه ونفسه وزوجته وأبنائه بمثل هذا العبث الصبيانى، وذَكريه بواجباته تجاه أبنائه فى ألا يحرجهم ـ وهم أزواج وزوجات ـ بمثل هذه الخطايا الفاضحة التى قد تنفجر فى وجوههم وتحرج مراكزهم العائلية ذات يوم قريب . واحمليه على الاعتراف بأنه يعانى من انحراف نفسى قابل للعلاج إذا تعامل معه بجدية، والتمسى له أسباب الشفاء لدى الطبيب المختص .

أما الانفصال الآن أو هجر البيت بعد كل هذه السنين وبعد أن بلغتْ السفينة مرفأ الأمان ، فلسوف يؤلم أبناءك بأكثر مما تحتمل شخصيتكِ المضحية التى تحملتْ عناء الرحلة الطويلة من أجلهم . . كما

أنه ليس من العدل ولا الرحمة أن تضطرب حياتكِ وأنتِ فى هذه المرحلة من العمر ـ وبعد كل ما قدمتِ للحياة والأبناء والزوج ـ بسبب هذا الطيش الجنونى من زوجكِ، وإنما يقضى العدل أن يعفيكِ هو من كل ذلك، وأن يثوب إلى رشده وربه ويعوضكِ عن شقاء السنين بما يشعركِ بالكرامة والسعادة والأمان .





مَوضُوعُ الجِدَال

أنا سيدة فى الثانية والأربعين من عمرى وزوجة لرجل فاضل وإنسان بمعنى الكلمة . . وقد أنجبتُ منه على مدى ١٢ عامًا ثلاثة أطفال أكبرهم فى الحادية عشرة من عمره، وأصغرهم ـ هى بنت جميلة وذكية ـ فى الرابعة من عمرها .

والحق أنها ليست المرة الأولى التى أكتب إليكَ فيها ، فلقد كتبتُ لكَ من قبل رسالة لم أبعث بها إليك، لأننى لم أستأذن زوجى فى كتابتها، وحين قرأتُها عليه شعرتُ بأنه ليس راضيًا عنها ، فمزقتها .

وكانت المشكلة التى أردتُ تحكيمكَ فيها بينى وبينه هى أننى موظفة حكومية ، وزوجى موظف صغير بأحد بنوك القطاع العام وينفق مرتبه كله فى البيت ، فلا يكفى لذلك بالرغم من أنه لا يدخن ولا يجلس فى مقهى . . وكان لهذا السبب يأخذ منى مرتبى كله ليكمل به نفقات البيت ومطالب الأبناء. ولم أكن أعترض على ذلك ، لكننى كنتُ أريد فقط أن

يترك لى جزءًا من مرتبى ـ ولو ربعه ـ لكى أشعر بأننى موظفة وأتقاضى أجرًا عن عملى ولى مصروف خاص . . وكان يغضب هو لذلك ونتجادل حول هذا الأمر ، ونختلف حول مشاركتى بمرتبى كله فى مصروف الأسرة: هل هو فرض علىّ ـ كما كان يقول زوجى ـ مادامت هناك ضرورة؟! أم أنه تطوع كما كنت أقول وأرى أن الرجل هو المسئول الأول والوحيد عن تلبية مطالب أسرته ؟!

والآن يا سيدى توقف الجدال بينى وبينه حول هذا الأمر ، وليته لم يتوقف . فلقد ظهرتْ فى حياتنا منذ أربع سنوات مشكلة أخرى طغتْ على كل المشاكل وجعلتْ منها ترفًا نتحسر عليه الآن ونتمنى لو كان قد استمر . . فلقد أصبتُ بالمرض اللعين فى صدرى منذ أربع سنوات ، وقال لى الأطباء إننى محظوظة لاكتشافه مبكرًا، فحمدتُ الله على ذلك وتقبلتُ الأمر برضًا ولم أجزع له ، لأننى مؤمنة بأننا لن نهرب من أقدارنا مهما أردنا . وأُجريتْ لى الجراحة بنجاح والحمد لله. . وظلت حالتى الصحية جيدة بعدها. . فعشتُ حياة طبيعية، ورحتُ أقوم بخدمة زوجى وأطفالى وأشارك فى المناسبات الاجتماعية وأقيم حفلات أعياد الميلاد للأبناء، وأصنع التورتات بنفسى ، وأدعو الأهل والأقارب. . ونسيتُ تمامًا أننى قد ابتليتُ بهذا المرض كما طلب منى الطبيب أن أفعل. . واستمر الحال على هذا النحو مدة عامين ، ثم فجأة تدهورت حالتى وبدأ المرض ينتشر فى جسمى، وتمسكتُ بصبرى وإيمانى ورضيتُ بما اختاره لى ربى. . وتلقيتُ العلاج من جديد، وما أدراك ما

عذابه وما آثاره الجانبية !. . وتحملتُ كل شيء في جَلَدٍ وصلابة، وأخفيتُ معاناتي عن زوجي وأطفالي. . حتى كانت طفلتي تتعجب للطاقية التي أغطي بها رأسي وتسألني عن سبب ارتدائي لها دائماً، فأشغلها عن السؤال بشيء آخر. أما زوجي فلقد وقف إلى جواري في محنتي وراح يشد أزري ويخفف عني، ويذهب معي من طبيب إلى آخر، ويذكّرني بمواعيد الدواء، ويصبر على ظروفي الصحية التي لم تعد تسمح لي بأن أكون زوجة كاملة له منذ شهور. . ولم يعد له مطلب في الحياة سوى أن يستطيع ذات يوم أن يهيىء لي زيارة بيت الله الحرام. . وقد اشتركنا في جمعية ادخار لكي نتمكن من أداء فريضة الحج في المستقبل . . لكن العمر يجري ولا أحد يدري هل يتسع لتحقيق هذه الأمنية الغالية أم لا ؟

وإني أتعجب الآن من حالنا. . فلقد كانت المشكلة التي نتجادل حولها من قبل هي مرتبي، وهل أحتفظ لنفسي بقدر منه أم أنفقه كله على البيت، فنسينا هذه المشكلة الآن تمامًا، وأدركنا كم كانت تافهة. . وأصبحتْ المشكلة الآن هي : هل يكتب الله لي الشفاء في القريب العاجل أم لا ؟. . وهل يتسع العمر لتحقيق أمنية الحج أم لن يتسع؟. . فهل تعرف يا سيدي بعض الجمعيات أو الهيئات التي يمكن أن تساعدنا على تحقيق هذه الأمنية في حدود إمكانياتنا البسيطة ؟

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

لو أُتيح للإنسان أن يطلع على ما تخبئه له الأيام لاستخسر أن يبدد الأوقات الخالية من مشاكل الحياة الحقيقية فى الشقاء بما لا يستحق الشقاء به، ولأحسن الاستمتاع بأوقات السعادة الصافية من كل الأكدار وغبط نفسه عليها.. ورجا ربه أن يطيل أمدها فى رحلته ويحفظها عليه.. لكن متى أُتيح للإنسان أن يعرف ما سوف تحمله له أمواج الحياة فى قادم الايام، ليسعد بحياته الحالية ويدرك كم هو سعيد الحظ لخلوها من الآلام الجادة؟!

إننا ـ للأسف لا نتنبه إلى ذلك إلا حين تداهمنا اختبارات الحياة القاسية، ولا ندرك قيمة السعادة المتاحة لنا إلا بالمقارنة مع ما نواجهه فيما بعد من أحزان وشقاء.. ولو أُلهمنا الحكمة فى الوقت المناسب لأبينا أن نبدد لحظة واحدة من الأيام الخالية فيما لا يستحق العناء من أجله أو الشكوى منه، ولادخرْنا كل قوانا النفسية والصحية لمواجهة ما تخبئه لنا أمواج الحياة من أنواء، تمامًا كما يستثمر الملاح أوقات هدوء الرياح فى الراحة والاسترخاء والاستمتاع بجمال الطبيعة لكى يستنفر كل طاقته للسيطرة على السفينة حين تهب عليها أعاصير الشتاء.. ولأن الأمر كذلك، فلا عجب فى أن يتوارى موضوع الجدال القديم من حياتكِ يا سيدتى ويصبح ـ بالمقارنة بما امتحنتكِ به الأقدار فيما بعد ـ ترفًا تتحسرين على انقضائه وتتمنين لو كان قد استمر إلى ما لا نهاية .

فأما موضوع الجدال الجديد فى حياتكِ فإن إيمانكِ العميق بربكِ وتسليمكِ بإرادته وامتثالكِ لقضائه سوف يحسمه لصالحكِ بإذن الله ، فيتحقق الشفاء التام حين يأذن به ربكِ إن شاء الله، ويتسع العمر لزيارة بيت الله الحرام وقبر رسوله الكريم بإذن الله .

والمهم أن نستمسك دائماً بالأمل فى رحمة الله ، وأن نؤمن كذلك بحقنا العادل فى الحياة ، وفى الغد الأفضل الذى تتحقق فيه الأمنيات . . فالإيمان بالله جزء جوهرى من العلاج، والأمل الغلاّب فى الشفاء يسرع به إلى المريض ، والثقة فى الله وحسن الظن به من أهم عوامل النجاة . . وتفضلى بالاتصال بى لنستكمل الحديث حول كل ذلك إن شاء الله .

* * *



جَوَازُ سَفَر

قرأتُ رسالة «موضوع الجدال» للزوجة الشابة التى امْتُحِنَتْ بالمرض القاسى ، فأنساها ذلك موضوع جدالها السابق مع زوجها ، ووقف زوجها إلى جوارها فى محنتها ، وتمنى أن تزور بيت الله الحرام معه . .

وإذا كانت هذه السيدة تتساءل : هل يتسع العمر لتحقيق هذه الأمنية الغالية ، خاصة أن إمكاناتها المادية لا تسمح لها بذلك ؟ . . فإننى لأرجو أن يوفقنى الله سبحانه وتعالى إلى أن أحقق لها رغبة العمرة هى وزوجها فى موسم مولد النبى عليه الصلاة والسلام القريب بإذن الله ، ولذا أرجو الاتصال بى وإعطائى بياناتها وبيانات جوازىْ السفر لإعداد اللازم إن شاء الله .

●●ولكاتب هذه الرسالة أقول :

سبقتْ يد المنون ـ للأسف ـ إلى هذه السيدة الشابة ، فانتقلتْ إلى رحاب ربها قبل فترة قصيرة ـ رحمها الله وأثابها عن بلائها خير الجزاء .

ولقد التقيتُ بزوجها منذ أيام وتحدثتُ معه عن أمنية أداء عمرة مولد النبى المقبلة عسى أن يخفف الله عنه أحزانه ويعوضه خيرًا عمن فقدها، فإذا رغبتَ فى أن تنال هذا الأجر فسوف أتصل بكَ لترتيب الأمر بإذن الله .. والشكر لك .

* * *

الجَوَانِبُ المُضِيئَة

قرأتْ لكَ فى ردودكَ على رسائل قرائكَ أن الإنسان لديه ميل غريزى للرثاء لنفسه ، ولقد كانت هذه هى المرة الأولى التى أقرأ فيها عنه ، فتوقفتُ أفكر فى أمرى وأتساءل : هل يكون ما أشعر به وشعرتُ به معظم فترات حياتى ، هو من أثر هذا الميل الغريزى ؟

ولكى تعيننى على الإجابة عن هذا السؤال أريد أن أروى لك قصتى مع الحياة ، فأقول لك إنى شاب أبلغ من العمر الآن ٣٣ عامًا ، حُرِمْتُ من حنان الأم وأنا طفل صغير عمره ٤ سنوات ، وكان والدى وقتها مازال طالبًا ويقيم معظم السنة فى المدينة البعيدة ـ حيث يدرس ـ ولا يرجع إلى زوجته وطفله إلا فى شهور الإجازة الصيفية فلا يبقى لى حضن طوال العام سوى حضن أمى . . ووجدتُنى وأنا فى هذه السن الصغيرة قد حُرمتُ منه ، وعجز عقلى الصغير عن فهم سبب غيابها عنى ، غير أن الأطفال الذين لا يحترسون لكلماتهم تولوا مصارحتى بالحقيقة المريرة وهى

أنها قد «ماتت» ولن ترجع مرة أخرى أبدًا . . ولست أذكر الآن كيف تقبّل عقلى وقتها هذه الحقيقة المؤلمة ، لكنى أذكر أن مسئوليتى قد انتقلتْ بعد غياب أمى إلى جدتِى ، وأنها قد عوضتنى بعطفها عن حنان أمى المفقود، فتعلقتُ بها بشدة ، وتمتعتُ فى كنفها بالحب والرعاية والحنان ، إلى أن رجعتُ من مدرستى ذات يوم وأنا تلميذ فى السنة الخامسة الابتدائية فشهدت حركة مريبة فى البيت وسمعتُ نواحًا وصراخًا ورأيتُ شقيقتى تبكى . . فأدركتُ بحاستى أن أسرتنا قد شهدتْ حادث «غياب » جديد . . وصرختُ هلعًا حين عرفتُ أن جدتى قد تركتنْى هى الأخرى .

وتلفتُّ حولى أبحث عن أم أخرى لى . . فوجدتُ شقيقتى الكبرى ، التى لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها ، وتزوجتْ بالرغم من صغر سنها قبل شهور ، تحتضننى وتقوم منى مقام الأم بالرغم من اعتلال صحتها بسبب الحمل المبكر ، فأحببتها كما أحببتُ من قبل أمى وجدتى، ودعوتُ ربى أن يهبها الصحة وطول العمر لكى أنعم برعايتها للنهاية . . ثم حانت ساعة ولادتها ، وذهبتُ إليها فى العيادة لأزورها وأترقب مجىء مولودها إلى الحياة ، فإذا بولادتها تتعسّر ، وإذا بها تلفظ أنفاسها الأخيرة خلالها ، وإذا بى أُبتلى بفقد الأم من جديد .

وانتقلتْ رعايتى بعد ذلك إلى السيدة التى تزوجها أبى ، وكانت لم تنجب منه بعد . . فكانت ـ على خلاف الشائع فى أوساطنا عن زوجة الأب ـ أُمًّا رحيمة لى ، وتقدم نفسها للآخرين على أنها « أم فلان » أى

أمى . . ثم أنجبتْ طفلاً فأصرّتْ على التمسك بتسميتها الأولى ، مؤكدة للجميع أننى ابنها « البكرى » وفى كنف هذه السيدة الطيبة تمتعتُ بالحنان والعطف الصادقيْن ، غير أن عمر السعادة لا يطول كثيرًا فى حياتى « يا سيدى » ، فلقد فقدتُها هى الأخرى بعد بضع سنوات ورحلتْ عن الحياة صغيرة . . فبكيتها بدموع سخينة ، وتمنيتُ لو كانت زوجة أب قاسية لكيلا يوجعنى فراقها كما أوجعنى .

وبالرغم من كل شىء فقد واصلت الحياة واجتهدتُ بقدر الإمكان فى دراستى ، وتحملتُ ظروفى الخاصة من عيب فى النطق كان يعرضنى كثيرًا لسخرية زملاء الدراسة ورفاق الصبا . . إلى ضعف السمع الذى كثيرًا ما عرضنى للمواقف المحرجة . . إلى مرض فى العينين لاشفاء له، إلى اعتلال طفيف ظهر أخيرًا فى الكبد . . ولا أعرف إلى أين ستقودنى مضاعفاته . . إلى مشاكل لا حصر لها مع والدى لا أريد الإشارة إليها احترامًا وحياء منى . . إلى صدماتى العاطفية أكثر من مرة كشاب بسبب ظروفى الاجتماعية والمادية . .

وبالرغم من كل ذلك فالحياة تسير ، وهناك جوانبها المضيئة أيضًا . . فلقد تخرجتُ وعملتُ بوظيفة لا بأس بها ، وأتمتع باحترام مَن هم حولى فى المسكن والعمل . .

ولستُ أكتب لكَ رسالتى هذه طلبًا لحل مشاكلى لأن حلها ليس فى مقدور أحد ، وإنما أكتبها لكَ لكى يقرأها بعض اللاهين والساخطين

على حياتهم بلا سبب جِدِّى يدعوهم لذلك ، ليعرفوا قيمة ما بين أيديهم من أسبَاب السعادة . . فأهمها الأسرة المستقرة والبيت الدافىء بعطف الأبوين وحبهما ورعايتهما لأبنائهما . . أما أنا فإنه تحيرنى عدة أسئلة آمل أن أجد لديكَ الإجابة عليها . . الأول هو : هل ترانى مُحِقًّا فى الشعور ببعض الرثاء للنفس من واقع ظروف حياتى ، أم هل ترى ذلك من أثر هذا الميل الغريزى لدى الإنسان ؟ . . والثانى هو : إذا كان الإنسان مؤمنًا ويؤدى فرائض دينه على أكمل وجه ، فلماذا يُبْتَلى بمثل هذا العذاب ؟ وألا يُحْتَملُ أن يهز ذلك من إيمانه ؟ . .

أما السؤال الأخير فهو : لو قُدِّرَ لى الزواج ذات يوم ، تُرَى هل ستدور الدائرة من جديد على أبنائى فيعانون مما عانيت منه . . أم أن أقدارهم ستكون أرحم بهم من أقدارى ؟

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

الحياة تسير دائماً سواء رضينا عن أقدارنا فيها أم سخطنا عليها . . . ولا خيار أمامنا سوى اللحاق بركبها ومداواة جراحنا ومحاولة التواؤم مع ظروفنا وأقدارنا ، لأن القافلة لا تنتظر المتخلفين عنها . . ولا عائد لنا من التجمد أمام الأكدار سوى مضاعفة الخسائر ، واتساع الشقة بيننا وبين الركب المتجه دومًا إلى غايته .

ولا عزاء لنا سوى أن نتمسك دائماً بالإيمان بالله والرضا بقضائه وقَدَرِه خيرِه وشَرِه ، وبالأمل الدائم فى أن يكون الغد الآتى أفضل من الأمس

المنقضى ، وسوى أن نردد دومًا مع « الإمام الشافعى » رضى الله عنه :

دَعِ الأيـامَ تَـفْـعَـلُ مَـا تشَـاءُ

وَطبْ نَفْسًا إذا حَكمَ الْقَضَاءُ

ولقد كان من دعاء خامس الراشدين « عمر بن عبد العزيز » :

اللهم أرضنى بقضائِك ، وبارِك فى قَدَركَ حتى لا أحب تعجيل ما أَخّرْتَ ولا تأخير ما عَجَّلْتَ !

وقد ضرب لنا المثل الأعظم فى الرضا بقضاء ربه وقدره ، حين ثكل ابنه التقى الورع « عبد الملك » وفاضتْ روحه وهو بين ذراعيْه ، فبكاه عمر حتى ابتلتْ لحيته ، ولم يرَ فى ذلك بأسًا لعلمه أن الرسول الكريمَ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد بكى لموت ولده « إبراهيم » ولم يقل ما يغضب ربه ، فما إن غادر عمر حجرة ابنه مطأطئ الرأس كسير القلب وجاءه الناس يعزونه ، حتى كان قد تمالك نفسه من جديد . . فقال لمن يعزونه :

ـ أمر قد رَضِيهُ الله لى فلا أكرهه .

ومن بعد الرضا بالأقدار يجىء الأمل دومًا فى الغد الأفضل وتعويض السماء ، فإذا كنتَ تسألنى بعد ذلك عن مشروعية إحساسكَ ببعض الرثاء لنفسك بعد كل ما عانيتَ من حرمان : من حنان الأم ، وفَقْد متكرر للأمهات البديلات ، وبصمات العناء على سمعكَ وبصركَ

ولسانك وكبدكَ ، فإنى أجيبك بأن الرثاء للنفس عن حق ـ كما فى مثل ظروفك المؤلمة ـ لا يتعارض مع الرضا بأقدار الإنسان فى الحياة والقبول بها ، وإنما هى لحظات عابرة يستسلم فيها المرء لإحساسه بالإشفاق على نفسه مما يكدره ، ويتوجه فيها بالأمل فى رحمة الله أن تعوضه السماء عما عاناه من آلام وأحزان جزاءً وِفَاقًا لما صبر عليه من أحزان الحياة ، ولا بأس بذلك من حين لآخر كلما اشتدتْ معاناة الإنسان ، وكلما كانت أحزانه وآلامه حقيقية وليست موهومة ولا مُبَالَغًا فيها . . فمن حق المحزون أن تدمع عيناه ـ يا صديقى ـ رثاءً لنفسه ، وترويحًا عما يختزنه صدره من هموم ، وأملاً فى رحمة أرحم الراحمين سبحانه بغير أن ينقص ذلك من رضاه وإيمانه بربه وتسليمه بأقداره . . فللنفس طاقتها فى النهاية على الاحتمال ، وما اختبارات الحياة سوى امتحان السماء لصبر المؤمنين وتقبلهم لما تجىء به إليهم أقدارهم ، وقد أعيا سؤالك عن حكمة الابتلاء ذوى الألباب منذ قديم الزمان ، ولم ينقذهم من حيرتهم إزاءها سوى التسليم المطلق بقضاء الله وقدره ، وإسلام الوجه لله ، والرضا بكل ما تحمله إليهم أمواج الحياة ، والتعزّى فى ذلك بمضمون الحديث الشريف الذى يقول لنا : إنه ما من شوكة تصيب المؤمن إلا ويمحو بها الله من سيئاته أو يرفع بها من درجاته .

وبقوله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ ﴾[1] .

وبقول النبى « داود » عليه السلام : « لله الحكمة . . ولنا الألم » .

أى أن له ـ جل شأنه حكمته التى تخفى عن الأفهام فيما يقدّره علينا من أقدار ، ولنا نحن ظاهرها البادى من الألم . . وهو خير لنا فى الآخرة إنْ كنا من الصابرين . .

فما يزداد المؤمنون باختبارات الحياة ومحنها إلا إيمانًا ، وطمعًا فى حسن جزاء الصابرين عند ربهم .

فأما سؤالكَ : هل إذا تزوجتَ فسوف تدور الدائرة على أبنائكَ فيعانون مثل ما عانيتَ أنت ، فعلم ذلك عند ربك سبحانه وتعالى وحده . . غير أن الرجاء فى رحمة الله لا ينقطع أبدًا ، والله جل شأنه عند حسن ظن عبده به ـ كما جاء فى مضمون الحديث القدسى .

ولقد وجدتَ أنتَ من إيمانكَ بربكَ ورضاكَ بأقداركَ ما لم يحجب عنكَ بعض الجوانب المضيئة فى حياتكَ ، فتحدثتَ عن توفيقكَ فى الدراسة والعمل ، فلِمَ لا تتوقع أن تتسع مساحة هذه الجوانب المضيئة فى حياتك، وأن يعوضكَ ربكَ عن معاناتكَ بالتوفيق فى الزواج . . والسعادة بالأبناء الأصحاء الناجحين فى الحياة بإذن الله ؟

إننا ندعو الله دائمًا أن تكون حظوظ أبنائنا فى الحياة أفضل من

---

(١) سورة البقرة ، من الآية ٢١٤ .

حظوظنا نحن فيها ، وأن تجنبهم عناية السماء أشواك الطريق التى أدْمَتْ أقدامنا خلال رحلة الحياة ، فلماذا لا تَأمل أنتَ أيضًا فى ذلك وتستبشرَ به إن شاء الله ؟ !

* * *

كتب للمؤلف

١ ـ أصدقاء على الورق	قصص إنسانية	الطبعة	الثانية	١٩٩٨
٢ ـ يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة	الأولى	١٩٨٧
٣ ـ هتاف المعذبين	قصص إنسانية	الطبعة	الثانية	١٩٩٨
٤ ـ صديقى لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	الطبعة	الرابعة	١٩٩٦
٥ ـ نهر الحياة	قصص إنسانية	الطبعة	الثالثة	١٩٩٦
٦ ـ العصافير الخرساء	قصص إنسانية	الطبعة	الثالثة	١٩٩٦
٧ ـ صديقى ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة	الثانية	١٩٩٣
٨ ـ افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة	الثانية	١٩٩٦
٩ ـ اندهش يا صديقى	مقالات وصور أدبية	الطبعة	الرابعة	١٩٩٧
١٠ ـ أزواج وزوجات	قصص إنسانية	الطبعة	الثالثة	١٩٩٦
١١ ـ أرجوك لا تفهمنى	قصص إنسانية	الطبعة	الثانية	١٩٩٦
١٢ ـ رسائل محترقة	قصص إنسانية	الطبعة	الثانية	١٩٩٦
١٣ ـ أماكن فى القلب	قصص إنسانية	الطبعة	الأولى	١٩٩٤
١٤ ـ لا تنسنى	قصص رومانسية	الطبعة	الثالثة	٢٠٠٠
١٥ ـ نهر الدموع	قصص إنسانية	الطبعة	الثانية	١٩٩٦
١٦ ـ أقنعة الحب السبعة	قصص إنسانية	الطبعة	الرابعه	٢٠٠٠
١٧ ـ سلامتك من الآه	مقالات وصور أدبية	الطبعة	الثانية	١٩٩٨

١٨ ـ هو وهى والآخرين	قصص إنسانية	الطبعة	الأولى	١٩٩٧
١٩ ـ مكتوب على الجبين	قصص إنسانية	الطبعة	الثانيه	٢٠٠٠
٢٠ ـ أوراق الليل	قصص إنسانية	الطبعة	الثانية	٢٠٠٠
٢١ ـ طائر الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة	الثانية	١٩٩٩
٢٢ ـ أعط الصباح فرصة	مقالات وصور أدبية	الطبعة	الثانية	٢٠٠٠
٢٣ ـ الحب فوق البلاط	قصص قصيرة	الطبعة	الثانية	٢٠٠٠
٢٤ ـ سائح فى دنيا الله	أدب رحلات	الطبعة	الثانية	١٩٩٧
٢٥ ـ قالت الأيـام	قصص إنسانية	الطبعة	الأولى	١٩٧٧
٢٦ ـ صور من حياتهم	مقالات وصور أدبية	الطبعة	الثانية	١٩٩٧
٢٧ ـ أهلاً . . مع السلامة	مقالات وصور أدبية	الطبعة	الأولى	١٩٩٨
٢٨ ـ قدمت أعذارى	خواطر وتأملات	الطبعة	الأولى	١٩٩٩
٢٩ ـ أيام السعادة والشقاء	قصص إنسانية	الطبعة	الأولى	١٩٩٩

● كتب للمؤلف من إصدارات « الدار المصرية اللبنانية »

٣٠ ـ العيون الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة الخامسة	١٩٩٨
٣١ ـ وقت للسعادة . . وقت للبكاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة	٢٠٠٠
٣٢ ـ شركاء فى الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة	١٩٩٦
٣٣ ـ خاتم فى إصبع القلب	صور أدبية	الطبعة الثالثة	١٩٩٩
٣٤ ـ وحدى مع الآخرين	مقالات	الطبعة الثالثة	١٩٩٩
٣٥ ـ ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٣٦ ـ عاشوا فى خيالى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة	٢٠٠٠
٣٧ ـ ترانيم الحب والعذاب	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٣٨ ـ الثمرة المرة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٣٩ ـ دموع القلب	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٤٠ ـ أرجوك أعطنى عمرك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٤١ ـ من المفكرة الزرقاء	صور ومقالات أدبية	الطبعة الأولى	٢٠٠٠
٤٢ ـ الأرض المحترقـة	قصص إنسانيـة	الطبعة الأولى	٢٠٠٠

الفهرس

* * *

عـــربيـــة للطباعة والنشر

7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين

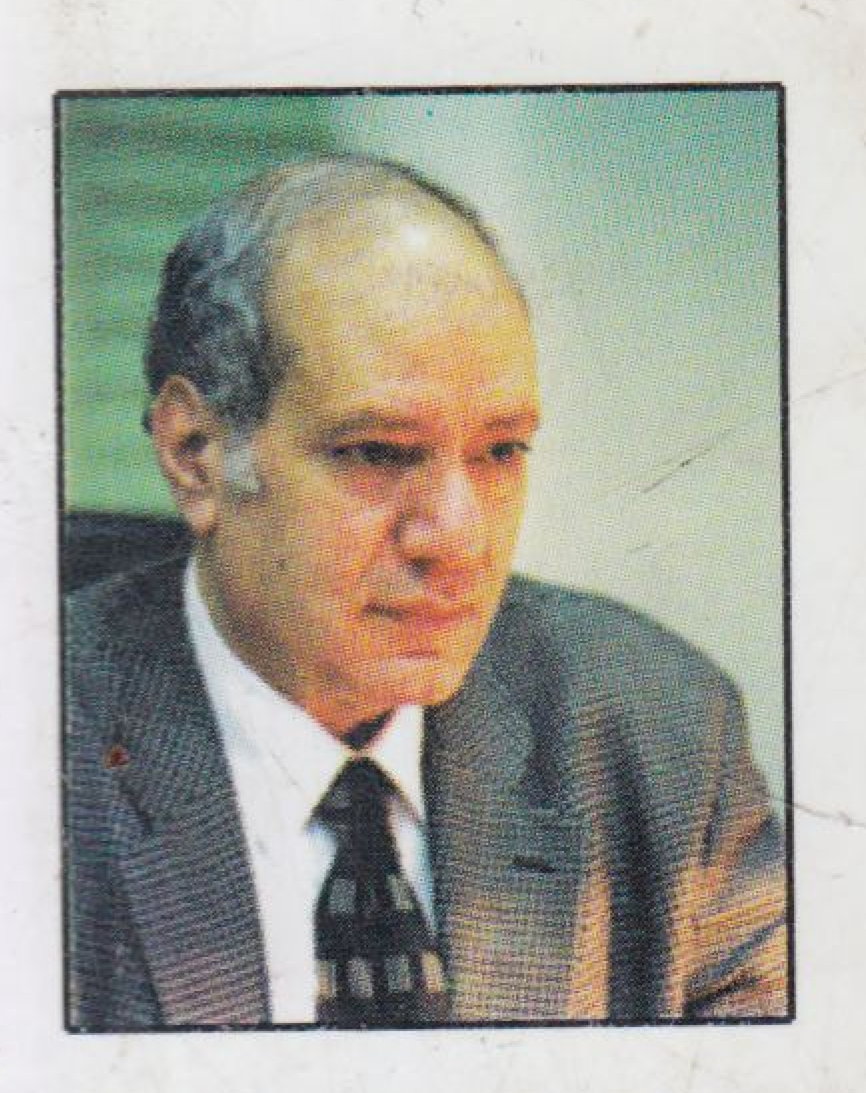
تليفون : 3256098 - 3251043

الأرض المحترقة

● عندما فكر الأستاذ الكبير عبد الوهاب مطاوع فى اختيار عنوان هذا الكتاب ، تذكر ما كانت تفعله الجيوش المهزومة حين كانت تضطر إلى الانسحاب من الأرض التى كانت تحتلها .. فكانت تقوم بحرق هذه الأرض وتدمير ما عليها حتى لا يستفيد منها الجيش المنتصر.

● ولاحظ الأديب الكبير الأستاذ عبد الوهاب مطاوع فى بعض الرسائل التى تصل إليه من قرائه ، والتى يعرضون فيها مشاكلهم، ويطلبون مساعدتهم فى حلها، أن بعض أصحاب تلك الرسائل يفعلون بحياتهم وبحياة الآخرين الذين يرتبطون بهم ، ما كانت تفعله الجيوش المهزومة من حرق وتدمير فى الأرض قبل انسحابهم منها .. حيث كان بعض أصحاب تلك الرسائل يدمرون حياتهم بسوء التصرف وضيق الأفق و«البطر» والتعجل وقلة الصبر على المكاره .. فيدفعهم الحمق إلى الإضرار بأنفسهم وبالغير فى حمأة الغضب والرغبة فى الانتقام.

● وفى هذا الكتاب يعرض لنا الأستاذ المؤلف بعضًا مما ألهمه به الله من حلول موفقة لمثل تلك المشاكل .



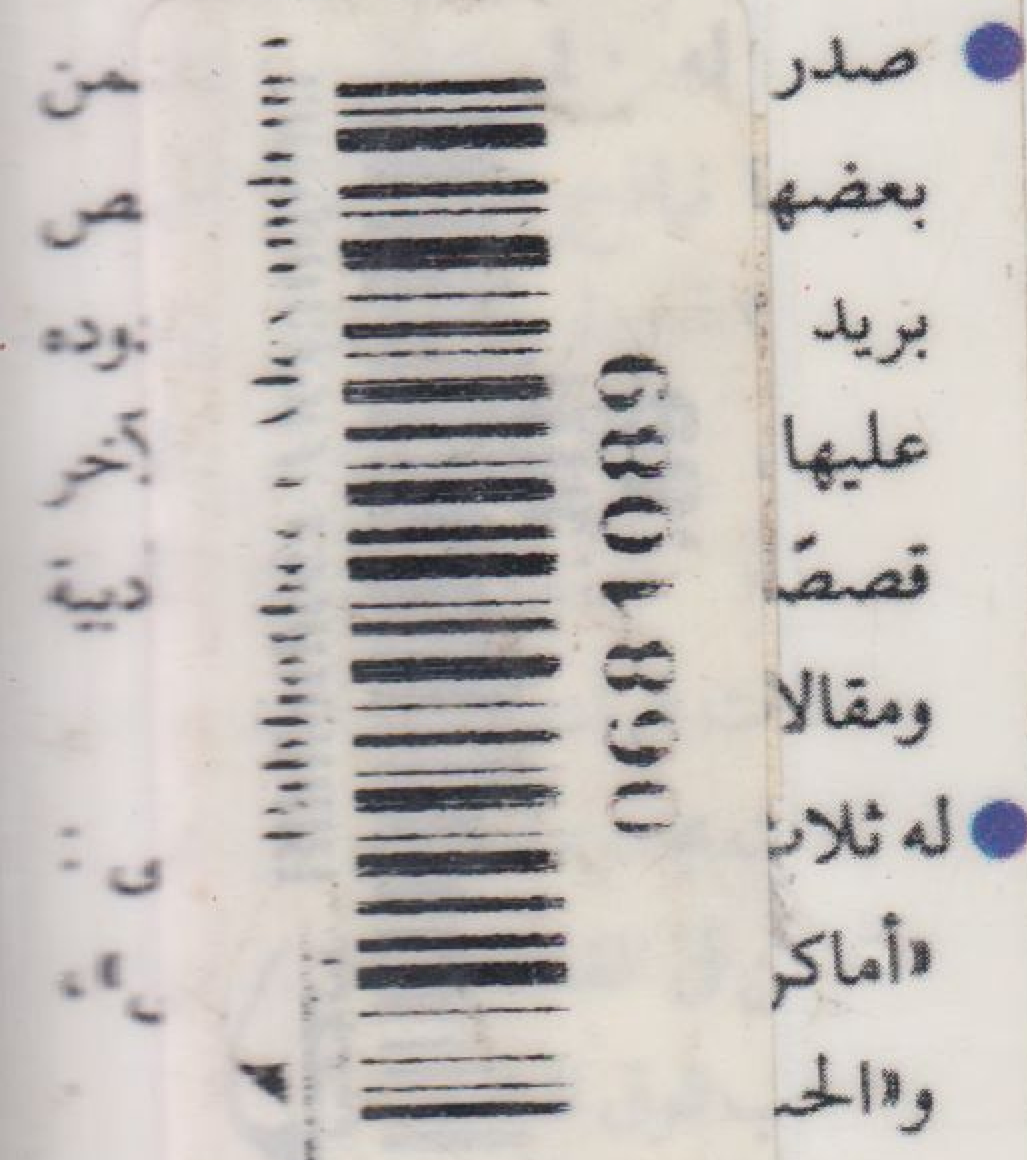
● مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب .

● حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين الصحفية عام ١٩٩٢ كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية .

● يكتب باب « بريد الجمعة » الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام ١٩٨٢ ، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام .

● صدر ... عن بعضه... ص بريد ... وده عليها ... آخر قصصً... دبية ومقالا...

● له ثلاث... ى : «أماكن... »، و«الحـ...




6 222006 302153

الدار المصرية اللبنانية